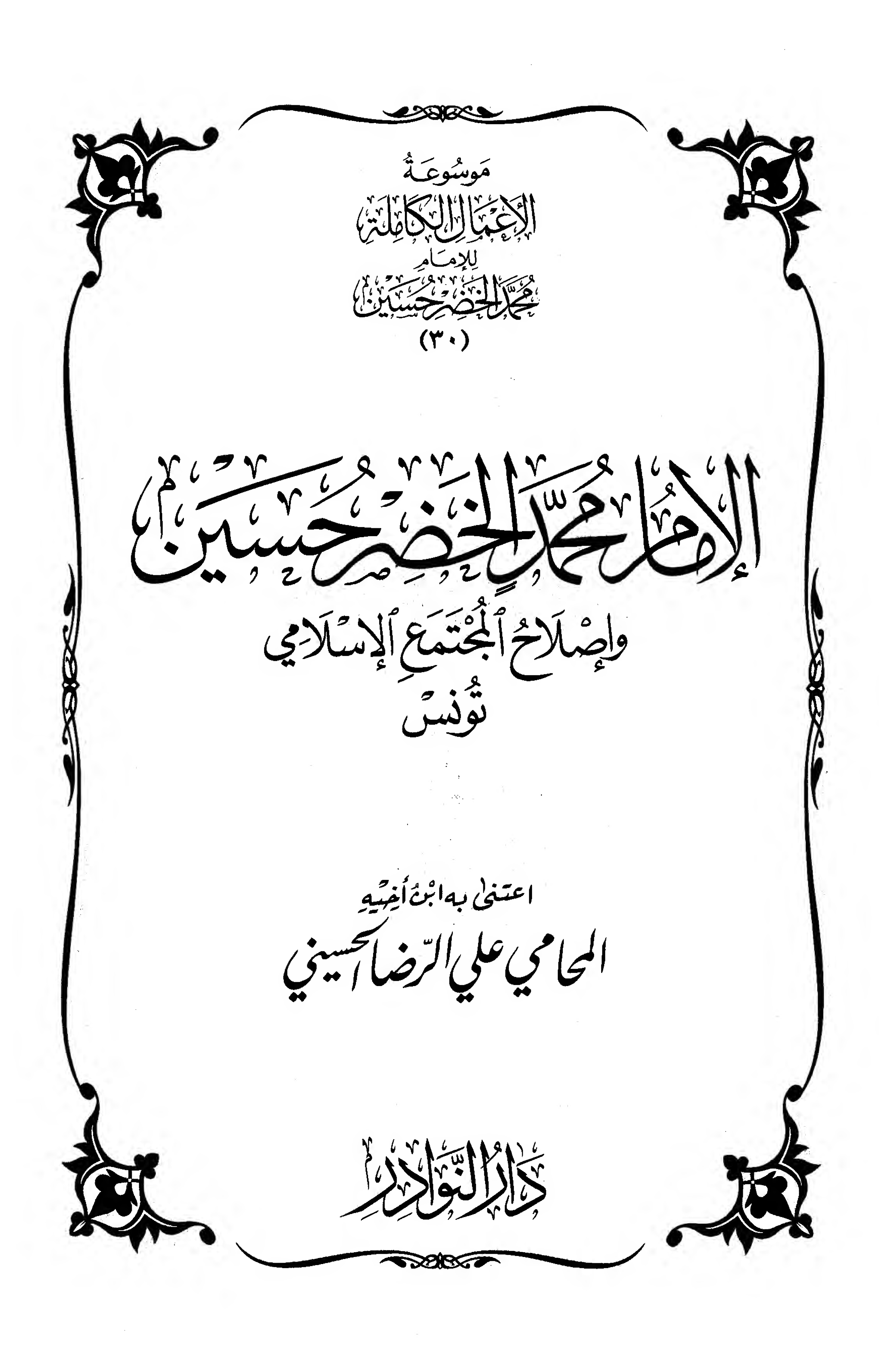


موسوعة

الأعمال الكاملة

للإمام

محمد الخضر حسين

(٣٠)

الإمام محمد الخضر حسين

وإصلاح المجتمع الإسلامي

تونس

اعتنى به ابن أخيه

المحامي علي الرضا الحسيني

دار النوادر



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ردمك : ٩ - ٨٠ - ٤١٨ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ : ISBN

9789933418809

دار النوادر

سورية - لبنان - الكويت

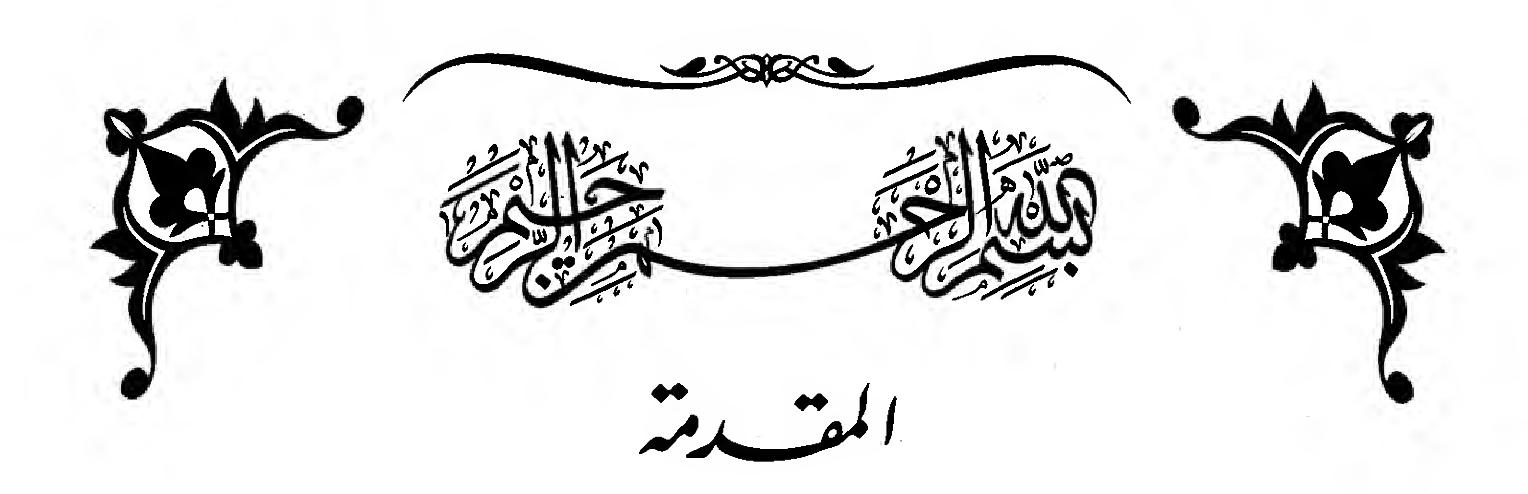
مُؤَسَّسَة دَار النَّوَادِر م.ف - سُورِيَة * شَرِكَة دَار النَّوَادِر اللُّبْنَانِيَّة ش.م.م - لُبْنَان * شَرِكَة دَار النَّوَادِر الكُوَيْتِيَّة - ذ.م.م - الكُوَيْت

سورية - دمشق - ص. ب : ٣٤٣٠٦ - هاتف : ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس : ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان - بيروت - ص. ب : ١٤/٥١٨٠ - هاتف : ٦٥٢٥٢٨ - فاكس : ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - حولي - ص. ب : ٣٢٠٤٦ - هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس : ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أسسها سنة : ٢٠٠٦م
نُورُ الدِّين طَالِب
المدير العام والرئيس التنفيذي



المقدمة

أصبحتِ (نفطةُ) فوقَ كلِّ لسانِ | وفَخَرْتِ بـ (الخِضْرِ) عظيمِ الشّانِ
وغدوتِ جوهرةَ الثقافةِ منذ أنْ | وُلِدَ الإمامُ بحضنِكِ الريّانِ
و(الكوفةُ الصُّغرى) تُسمَّى بعدَهُ | بـ (الكوفةِ الكبرى) مِنَ الأوطانِ
تتوجّهُ الأنظارُ نحوكِ كلّما | ذُكِرَ الإمامُ بمجلسِ الإيمانِ
لكِ في القلوبِ وفي العيونِ مكانةٌ | ما حازَها بلدٌ من البلدانِ[1]

زهت مدينة «نفطة» أو (الكوفة الصغرى) ـ كما عُرفت عبر تاريخها العريق ـ خلال أيام ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ جانفي كانون الثاني من عام ٢٠٠٩م التي انعقدت فيها (الندوة العلمية العالمية الأولى للإمام العلامة محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي)، وارتدت، وتزيّنت بأبهى وأحلى وأجمل حللها القشيبة، وتعلقت على جدرانها العتيقة البديعة لافتاتٌ احتوت ما جَمُلت قراءتُه، وجلّت معانيه من أقوال الإمام الخضر حسين ـ رضوان الله تعالى عليه ـ، وبدت في بهجة عيد انتظرته طويلاً.

أقول: برزت «نفطة» من بلاد الجريد ـ مولد الإمام محمد الخضر حسين ـ وضاءةَ الوجه، رافعةَ الجبين، تتباهى وتجرُّ ذيول الفخر والاعتزاز بوليدها

(١) هذه الأبيات في ديواني «خماسيات الحسيني».

وابنها البارّ الإمام، الذي أجمع العالَمان العربيُّ والإسلامي على مكانته السامية، وفضله وعلمه الوفير، ونضاله من أجل تونس والعرب والإسلام، وأوقف حياته في هذا الميدان ـ محتسباً أوّاباً صدّيقاً ـ إلى رب العالمين، إلى الله ـ جل وعلا ـ الذي لم يعبد سواه، ولم يمالئ أو يدارِ أحداً من الخلق في دنياه، مردِّداً قوله في بيته الشعري الشهير:

أنــا لــولا همــةٌ تحــدو إلــى خدمــةِ الإســلامِ آثــرتُ الحِمامــا

وقوله الذي كان كثيراً ما يردّده:

ولولا ارْتياحي للنضالِ عن الهدى لَفَتَّشتُ عن وادٍ أعيشُ بـه وَحْـدي

هذا قوله الصادق، وقلبه السليم، وعمله الدؤوب طوال حياته المباركة، وكتابُه الذي حمله بيمينه للقاء رب العالمين.

إن مبادرة (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي) بإقامة هذا الملتقى الإسـلامي الجامـع، عملٌ أُكبره وأُجِلُّه، وأُثني وأُحَيي القائمين عليه، فقد آن لتونس أن تكرِّم عظماءها وعلماءها، ورجالها المناضلين المخلصين بحق وأمانة، وأن ترفعهم إلى مكانتهم اللائقة والمستحقة لهم، لاسيما أولئك الذين هاجروا من ديارهم، وانتقلوا في آفاق الدنيا حاملين رسالة الوطن الكبرى، رسالةَ الاستقلال وطرد الغاصب المحتل؛ من أجل أن تتبوّأ تونس مكانها بين كواكب الدول في سماء الحرية والسيادة... وأن يتطلع إليها العالم كأمـة أنجبت الأفـذاذ والنبغاء وروّاد الكفاح، وزاحمت بمنكبيها سائر الأقطار المتقدمة والمتطلعة دوماً إلى المستقبل؛ لتقول: إن فيها رجالاً مفكرين ومبدعين، ومناضلين أحراراً وأشرافاً يستحقون أن ينالوا بفضل علمهم وعملهم أعلى المناصب السياسية والدينية، وأرفعَها منزلة؛

كمشيخة الأزهر التي ارتقى إليها الإمام محمد الخضر حسين بقوة إيمانه وتقواه وورعه، وعلومه التي زوّده بها الجامع الأعظم ـ جامع الزيتونة في تونس ـ، وضم إليها علوم الجامع الأزهر، فتوّجته إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ شيخاً للجامع الأزهر.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يكافئ رجاله الصادقين المخلصين في دنياهم قبل أن يُثيبهم في آخرتهم أولئك ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[فصلت: ٣٠].

والحديث عن سالف الزمن لم يعد من المفيد ذكرُه في هذه المقدمة. عندما حاول الطغيان والجهل والغباء أن يطمس وجه تونس المشرق، ورجالاتها وزعماءها المخلصين. والله ـ سبحانه وتعالى ـ عنده الجزاء والحساب.

ولكن بعد زوال الغمّة، وانكشاف العسر والهيمنة والضياع، عادت تونس إلى تاريخها الصحيح الصادق، وفتحت صفحاتها الناصعة المضيئة والحمد لله.

لقد كان من حق الجزائر أن تحتفل بالإمام محمد الخضر حسين من خلال الملتقى الهام الذي أقامته (الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية) في مدينة «بسكرة» أيام ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ديسمبر كانون الأول ٢٠٠٧م. كذلك من حق تونس أن تقيم المهرجان العلمي العالمي الأول خلال أيام ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ جانفي كانون الثاني ٢٠٠٩م... بل ومن الجدير بالعالم الإسلامي أن يقيم الندوات والدراسات حول الإمام.

إن هذه الندوات والملتقيات حافز للمثقفين والدارسين والباحثين لاستكشاف آراء الإمام الإصلاحية، ودعوته الإسلامية، ونضاله السياسي. لا للدراسة والقراءة، بل للعمل بموجبها في كافة مناحي الحياة، وهي في

حقيقتها منارة من منارات الشريعة الإسلامية، هذه الشريعة التي هي صالحة لكل زمان ومكان.

إن ميزات هذه التظاهرات العلمية، تعبير عما تكنه الأمة من تقدير واحترام لرجالها الأوفياء، وإن ما نَنشده هو الانتفاع، والاستثمار لتراث الإمام وأفكاره وعلومه المبثوثة في الكتب التي نشرناها له، والتي يأمل الإمام أن تكون دعوة صالحة عند الله تعالى.

ليس من المهم مطلقاً أن نكتفي بإطلاق الصفات عليه، سواء كان إصلاحياً، أو تجديدياً، أو تنويرياً، فإن فكر الإمام ـ بمواهبه المتعددة في كل ميدان من ميادين العمل الإسلامي ـ يدعونا إلى الأخذ به، والسير على منهاجه؛ لأن النهج الذي دخله من باب الإسلام، ولخدمة الإسلام، ولا غاية من وراء ذلك إلا أن يرى الإسلام عزيز الجانب؛ لأنه الدين الذي اختاره الله لعباده.

والحمد لله على ما هدى. والحمد لله على نعمة الإسلام.

علي الرّضا الحسيني









كلمة اللجنة التنظيمية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يشرفني أن أكون معكم في هذه الندوة، وفي هذه الجلسة، باسم اللجنة التنظيمية والعلمية لهذه الندوة التي تنعقد بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاة أحد أعلام تونس والعالَم الإسلامي: الشيخِ العلامة محمد الخضر حسين.

ويشرفنا جميعاً أن يكون بيننا المثقف والمبدع المتميز والأصيل والأخ العزيز عبدُ الرؤوف الباسطي وزيرُ الثقافة والمحافظة على التراث، والذي أصر على أن يكون معنا في هذه الجلسة؛ إذ كانت الجلسة بعد الظهر، فاضطر أن يأتي هذا الصباح، وسيعود مباشرة بطائرة خاصة لمواكبة نشاطه الوطني في البلد، وهذا الإصرار نعتبره تشريفاً لنا بكل صراحة، وشكراً له.

طبعاً الشكر له، والشكر للسيد الوالي الذي لقيته وزرته، وأكدت له أننا نساعد وندعم كل الجهود التي تتم في هذه المنطقة.

وإني أوجه الشكر الخاص لسيادة الرئيس زين العابدين بن علي الذي دعَّم هذه الندوة أدبياً ومادياً، وساندها، ويكفي أن أشير إلى أمرين:

---

(١) ألقاها ارتجالاً الكاتب والأديب التونسي الأستاذ محمد مواعدة عضو مجلس المستشارين، والخبير لدى المنظمة العربية للتربية والثقافة التابعة للجامعة العربية.

الأول: أن سيادة الرئيس في عام ١٩٩٦م من القرن الماضي، وسّم، وقام بتقليد وسام ثقافي لأخينا علي الرضا التونسي الحسيني ابن أخ العلامة الخضر حسين.

وهذا الوسام للجهود التي قام بها الأخ علي الرضا في طبع مؤلفات الخضر حسين.

لا غرابة أن يكون هذا من رئيس الدولة، ونحن في سنة ٢٠٠٩م حيث القيروان ـ يعني: تونس ـ عاصمة الثقافة الإسلامية، وفي عام ٢٠٠٩م مئويةُ أبي القاسم الشابي. إذن، كل هذه الأجواء فيها يتضمن هذا العمل الثقافي، هذه الندوة.

وإني أشكر كل الإخوة الذين حضروا معنا.

أبدأ بالإخوة من الجزائر الشقيقة: الدكتور العربي الزبيري، وهو مؤرخ، والأستاذ فوزي المصمودي، ومعه نخبة من الجمعية الجزائرية (الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية) في «بسكرة»، وهذه الجمعية نظمت قبل سنة ندوة عن الخضر حسين، وتشرفتُ بالمشاركة فيها، وهم الآن يشاركوننا في هذه الندوة، وسينتظم عمل مشترك تونسي جزائري في هذا الاتجاه.

أوجه شكري ـ أيضاً ـ بالإضافة إلى الإطارات الإدارية والجهوية والتجمع، إلى الأساتذة الذين شرفونا بالحضور، أذكر في مقدمتهم: أستاذنا الكبير الأستاذ المنجي الشملي، والأخ فؤاد قرقوري، وهو أستاذ ودكتور وأمين عام مساعد بالتجمع، مسؤول عن الثقافة، ورئيس اللجنة الثقافية والتربوية في مجلس النواب التونسي، والدكتور أحمد الطويلي.

ونرحب بالأساتذة الذين شاركوا معنا، وعددهم كبير جداً، ونُجلّهم جميعاً.

هذا العمل تقوم به (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي)، ويمثلها الأخ العزيز الدكتور فتحي القاسمي الكاتب العام للجمعية، ورئيس الجمعية الدكتور كمال عمران مدير إذاعة الزيتونة بتونس، ولاعتبارات تنظيمية جامعية سيكون معنا بعد الظهر ـ إن شاء الله ـ.

هذه الندوة ـ كما قلت ـ بمناسبة الخمسين، وتنتظم في جلسات اليوم بعد الظهر، وغداً، ويوم الأحد، يشارك فيها نخبة من المثقفين من تونس والجزائر، وستكون اللحمة بين هذين الشعبين الشقيقين. و ـ أيضاً ـ يشارك معنا بداية من الغد شيخٌ من الأزهر، هو العلامة الدكتور مجاهد توفيق الجندي، يأتي هذا المساء، وهو مؤرخ الأزهر، وعضو في الجمعية التاريخية الإسلامية والعربية والدولية.

في هذه الندوة، هناك كفاءات تونسية وجزائرية، وطبعاً من سورية الأخ علي الرضا، وإن كان هو سورياً تونسياً جزائرياً، فهو يجمع بين هذه الأصول جميعاً.

هذه أجواء الندوة الدولية، وكان في نيتنا مشاركة كفاءات من الخارج من أوروبا.

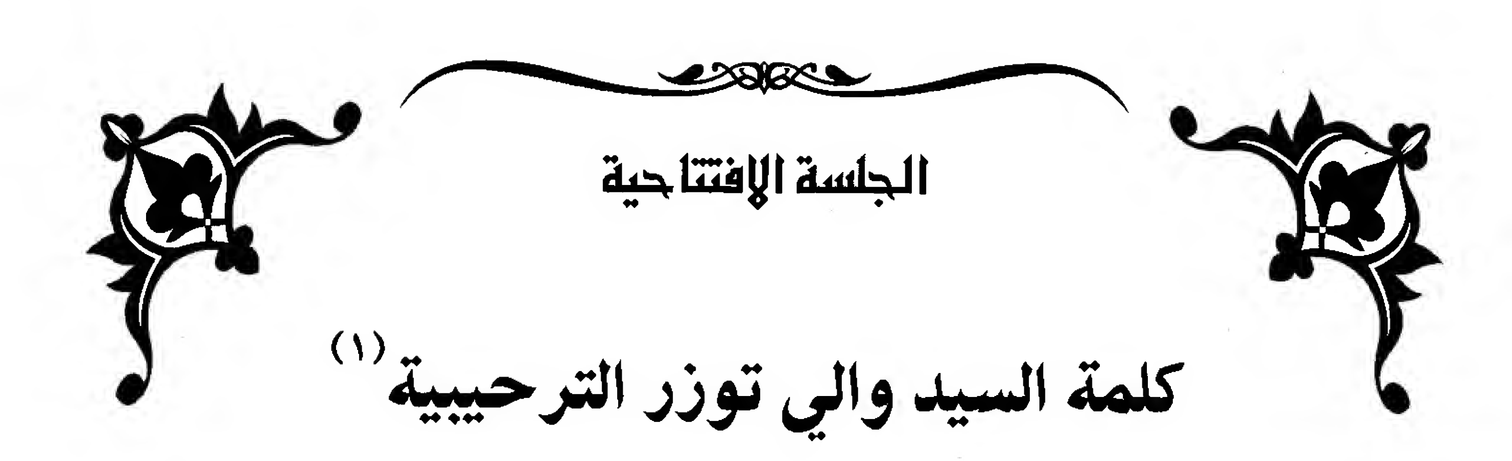
ما قلته للسيد الوزير، وللسيد الوالي: إن الكفاءات الوطنية في تونس من هذه الجهة ـ ولاية «توزر» وغيرها ـ مطالبة بالمشاركة في هذا المجال. هذه الندوة بداية لعمل آخر ستشارك فيه كل كفاءات أبناء الجريد بدون استثناء، هذا الجريد الذي أنجب ابن الشباط، وأبا علي السني، وأبا العباس الدرجيني

صاحب «طبقات الدرجيني». . . إلى آخره، بالإضافة إلى الشعراء الجدد؛ كالشابي، والميداني بن صالح، والخريف، وغيرهم.

يعني: نحن مطالبون بدعم ومساندة الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي، ووزارة الثقافة والمحافظة على التراث، ووزارة الشؤون الدينية، والإطارات المعتمدية والجهوية أن تشارك في إثراء هذا الحوار وتعريفه؛ ولأن في ذلك تأصيلاً لهذا الإطار، وهناك الكلمة السابقة التي ألقاها السيد الرئيس عن قيمة الثقافة، وقيمة الثقافة التونسية في تأصيل ودعم الثقافة الإنسانية.

دون أن أطيل، أحب أن أؤكد التقدير لكل الإطارات الإدارية، والجهوية والتجمع في هذا العمل المشترك. وتونس تحتاج إلى الجميع دون استثناء. والسلام عليكم.





الجلسة الافتتاحية

كلمة السيد والي توزر الترحيبية(1)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

- السيد الكاتب العام للتنسيق بالتجمع التونسي الديمقراطي!

- السادة أعضاء لجنة التنظيم، وأعضاء الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي!

- حضرات السيدات والسادة!

في البداية أرحب بكل ضيوف مدينة «نفطة» بولاية توزر الوافدين من الدول الشقيقة: مصر، وسورية، والجزائر، وكل الأساتذة والباحثين الأجلاء من الجامعة التونسية.

أرحب الترحاب الحار بالسيد عبد الرؤوف الباسطي وزير الثقافة والمحافظة على التراث، الذي يشرف على افتتاح هذه الندوة الفكرية، والتي تنظم ببادرة من الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي، بدعم من وزارتي: الثقافة والمحافظة على التراث، ووزارة الشؤون الدينية، حول العلامة محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي.

---

(1) ألقاها الأستاذ صلاح رمضان والي توزر. وإن مدينة «نفطة» تابعة لولاية توزر؛ لذا كانت الكلمة للوالي.

هذه الندوة تقام في مدينة «نفطة» بولاية توزر المشهورة عبر التاريخ برسالاتها، وبمخزونها وموروثها الثقافي، ولاية توزر التي تعتبر ولاية التغيير، وتحظى بعناية موصولة من الرئيس زين العابدين بن علي. ولاية توزر، هذا القطب السياحي، والقطب الفِلاحي، والقطب الجامعي والثقافي. هذه الولاية التي تعيش حركية وتنمية شاملة.

أحب بالمناسبة أن أتمنى لكم إقامة طيبة في هذه الربوع، وهناك فرصة سواء للإطارات التونسية من مختلف الولايات، أو من الدول الشقيقة؛ من الاطلاع عن كثب على ما تشهده ولاية توزر، مثلها مثل مختلف الولايات الأخرى في العهد الجديد من تنمية شاملة، متمنياً لكم طيب الإقامة، ومتمنياً لكم ولأشغال ندوتكم هذه النجاح والتوفيق، والسلام عليكم.



كلمة السيد وزير الثقافة والمحافظة على التراث الأستاذ عبد الرؤوف الباسطي بافتتاح أعمال الندوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

- السيد والي توزر!
- الكاتب العام للتنسيق بالتجمع التونسي الديمقراطي!
- السيد المعتمد الأول!
- أعضاء مجلس النواب، وأعضاء مجلس المستشارين، وأعضاء اللجنة المركزية للتجمع!
- السيد فتحي القاسمي الكاتب العام للجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي!
- الأستاذ محمد مواعدة عن الهيئة التنظيمية لهذه الندوة!
- الأساتذة الأجلاء!
- أيها السيدات والسادة!

يسعدني أن أكون بينكم اليوم في هذه المدينة الجميلة، هذه المدينة العريقة التي تعتز بعطائها المستمر في المجال الثقافي والفكري، وفي بناء

الوطن، وإلى مزيد من التقدم، مدينة «نفطة» الجميلة.

يسعدني أن أكون بينكم في هذه المدينة لافتتاح هذه الندوة الدولية حول العلامة محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي. هذه الندوة التي تنظمها الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي، والتي تندرج في سياق سعي دؤوب انطلق منذ فجر التغيير المبارك بهدي من سيادة الرئيس زين العابدين بن علي، وسعي متصل الحلقات على درب تحقيق المصالحة، مصالحة التونسي مع مقومات هويته، ومع تراثه الإصلاحي السَّرِيِّ والثريّ.

ولا شك بأن بلادنا قد أنجبت أعلاماً أفذاذاً، ومصلحين روّاداً، كان لهم ـ منذ القدم ـ إسهام بارز في إنماء الثقافة العربية الإسلامية، وتغييرِ الفكر الإنساني. وإن المتتبع لتاريخ الأفكار، وللتاريخ الثقافي في تونس عموماً، يتبين ـ من خلال محطات هذا التاريخ ومناراته ـ خصوصيةَ المدرسة التونسية التي اتسمت على مرّ العصور بالنظر العميق، وبالرؤية المتزنة، وبالتيقظ المبكّر للقضايا المحورية والفكرية. وباستشراف منعطفات الصيرورة التاريخية، وبالانفتاح على الآخر، انفتاح التكافؤ والحوار، مع نبذ الانكفاء والانغلاق والتصادم والتعصب.

إن التراث الفكري الثري والمتنوع الذي أنتجته هذه المدرسة العريقة المتأصلة، جدير بأن يعكف عليه أهل العلم والبحث؛ نظراً وتحقيقاً وتمحيصاً وتحليلاً وتأليفاً؛ من أجل مزيد استكمال جوهره الثمين، وأبعاده المتعددة، ومن أجل تبيان تراكمية البناء في مراحله المتعاقبة، وتوجهات المنزع التنويري والتحقيقي الذي كان من أهم ثوابته؛ حتى يدرك الجيل الصاعد من المثقفين

أن لحركة الإصلاح في بلادنا مرجعياتٍ فكرية وثقافية متينةَ الأسس، وضاربة الجـذور في قرار مكين من ذاكرتنا ومن موروثنا. وحتى يـدرك ـ أيضـاً ـ، وبالخصوص: أن حفظ هويتنا وخصوصيتنا من الذوبان في عصر العولمة، وتحقيق الحضور الفاعل، والانخراط النشيط في مجتمع المعلومات يقتضيان ـ بالضرورة ـ حرصاً مستمراً على إحياء الذاكرة، وسعياً لا يكلّ، وتعهداً هدْياً. لعلاقتنا بالمرجعيات، نستقرئها ونسائلها، ونجدد تمثلنا لها، ووضعها في كل آنٍ وحين على محك البحث والتمحيص، وهو ما تعمل (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي) بجدّ ومثابرة من أجل تحقيقه، وهو جهد يستحق منا كل الشكر والثناء والتقدير، جهد نحييه في هذه المناسبة.

حضرات السيدات والسادة، أيها الأساتذة الأجلاء!

لقد ظهرت في البلاد التونسية ـ منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وإلى الثلث الأول من القرن العشرين ـ كوكبةٌ من رجال الإصلاح والتنوير، برّزوا في العلم، وحققوا ودققوا، ووصلوا مجد الأسلاف بمبتكرات الأخلاف، وأسهموا بقسط وافر في نشر مبادئ العقلانية والواقعية والفكر الاجتهادي، وإشاعة قيم التسامح والانفتاح والحوار، وكانوا منارات مضيئة في تاريخ تونس الفكري والثقافي.

ويُعدّ الشيخ العلامة محمد الخضر حسين الذي تعلّم في جامع الزيتونة، وعلّم فيه، ركناً من أركان الحركة الإصلاحية، وعلَماً من أعلام النهضة الفكرية والأدبية، ورمزاً من رموز النضال الوطني التونسي خلال العقد الأول من القرن العشرين.

وقد سطع هذا النجم الثاقب في سماء تونس في فترة مخاض عسير، مثّلت منعطفاً حاسماً في التاريخ الفكري والأدبي والسياسي لبلادنا، وأجمع الكلّ على تثمين قيمة الرجل العلمية، ومنزلته الإصلاحية، وتوجهاته الوطنية. وشهدت تآليفه الحجّة ـ في العلوم الإسلامية، وفي اللغة، وفي الأدب، والتراجم ـ على رسوخ قدمه وعلوها.

ولم تكن هجرته إلى الشام أولاً، ثم إلى مصر حيث استقر وبلغ قمة المجد العلمي خلال توليه مشيخة الأزهر عام ١٩٥٢م لتنسيه واجب الوفاء لتونس، والاعتزاز بالانتماء إليها، أو تثنيه عن النضال من أجل استقلالها.

فقد كان دائم الاتصال والتواصل مع أهل العلم والأدب في تونس، واحتضن العديد من الطلبة الذين أتموا دراساتهم الجامعية في مصر، وأسس سنة أربع وأربعين وتسع مئة وألف (جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا) وكان من خلالها سنداً ونصيراً للقضية التونسية، وللوطنيين الذين ولّوا وجوههم قبَل القاهرة؛ للتعريف بهذه القضية لدى الرأي العام العربي، كما كان سنداً لقضايا التحرر في شمال إفريقية عموماً.

وإن من دواعي مزيد اعتزازنا بهذا الشيخ الجليل، التونسي المنشأ: إشعاعَه العربي والإسلامي الذي لم يُنسه يوماً أصوله ومنبته، وحرصه على أن يكون فاعلاً في حركة التحرر في شمال أفريقية بشكل عام.

حضرات الأساتذة الموقرين!

إن تونس التغيير بقيادة سيادة الرئيس زين العابدين بن علي، اختارت منذ فجر التحوّل بلا مواربة طريقَ المصالحة مع هويتها وتراثها، وأكدت، وتؤكد كل يوم وشائجَ الاعتزاز بأعلامنا الروّاد الذين سطروا بمداد من ذهب

التاريخَ المجيد في المجالات الفكرية والأدبية، والعلمية والوطنية، وحرصت على تكريم هؤلاء الأعلام، وإحياء ذكراهم، والعمل على مزيد التعريف بآثارهم ومآثرهم.

وما تفضّل سيادة الرئيس زين العابدين بن علي سنة ست وتسعين بتوسيم الأستاذ علي الرضا الحسيني الذي تولى الاعتناء بتراث عمه العلامة محمد الخضر حسين، وتحقيقه، وإخراجه إلى أهل العلم والبحث، وإعادة نشره، إلا دليلٌ قاطعٌ على هذا التوجّه، وشهادة معبرة عن وفاء سيادة الرئيس وتكريمه لكل من تفانى ويتفانى في خدمة الوطن، وأخلص له.

وإني لمتأكد من أن ما سيتفضل به الأساتذة الأجلاء - بهذه المناسبة نود أن نحيي الأشقاء من بين الأساتذة الذي يشاركون في أعمال هذه الندوة من الأقطار الشقيقة من الجزائر، من سورية، من مصر - إني متأكد، قلت: إن ما سيتفضل به الأساتذة الأجلاء من تونس، ومن هذه الأقطار الشقيقة في هذه الندوة من أبحاث، سينير السبيل، ويسلط مزيد الأضواء على جوانب عديدة ثرية متصلة بهذا العَلَمَ الفذّ الذي كان من أعلام الإصلاح الديني والاجتماعي، ومن أقطاب النهضة اللغوية والأدبية، ومن رموز النضال الوطني.

أشكر كل المساهمين في هذه الندوة على حُسن إعدادها، وعلى ما بُذل، وكل ما بذلوه من جهود من أجل إعدادها وتنظيمها، وأتمنى لأعمالكم كل النجاح والتوفيق.

وأجدد الترحاب والشكر، الترحاب بالأشقاء، والشكر لهم على حضورهم معنا، ومشاركتهم في هذه الندوة حول هذا الرجل الذي نعتبره

تونسياً، وعربياً، وإسلامياً، وهو من الرجالات، ومن المنارات التي حققت إشعاعاً يجعل انتماءها انتماءً واسعاً إلى الأقطار العربية الإسلامية.

أشكركم جزيل الشكر على حسن استماعكم وصبركم، والسلام عليكم.



الجلسة الافتتاحية

كلمة الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي[1]

يسر الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي في مفتتح هذه السنة الإدارية ٢٠٠٩م أن تستهل أنشطتها العلمية في رحاب (الكوفة الصغيرة) مدينة «نفطة» الساحرة ببنائها، وهندسة بنائها، والآسرة بدفء الحياة فيها، وبحرارة الاستقبال الذي عودنا به أهله.

«نفطة» درة الجنوب في بلاد الجريد، ومولد العلماء والشعراء، وممن نفاخر بأنهم أفادوا وأجادوا، ومنهم: العلامة محمد الخضر حسين، الذي تربى في أرض الجريد، وأُشرب قلبه في «نفطة» حب العلم وأهله.

وكان يخطو خطواته الأولى في «نفطة» في الزاوية العزوزية، زاويةِ جده الشيخ مصطفى بن عزوز، المنحدرِ كما يقول ابن أبي ضياف في «الإتحاف» من بيت فضل وعلم وصلاح، أتى من الجزائر الشقيقة، واستقر بنفطة.

وقد سدّد خطا الشيخ الخضر، العلامةُ محمد المكي بن عزوز، وهو خاله، وهو ـ أيضاً ـ نزيل إستنبول، وسراج العلماء في عصره.

وإن مرور نصف قرن على وفاة العلامة محمد الخضر حسين فرصة

---

(١) ألقاها الدكتور فتحي القاسمي أمين عام (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي).

7386

سانحة لنكرِّم هذا العَلَم في رأسه نار، نال الشهرة في المغرب والمشرق وأوروبا، وتعددت مواهبه، وسطع نجمه في تونس مع مطلع القرن العشرين، عندما كان مثل الشيخ عبد العزيز الثعالبي، والشيخ الضرير محمد شاكر، ومع ثلة من خريجي (الصادقية)، منهم الأخوان: علي، ومحمد باش حانبة، يبذر في المجتمع التونسي روح المبادرة والتجديد والتنوير من خلال مجلته «السعادة العظمى»، ومحاضراته ومسامراته المجذّرة للهوية التونسية، والمدافعة عن الأصالة، والمواجهة بكل أشكال الطمس والمراقبة والمعاقبة التي كان يفرضها نظام الحماية الفرنسية.

دافع عن الحرية، ودعا عالياً إلى الإصلاح، وردَّ على متهم اللغة العربية بالجمود والموت. وعندما ضاقت به السبل، شدّ الرحال إلى الشام، فكان في العقد الثاني من القرن العشرين إلى جانب الشيخ صالح الشريف خير مدافع عن العروبة والإسلام، الأمر الذي عرّضه للسجن، وهدّده بالإعدام.

ثم رحل إلى مصر، وانتسب إلى الأزهر، فانضمت إلى ما نهله في الزيتونة لَبِناتٌ أزهرية، زادته رسوخاً في العلم، وبوّأته مكانة كبرى في أرض الكنانة.

فاختير شيخاً للأزهر، وجدّد فيه الحياة، وأحدث في الإسلام طفرة من التجديد، وكذلك ـ كما قال عنه عبد العظيم الزرقاني ـ: جدّد بعزمه من شباب الإسلام.

لقد جمع الشيخ العلامة بين التدريس والمحاضرة، والتحرير والإفتاء. وكان بيته بالقاهرة قبلة القصّاد، ومحط رحال التونسيين الوافدين إلى مصر، ومنهم: الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة، والشيخان: محمد الفاضل بن عاشور،

ووالده محمد الطاهر بن عاشور.

وإن عشرات الكتب التي تركها، والتي جمع شتاتها ونشرها ابنُ أخيه الأمين على ذلك التراث الفكري الهام الأستاذ علي الرضا الحسيني.

إن ذلك لمادة ثرية تحتاج إلى الدراسة والإبراز، ولعل ندوتنا هذه ستسلط الأضواء على جوانب كثيرة من سيرة الشيخ محمد الخضر حسين، وسيعمق الأساتذة الأجلاء والمحاضرون النظرَ في المشروع الإصلاحي التونسي، انطلاقاً من الشيخ، ومن مساجلاته الفكرية، ومجادلاته العلمية التي دلت على انخراط رجال الإصلاح في تونس في الجدل الديني والحضاري، الذي تأجج في النصف الأول من القرن العشرين.

وكانت الأطروحات التونسية متجاوزة القطرية، والنظرة الدينية الضيقة، نزاعةً إلى الاختراق، والاستشراف والانفتاح على الآخر.

أيها السادة الكرام!

إن جمعيتنا لفخورة منذ انبعاثها سنة أربع وألفين على التعاون مع وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، التي ما انفكت تدعمها، وتيسّر لها نشاطها الذي امتد إلى تسع ولايات في البلاد التونسية.

كما أن تعاوننا متصل مع مؤسسة بيت الحكمة، وتكفّلها بطبع الندوات التي تعقدها بالاشتراك مع الجمعية لدليلٌ على أهمية التعاون من أجل إشاعة المعرفة الدقيقة برجالات الفكر والثقافة في تونس.

إنه إذا كان الأستاذ عبد الرؤوف الباسطي وزيرُ الثقافة والمحافظة على التراث قد شرفنا بافتتاح ندوتنا، فإننا نتشرف بالتعاون مع وزارة الشؤون الدينية، والسيد وزير الشؤون الدينية الأستاذ أبي بكر الأخزوري الذي سيتولى

الإشراف على اختتام هذه الندوة. . . وقد تفضل إلى جانب السيد وزير الثقافة عبدِ الرؤوف الباسطي باستقبالها استقبالاً حاراً في مكتبيهما.

كما أن حضور الوفد الجزائري في الندوة لجديرٌ بمواصلة الفكر والرؤية بين الشقيقتين: تونس، والجزائر منذ عشرات القرون.

ولا يفوتنا التنويهُ بما بذله الأستاذ محمد مواعدة من عناية فائقة؛ لتكون ندوتنا في مستوى ما نطمح إليه جميعاً.

وإن شكرنا متجددٌ للسيد والي توزر، والمندوب الجهوي للثقافة من إنجاح هذا الحدث العلمي.

كما أن حضور الباحث المصري الشيخ مجاهد توفيق الجندي تجذير ـ أيضاً ـ لما أرساه الشيخ الخضر حسين، الذي ليس إلا فرداً من كوكبة الأعلام التونسيين الذين شدوا الرحال من تونس إلى مصر، مثل: العلامة ابن خلدون، والشيخ محمد بيرم الخامس، فكان مقامنا بها طريقاً للاتصال التاريخي والروحي والعلمي.

أيها السادة الكرام!

إننا ـ أيضاً ـ سعداء بتكريم ثلّة من أعلام تونس ممن خدموا الثقافة، وهم حاضرون بيننا، بمبادرة من الجمعية، شهادة سنوزعها على كل من الأساتذة: المنجي الشملي، الحبيب الجنحاني، ومحمد مواعدة، ومحمد صالح الجابري، وعلي الرضا الحسيني، الذين أكدوا بتآليفهم إلى هذه اللحظة في خدمة الثقافة التونسية أنهم جديرون بكل تكريم. وهذا غيض من فيض؛ لأن الكثيرين ـ أيضاً ـ سنحاول أن نكرمهم في مناسبات لاحقة.

وإن جمعيتنا بندوتها العشرين تأمل الانتقال إلى بقية الولايات في

الجمهورية التونسية؛ للتعريف بأعلام منسيين، والنبش على آثار المتقدمين، وإبراز مضامين أفكارهم الخالدة. ولا شك أن وزارة الثقافة ستكون لنا ـ كالعادة ـ خير سند في ذلك.

نأمل أن تكون سنة تسع وألفين زاخرة بالأنشطة النافعة للفكر، ومدعمة للحياة الثقافية التونسية، وسيكون لنا ـ قريباً ـ موقع على الأنترنت، وندوتان: الأولى: حول الحكيم أحمد بن ميلاد في عشرين مارس تسع وألفين، والثانية مغاربية حول مفدي زكرياء، وسوف يحتضنهما قصر بيت الحكمة.

كما أننا نأمل في نشر أبحاث لطلبتنا المنخرطين في الجمعية، ممن يُعدُّون ماجستير ودكتوراه حول التراث الفكري التونسي.

ولا شك أن كل عمل جماعي سندٌ لها؛ لتحقيق مثل هذه الرهانات في بلد راهنَ ـ منذ القديم ـ على الإتيان بما لم تستطعه الأوائل. وشكراً.



كلمة رئيس الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية[1] بسكرة ـ الجزائر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

ـ السيد معالي وزير الثقافة والمحافظة على التراث الفكري التونسي!

ـ السيد والي توزر!

ـ السادة الإطارات بتونس الشقيقة!

ـ السادة من الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي!

من خارج مصر يتقلد مشيخةَ الأزهر الشريف عن جدارة واستحقاق هذا الرجلُ الفذ، وإن كان تونسيَّ المولد والنشأة، والتعلّم والنبوغ، فإن دولاً أخرى تشترك فيه، على غرار الجزائر بلدِ أجداده، وسوريةَ التي لبث فيها بضع سنين، ومصر التي تقلد مشيخة أزهرها، وتوفي ودفن فيها، وهو رجل عالمي بامتياز ولولاه ـ بعد الله ـ لما اجتمعنا بعد خمسين عاماً على رحيله في هذه البلدة، بلدة «نفطة» التي شهدت ميلاد هذا النور ذاتَ يوم من عام ألف وثمان

---

(١) ألقاها الباحث والكاتب الجزائري الأستاذ فوزي مصمودي بصفتة رئيساً للجمعية.

مئة وثلاثة وسبعين، بلدة «نفطة» التي لا يخلو كتاب في التاريخ، وأدبِ الرحلات في الجزائر وفي غيرها، إلا وكان اسمها بين دفتيه؛ فقد كانت ملاذاً آمناً للمقاومين الجزائريين خلال القرن التاسع عشر ميلادي، هؤلاء الذين قاوموا المحتل، وتصدوا لجبروت احتلال استيطاني، ومن هؤلاء: الشيخ مصطفى بن عزوز المولود في «برج ابن عزوز» التابعة لولاية «بسكرة»، وهو جد العلامة الشيخ محمد الخضر حسين لأمه. والشيخ محمد الصغير ابن الحاج، خليفة الأمير عبد القادر على «الزبيان» الولاية الثامنة في دولة الأمير عبد القادر، هذه الولاية التي جئناكم منها، ومازال أحفاده إلى اليوم في «نفطة»، وفي غيرها من المدن التونسية. وبعضهم يحضر معنا في هاته الندوة.

أفاضل السيدات والسادة!

جئنا من الجزائر للمشاركة في هذه الندوة؛ لمواصلة درب آبائنا وأجدادنا الذين كانت ـ ومازالت ـ تربطهم وشائج القربى والأخوة والتعاون في السراء والضراء بأبناء تونس الشقيقة.

وإن كنا ننسى، فلن ننسى أبداً ما حيينا ـ لأننا أهل للوفاء ـ لن ننسى وقفاتِ الشعب التونسي إلى جانب الشعب الجزائري في أحلك ليالي الاحتلال الفرنسي، فكم من معركة ومحطة امتزجت فيها دماء الشعبين، واستضافت حكومتها المؤقتة، مع جيش من الطلبة الجزائريين الذين تخرجوا في جامع الزيتونة الزاهر، وفي مختلف المعاهد والمدارس التونسية؛ كالمدرسة الصادقية، والخلدونية، التي تتشرف جمعيتنا الخلدونية الجزائرية بحمل اسمها؛ تيمناً بدورها الطلائعي والمتميز.

وفي الختام ـ أيها السادة الكرام ـ وباسم وفد الجزائر، وعلى رأسه عميد المؤرخين الجزائريين البحاثة الدكتور محمد العربي الزبيري، كذلك رئيس الجمعية الخلدونية، والأستاذ محمد قويدري المستشار بالمحكمة العليا الجزائرية، والسيد علي الأخضري حاضر معنا كذلك، وهو حفيد العلامة عبد الرحمن الأخضري.

باسم هؤلاء جميعاً، وباسم الجزائر إن شئتم، أتقدم إلى الجميع بأحر الشكر والتقدير، وخاصة الجمعية التونسية للدراسات والبحوث المنظمة لهذه الندوة العلمية الشيّقة، والتي سترتبطها بنهاية أشغال الندوة توءمة مع الجمعية الخلدونية الجزائرية.

وعاشت تونس والجزائر. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.






الجلسة الافتتاحية

كلمة عائلة الإمام محمد الخضر حسين[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، وعلى أصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها السادة الكرام!

إن عائلة الإمام محمد الخضر حسين في تونس ودمشق والجزائر ومصر، يسرها أن ترفع آيات الشكر والامتنان والاحترام الصادق إلى السيد الرئيس زين العابدين بن علي، الذي دأب على مباركة وتشجيع الأعمال التي من شأنها التنويهُ بعظماء ورجال تونس الحبيبة.

وقد شرّفني ـ كرّمه الله ـ بوسام الجمهورية؛ من أجل عنايتي بتراث العم الإمام محمد الخضر حسين.

كما أشكر الأستاذ الفاضل عبد الرؤوف الباسطي وزير الثقافة والمحافظة على التراث على رعايته هذه الندوة، وحضوره بالذات للمشاركة بنفسه في هذا الملتقى.

والشكر إلى الأساتذة والدكاترة والمحاضرين، وكل من شارك وساهم

---

(١) ألقاها علي الرضا بن زين العابدين الحسيني ابن أخي الإمام محمد الخضر حسين.

وآزر في أعمال الندوة بأي وجه من الوجوه.

وإني أُتوِّج هذا الشكر والامتنان بأبيات قلتها أولَ أمسِ تحيةً إلى «نفطة»، والجريد.

تحية إلى نفطة والجريد

شَــدْوِي (لِنَفْطَــةَ) أُمِّ النُّخْبَــةِ الــصِّيدِ
دَأْبِــي وَ(لِلْكُوفَــةِ الــصُّغْرَى)[1] أَنَاشِــيدي

رَصَّــعْتُ فيهــا قَــصيدي وَهْــيَ مُلْهِمَتــي
جَــواهراً مِــنْ نفــيسِ الــدُّرِّ مَنْــضُودِ

كَــمْ أَنجَبــتْ للــدُّنى مِــنْ عــالِمٍ عَلَــمٍ
واللهُ بــــارَكَ فيهـــا كـــلَّ مَوْلـــودِ

نورُ (ابْنِ عَـزُّوزَ)[2] يَسْري فـي جَوانِحِهـا
هــدْيَ المــدائنِ والآفــاقِ والبيـــدِ

والطُّهْــرُ فــي الواحــةِ المِعْطــاءِ ســاكِنُها
(أبـــو عَلـــيٍّ)[3] بِتـــسْبيحٍ وتَحْميـــدِ

---

(١) اشتهرت مدينة «نفطة» عبر التاريخ باسم (الكوفة الصغرى)؛ لكثرة ما أنجبت من علماء وأدباء.

(٢) الولي الصالح مصطفى بن عزوز لـه مقام يُزار في «نفطة»، وهو جد الإمام محمد الخضر حسين.

(٣) الولي الصالح أبو علي السني دفين واحة «نفطة»، وله فيها مقام يُزار.

سـبْحانهُ وتعـالى اللهُ أَبـدَعَها
وَبَـثَّ فيهـا دَوامـاً بَهْجَـةَ العيـدِ

عَـشِقْتُ تُـونُسَ مِـنْ عِـشْقِي لِنَفْطَتِهـا
وَهَـلْ يُـلامُ عِنـاقُ الحـسْنِ والغيـدِ

هواؤهـا، صَـفُوها يَـشْفِي العَليـلَ إذا
أتـى لهـا شـاكياً آلامَ تـسْهيدِ

ويـا لِواحَتِهـا تَزْهـو (بـدِقْلَتِها)(١)
مَعـسولةٍ تَتـراءى كالعَناقيـدِ

مَهْمـا أُعـدِّدُ لا تُحـصى روائِعُهـا
وَفـي مَرابِعِهـا تَحْلـو أَغاريـدي

أَمـا كَفاهـا فَخـاراً أَنَّهـا وَلَـدَتْ
نَوابـغَ الفِكـرِ فامْتـازَتْ بِتَخْليـدِ

(الخِـضْرُ)(٢) قـالَ ويـا طـوبى لِمقْوَلـهِ
ذَاكَ الإمـامُ سَـليلُ العِلْـمِ والجـوُدِ

أنـا الجريـديُّ والعَليـاءُ مَنزِلَتـي
وَلِلْجَريـدِ شـعاعٌ غَيْـرُ مَحـدودِ

---

(١) الدقلة: اسم لثمار النخيل في واحة نفطة، وهو من أشهر التمور في العالم.

(٢) الإمام محمد الخضر حسين.

وَمَــوطني تــونسُ الخَــضْراءُ مَفْخَرتِــي
والجذْرُ فـي (طُولْقَـةٍ)[1] مَـأْوى الـصَّناديدِ
وفــي الــشَّآمِ سَــقاني المَجْــدُ أَكْؤُسَــهُ
فَيْـضاً وفـي مِـصْرَ قـدْ بُلِّغْـتُ مَقْـصودي

□ □ □

(١) مدينـة «طولقة» في الجنوب الجزائـري تابعة لولاية بسـكرة، وفيها زاويـة سيدي علي بن عمر جدُّ الإمام محمد الخضر حسين، ومكان ولادة والده سيدي الحسين.





كلمة المشاركين في الندوة[1]

باسم الله، وبه نستعين.

ـ حضرة السيد الوزير المحترم صديقي العزيز الأستاذ عبد الرؤوف الباسطي!

ـ حضرة السيد الوالي المحترم والصديق العزيز ـ أيضاً ـ!

ـ حضرة السادة المسؤولين السياسيين والمثقفين أجمعين!

تحيتي لكم، وتقديري لكم جميعاً.

ماذا أقول بعد ما قيل؟ وكل شيء قد قيل، وقد أتيت متأخراً، والحقيقة أني أريد أن أحييكم باسمي الخاص أولاً، وباسم جميع المشاركين في الندوة ثانياً.

في نفسي تختلج خواطر كثيرة؛ لأني أزور أول مرة (الكوفة الصغيرة) «نفطة» ذاتَ الخمائل والواحات الرائعة الجميلة. ولو كان هنا كاتب ألماني، لبقي هنا طول حياته؛ لأن كاتباً ألمانياً أحب الشرق، وأحب الواحات،

---

(١) كلمة ارتجلها الأستاذ المنجي الشملي شيخ أساتذة الجامعة التونسية، وكان المشرف على الرسالة المهمة التي ألفها الأستاذ محمد مواعدة «محمد الخضر حسين حياته وآثاره».

وأحب الخمائل، وكتب في ذلك ديواناً عظيماً خالداً يسمى: «الديوان الشرقي للأديب الغربي» أنا الآن بصدد دراسته.

أتيت إلى هنا طبعاً لأحييكم، وأقول ذلك تخليداً للذكرى الخمسين لوفاة العلامة المرحوم محمد الخضر حسين، أصيلِ نفطة، وأصيلِ ـ أيضاً ـ الجزائر من جهة أمه، وحبيب دمشق، وحبيب مصر، وحبيب العالم كله، إذن هو عربي بالمعنى الحقيقي.

وهذه الأصول وهذه المراجع، رفعته ليس بالعلم فقط، ولكن داخل السياسة بالعلم، وأي مثقف أصيل لا يكون سياسياً؟! فإن الثقافة الأصيلة هي سياسة عميقة، اعترف بذلك العلماء، واعترف بذلك رجال السياسة الكبار.

واعترف بها ـ أيضاً ـ رئيسنا زين العابدين بن علي الذي جعل هذه الندوة العلمية مؤطّرة بوزيرين مهمين، أولاً: الأستاذ عبد الرؤوف الباسطي في الافتتاح، والأستاذ الأخزوري في الاختتام، إني أعتبر هذا التأطير عملية ثقافية سياسية بعيدة المدى. نذكر بها الرئيس ابن علي، ويشكر عليها، وتحيتي إليه من هذا المنبر.

هذا من وجه. ومن وجه آخر: أنا أحس بقلق في نفسي؛ لأني عندما ألقيت دروسي في الجامعة التونسية عن الحركة الإصلاحية الإسلامية في البلاد العربية، كنت مقصراً؛ لأني لم أذكر الشيخ الخضر حسين؛ لأني لم أكن أعرفه تماماً معرفة جيدة، والاعتراف بالفضل دون الفضل فضيلة.

لقد أفادني محمد مواعدة حقاً؛ لأنه هو الذي اقترح عليَّ موضوعَ دراسته الجامعية أن تكون عن الخضر حسين، ففرحت بما قاله لي، وخشيت

ـ أيضـاً ـ مما قاله لي، وأشـرفت على عمله العلمـي، كان عمـلاً ممتـازاً، ونوقشت سنة ١٩٧٢م.

وكان محمد مواعدة ـ حقيقة ـ عالماً بحاثة، كان عالماً علامة بحاثة جيداً، أتعبني وأتعبته، لكن ذلك التعب كان تعباً لذيذاً، وإن لهذا الكتاب الذي هو بين أيديكم اليوم قصة، إن له قصة وهو يُعد البحث فيه، وله قصة ـ أيضاً ـ بعد أن تم البحث، والقصتان سياسيتان:

القصة الأولى: أشير إليها في إيجاز؛ لأنه لم يحن الحين لتفصيلها، وإن كان في العمر فضل، فستكون في مذكراتي: كنت يوماً مع محمد مواعدة في قهوة (الشـيلينك)[1] يوم كانت قهوة ممتازة، فرأيت شـخصاً ينظر إلينا بنظارتين سوداوين، قال لي محمد مواعدة: إنه من الشرطة، ومن حق الدولة التونسية أن يكون لها شرطة سرية مثل كل دولة، ومن الغد دُعيت إلى الداخلية، دعاني السيد وزير الداخلية شخصياً، وانتهت هذه القضية، وحُفظت القضيةُ ـ كما يقال ـ إدارياً.

وبعد أن نوقش بحث محمد مواعدة، دُعينا إلى رئاسة الجمهورية من قِبل الرئيس الراحل الزعيم بورقيبة، وقضينا معه أربع ساعات في القصر، والحديث كان عن محمد الخضر حسين، فيه الصحيح، وفيه الذي ينظر فيه ـ أيضاً ـ. إذن هذا الكتاب خطير جداً الذي بين يديكم، أول كتاب ـ في رأيي ـ علمي أكاديمي عن المرحوم محمد الخضر حسين ـ حسبما أعلم ـ.

وليس صدفة إذن أن يكون محمد مواعـدة هو القطب الصـلـب لهذه

---

(١) مقهى في شارع محمد الخامس بمدينة تونس.

7400

العملية، إلى جانب أصدقائي الأعزاء (أصحاب الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي)، ورئيسها صديقي المعتز كمال عمران، وأخي ـ أيضاً ـ فتحي القاسمي.

إذن، محمد الخضر حسين قضية، قضية فكرية عظيمة، وقضية سياسية خطيرة؛ أي: مهمة.

كيف ندرسه؟ وقد نهج محمد مواعدة الطريقة، والعلماء الآخرون سيواصلون البحث.

وإني ـ حقيقةً ـ أحيي أصدقائي من الجزائر الذين أَعتز بحضورهم هنا.

كما أعتز بأخينا علي الرضا التونسي الحسيني لما بذل من مجهود عظيم جداً في تعريفنا بآثار الشيخ محمد الخضر حسين.

محمد الخضر حسين وصل إلى مصر، وقد ناهز الخمسين قليلاً، تماماً كما فعل ابن خلدون، وصل عالماً إلى هناك، وإخواننا المصريون أحبوه، وأكرموه، وانتخبوه شيخاً في الأزهر، ثم رقوه إلى رتبة شيخ الأزهر، وما أدراك ما شيخ الأزهر؟! هو تونسي المنشأ، ولكن لا نقلل من شأن مصر؛ لأن تونسٍ ومصر إخوة.

وإلى اللقاء.



كلمة الأمين العام للتجمع الدستوري الديمقراطي[1]



والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

ـ الأستاذ عبد الرؤوف الباسطي وزير الثقافة والمحافظة على التراث!

ـ الأستاذ صلاح رمضان والي توزر!

رجائي إليكم أن تسمحوا لي لأُعرب عن عميق الاعتزاز الذي يغمرني، وعن عظيم الشرف الذي نالني اليوم؛ إذ تتاح لي هذه الفرصة السعيدة لأكون معكم وبينكم في سياق حدث ثقافي كبير متميز.

وقد حصل هذا بدعوة كريمة من (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي)، تعهّدها تعهداً حريصاً أخي وصديقي وزميلي الأستاذ الجامعي وعضو مجلس المستشارين المحترم الأخ محمد مواعدة.

وإني إذ ألبي هذه الدعوة لممنونٌ؛ لأني ـ كما قلت ـ تتاح لي هذه الفرصة أن أعيش هذه اللحظات الاستثنائية، لحظات استثنائية نحتفي فيها بعَلَم من أعلام تونس، في شخصية فذّة من شخصيات تونس الفكر والحضارة،

---

(١) كلمة الأستاذ فؤاد القرقوري، أستاذ جامعي، ورئيس لجنة التربية والثقافة في مجلس النواب، ونائب الأمين العام للتجمع الدستوري الديمقراطي.

قلت: شخصية تونسية، لكنها ـ أيضاً ـ جزائرية، وهي كذلك سورية، وهي كذلك مصرية.

فالرجل مفرد في صيغة الجمع، رجل متعدد الأبعاد، ولا يكون الرجال الأفذاذ إلا كذلك متعددي الأبعاد حتماً.

وأحس بالنخوة والاعتزاز؛ إذ أجد نفسي معكم وبينكم أيها الملأ الكريم، أيها الإخوة والأصدقاء.

في سياق هذا الحدث، في سياق إبراز عمق الرصيد الفكري الإصلاحي في بلادنا، هذا الرصيد الفكري الإصلاحي الذي اختار رئيسُ بلادنا، رئيسُنا وقائد مسيرتنا الوطنية سيادة الرئيس زين العابدين بن علي، اختار اختياراً سياسياً واعياً أن يكون هذا الفكر الإصلاحي مرجعية مشروعنا الإصلاحي الوطني، الذي يسهر على الوصول به قائدُ مسيرتنا الوطنية إلى أبعد الآفاق الممكنة.

فلا عجب أن يحظى هذا الحدث الكبير برعايته السامية، ولا عجب أن نهبَّ نحن تلبيةً لنداء جمعيتنا النشيطة التي ننوّه بمبادرتها، ولا عجب أن تحظى هذه الندوة وهذا اللقاء الكبير بإشراف متميز من وزيرنا، من والينا، من سلطتنا الإدارية والثقافية، وبحضوركم أنتم جميعاً.

فلا أقل من أن نرفع من رحاب هذه الندوة الكبيرة، التي تنعقد في «نفطة» بالذات، نفطة العراقة، ونفطة الخير، ونفطة العطاء، ونفطة التي أعطت الرجال والنساء، ولا تزال، ولن تزال.

قلت: لا أقلَّ من أن نرفع من «نفطة» اليوم، من رحاب هذه الندوة، أسمى مشاعر التقدير والاعتزاز لسيادة الرئيس زين العابدين بن علي، نحن

الذين نمثل النخبة المثقفة، فما أسعدَنا بقيادتنا الوطنية وهي ترعى مسيرتنا الثقافية؛ حيث الثقافةُ صنو الحضارة، وحيث السياسة موعدٌ مع التاريخ، يتفاعل فيه الماضي مع الحاضر، ويستثمر فيه الرصيد الحضاري الكبير من أجل الارتقاء بالواقع، ومن أجل تحقيق أهداف المستقبل.

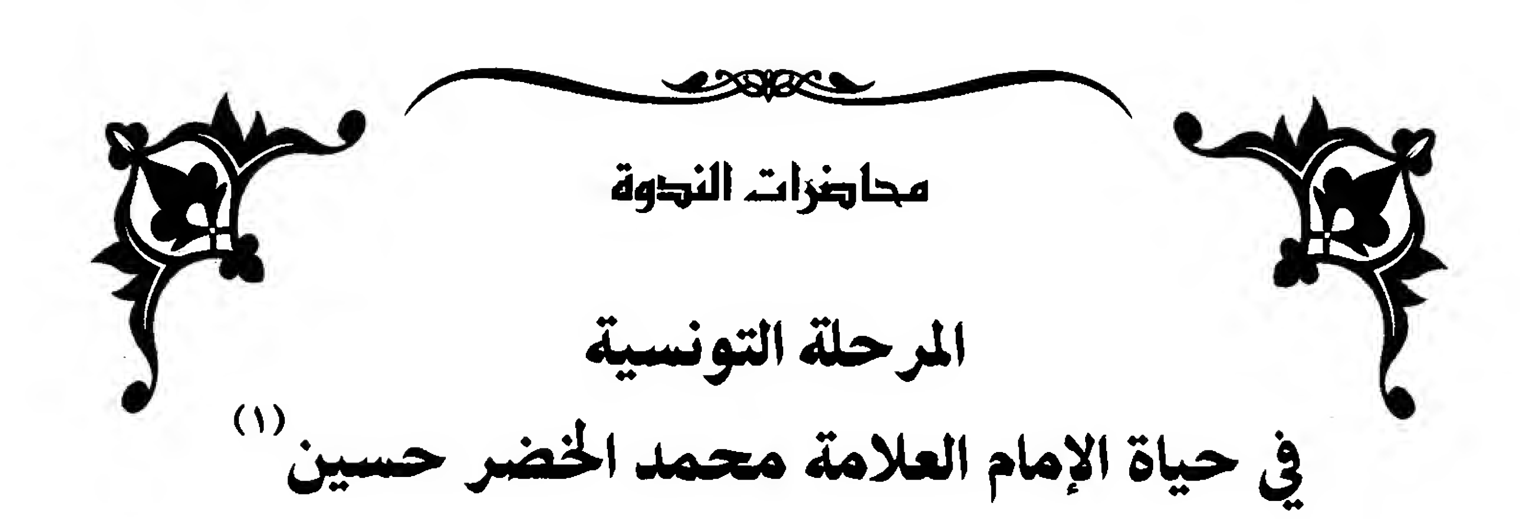
وفي الخاتمة: لابد أن أشير إلى أننا نعتز بهذه الندوة المشتركة بين نخبة تونسية، ونخبة جزائرية. فبمثل هذا تؤسَّس المشاريع الحضارية، وبمثل هذا التعاون نبني مغربنا العربي الثقافي في إطار حرصنا على بناء مغربنا العربي الحضاري الديمقراطي في مختلف وجوهه.

أختم أيها ـ الحفل الكريم ـ بتأكيد اعتزازي وشكري وتقديري وإشادتي بهذه المبادرة، وكان الله في عوننا جميعاً.

الشكر كل الشكر للجمعية، والشكر كل الشكر للمسؤولين الذين ارتقوا بهذا الحدث إلى المستوى، وتمنياتي لهذه الندوة الكبيرة بوافر النجاح والتوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





المرحلة التونسية
في حياة الإمام العلامة محمد الخضر حسين[1]

حضرات الأخوات والإخوة!

الإمام العلامة محمد الخضر حسين هو شخصيات متعددة بشخصية واحدة، شخصية متنوعة متكاملة ليست متناقضة، وهنا تبدو قيمة الرجل العلمية والأدبية والوطنية التي أوصلته إلى قمة المجد.

سأركِّز على القضية الأساسية في حياة الشيخ محمد الخضر حسين بتونس، وما سمي بالمرحلة التونسية، وهي تسميته هو، وتشمل الجزء الأول من حياته بالبلاد التونسية، وهي الفترة التي تكونت فيها شخصيته العلمية، ونعتبرها ـ من هذه الناحية ـ مرحلة أساسية؛ ككل شخصية في تكوينها الأساسي.

الجذور لها أهمية كبيرة جداً، الجذور جزائرية، وهذه العائلة ـ حتى في جذورها الجزائرية ـ هي جذور دينية وسياسية في آن واحد، ونعني بذلك: نشر الثقافة العربية الإسلامية، وإصلاح المجتمع الإسلامي، ومقاومة الاستعمار

(١) محاضرة الأستاذ محمد مواعدة، وتجدر الإشارة أن كتابه «محمد الخضر حسين حياته وآثاره» أهم وأوسع كتاب حول الإمام، وقد صدر في طبعته الأولى في جزء واحد، وسيصدر ـ إن شاء الله ـ في جزأين بعد التوسع في البحث، وإضافة الجديد عليه.

الفرنسي، نفس التوجه الذي كان قائماً في الجزائر انتقل إلى تونس، وبالذات إلى مدينة «نفطة».

ومنذ البداية فقد اهتممت بدراسة شخصية الشيخ محمد الخضر حسين؛ لأنه علم بارز من أعلام الإسلام في العصر الحديث، شارك مشاركة فعالة في الحركة الفكرية، سواء في المغرب، أو في المشرق العربيين، وارتبط اسمه بأسماء عدد كبير من رجالات الدين الذين قاموا بدور هام في ميادين مختلفة دينية ولغوية وأدبية وسياسية.

وفي كتابي «محمد الخضر حسين حياته وآثاره» أوضحت أن المرحلة الأولى من حياته التي قضاها في تونس ـ منذ ولادته وطفولته، إلى تعلمه ثم تعليمه ـ، وهي فترة يمكن تسميتها بفترة (التعلم والتكوين)، وتمتد من سنة ١٨٧٣ سنة ولادته إلى سنة ١٩١٢م، وهي السنة التي غادر فيها البلاد التونسية نهائياً إلى الشرق، ونميز فيها:

ـ حياته بنفطة.

ـ حياته بتونس العاصمة حتى سفره إلى المشرق العربي.

ومدة إقامته في «نفطة» هي مدة الطفولة، ولها أهمية كبيرة من ناحية الوسط العائلي الذي عاش فيه، وسط علمي ثقافي ديني، هذه البيئة العائلية، عائلة ابن عزوز، وما أدراك بابن عزوز؟ فيها العلم والثقافة، إلى جانب السياسة والجهاد الوطني. هذه البيئة التي عاش فيها، وهذا الوسط العائلي الذي تُلقن فيه الأم أبناءها علوم الشريعة واللغة، وتتحدث عن الأزهر. وكما روى الشيخ نفسه، ورواها أقاربه: أن أمه السيدة حليمة السعدية بنتَ الشيخ مصطفى بن عزوز كانت تربِّت على ظهره، وهي تداعبه وتقول له:

7406

الأخضر يا الأخضر تكبر وتولي شيخ الأزهر

وكان اسمه الأصلي: (محمد الأخضر)، ثم أبدلت منذ طفولته بـ (الخضر) اختصاراً، وفي نفس الوقت تيمناً بأحد أولياء المسلمين الذي كان يسمى: (الخضر).

وفي مدينة «نفطة» ذات واحات النخيل الجميلة الفيحاء، والمياه المتدفقة الصافية، في ذلك العهد، ومقر العلم والعلماء، وكان رجل العلم فيها هو النموذج الاجتماعي البارز في ذلك العهد، صاحب الكلمة المسموعة، والرأي الراجح، لقد تربى في هذه البيئة التي يسيطر عليها العلم، وتغمرها الثقافة، ويحيط بها الورع الديني من كل جانب، فحفظ القرآن الكريم على الشيخ عبد الحفيظ اللموشي، ودرس بعض العلوم الدينية واللغوية على عدد من العلماء، وخاصة منهم: خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز، الذي كان مهتماً به اهتماماً خاصاً، ويرعاه رعاية كاملة.

وانتقلت العائلة ـ وقد بلغ الشيخ السنة الثالثة عشرة من عمره ـ إلى تونس العاصمة في أواخر سنة (١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٦م). ويبدو أن سبب هذا الانتقال هو حرص العائلة على تمكين الشيخ الخضر من مواصلة الدرس والتعلم بجامع الزيتونة مع إخوته الآخرين؛ إذ كان جامع الزيتونة قبلة طلاب العلم من جميع الأمصار، ومن إخوته: العلامة اللغوي محمد المكي بن الحسين، الذي استقر في تونس، والعلامة الشيخ زين العابدين بن الحسين، الذي استقر وتوفي بدمشق.

وبرغم انتقال عائلة الشيخ الخضر إلى مدينة تونس، فإن مدينة «نفطة» وأهلها الأوفياء مازالوا فخورين ومعتزين بالشيخ حتى اليوم، وأذكر أنني في

مطلع حياتي ـ وأنا طالب في مدارس «نفطة» ـ طلبت من صاحب مقهى قديم أن أستخدم المكان كقاعة محاضرات، وكانت مقهى مهدمة خراباً، هيأناها بإمكانياتنا البسيطة، وألقيت فيها محاضرة عن الشيخ محمد الخضر حسين نالت إعجاب أهل «نفطة».

كما أصدرت (جمعية شباب محمد الخضر حسين النفطي) نشرة اعتزازاً بابن نفطة.

ونجد أن طبيعة نفطة قد أثرت بالشيخ الخضر حتى آخر حياته؛ إذ كان يتمتع بصفات الإباء والشمم وعزة النفس، بالإضافة إلى سماحته وتواضعه، وأذكر ـ هنا ـ واقعة تنم عن هذه الصفات التي اكتسبها منذ طفولته: بعد اختيار الإمام شيخاً للأزهر زاره الرئيس محمد نجيب في مكتبه بالأزهر للتهنئة، وبعد مدة من هذه الزيارة، أتاه السيد حسين الشافعي عضو قيادة الثورة، وأخبره أن الرئيس محمد نجيب يطلبه لأمر ما، فغضب الإمام ـ وقلما يغضب إلا للحق ـ، وأخرج ورقة من درج مكتبه، وكتب عليها استقالته، وقال للشافعي: «قل لسيادة الرئيس: إن شيخ الأزهر لا ينتقل إلى الحاكم».

إن هذا الموقف هو تأثير تربيته في تونس.

وهناك خصلة أخرى تأثر بها من تونس، وخاصة من نفطة التي تنمي في المرء الكرم والإيثار وصلة الرحم، وغيرها من الفضائل، ففي أول حياته في القاهرة كان راتبه خمسة عشر جنيهاً شهرياً، كان يرسل خمسة جنيهات إلى ذوي القربى في دمشق، وخمسة جنيهات إلى ذوي القربى في تونس، وهذا الحال استمر معه إلى أن وصل إلى ما وصل إليه.

وفي جامع الزيتونة درس الشيخ محمد الخضر حسين منذ سنة (١٣٠٧هـ ـ

١٨٨٧م) على كبار الشيوخ، ومنهم: خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز، وسالم بوحاجب، وعمر بن الشيخ، ومحمد النجار، وتحصل على شهادة التطويع سنة (١٣١٦هـ - ١٨٩٨م).

ويلاحظ أن النشاط العملي الكبير الذي بذله إثر تخرجه من جامع الزيتونة يدل على أن هذا الرجل صاحب طموح كبير، فلم يقنع بالعمل في الإدارة والاستقرار فيها، بل اختار سبيلاً وعرة في حياته.

فهو - بالإضافة إلى الجهد العلمي الذي كان يبذله في سبيل نشر المعرفة عن طريق الدروس التي كان يلقيها على الطلاب الزيتونيين - لم تثنه عن خلق وسائل أخرى أكثر تأثيراً وانتشاراً؛ فقد أسس مجلة «السعادة العظمى» في شهر أفريل ١٩٠٤م، وهي موضوع محاضرة الأخت نجاة بوملالة في هذه الندوة.

وقد تولى في أثناء تعيينه قاضياً في «بنزرت» الخطابةَ والتدريس بجامعها الكبير؛ لرغبته أن يكون دائماً على صلة بالناس مباشرة، كما ألقى في المدة محاضرته الشهيرة: «الحرية في الإسلام» بنادي (جمعية قدماء الصادقية) سنة ١٩٠٦م، ونالت اهتمام جميع الأوساط الثقافية في ذلك العهد، واستقال من القضاء للعودة إلى التدريس بجامع الزيتونة، وكلفته إدارة الجامع بالإشراف على تنظيم المكتبة ضمن لجنة للقيام بهذا العمل، كذلك نجده ضمن شيوخ جامع الزيتونة الأوائل الذين تزعموا حركة إصلاح التعليم بتأسيس جمعية (تلامذة جامع الزيتونة) سنة (١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م).

تبين من ذلك: أن الشيخ محمد الخضر لم يقصر نشاطه على التدريس، بل كان له نشاط اجتماعي وثقافي، يتمثل بإلقاء المحاضرات، مثل محاضرته:

(حياة اللغة العربية) التي ألقاها بنادي قدماء الصادقية . . . كما قام برحلتين علميتين إلى الجزائر، الأولى: سنة ١٩٠٣م، والثانية: سنة ١٩٠٤م، ونشر عن الرحلتين في مجلة «السعادة العظمى». وقد اهتم في أثناء ذلك بالميدان الثقافي والديني، فزار المساجد والمكتبات، وحضر بعض الدروس الدينية واللغوية، كما ألقى بعض المسامرات في الفقه والحديث والتفسير، وشارك في بعض المجالس الأدبية.

ومن خلال نشاطه السياسي، فقد شارك في التنديدِ بالحرب التي شنتها إيطاليا سنة ١٩١١م ضد ليبيا، ودعوةِ المواطنين إلى مساعدة شعب ليبيا المسلم والحكومةِ العثمانية ضد الإيطاليين، ونشر قصيدته الشهيرة التي نجد فيها بوضوح حبه للحرية، وعواطفه الوطنية الجياشة، وقال في مطلعها:

رُدُّوا على مجدِنا الذِّكْرَ الذي ذهبا ... يكفي مضاجِعَنا نومٌ دهى حِقَبا

ولا تعودُ إلى شعبٍ مَجَادَتُهُ ... إلا إذا غامرت هماتُه الشُّهُبا

وكانت النخبة المثقفة التونسية تعيش في جو نفسي خانق في النصف الثاني من سنة ١٩١٢م نتيجة ما سلطه على البلاد من إرهاب وتعسف النظامُ الاستعماري القائم، ولاشك أن الشيخ محمد الخضر حسين كان يعاني نفس الأزمة، ويشعر بنفس الشعور، وهو الوطني الحساس، وقد زاد في ضيق نفسه خيبتُه في مناظرة التدريس من الطبقة الأولى التي اجتازها في أثناء تلك المدة، وسعى شيوخ النظارة إلى إسقاطه نتيجةَ وجود بعض العوامل الشخصية والميول الخاصة، جعلت هؤلاء الشيوخ (وخاصة منهم الشيخ بلحسن النجار) لا يعتمدون على مقاييس الكفاءة العلمية؛ مما أدى بالشيخ محمد الخضر إلى قول البيتين المشهورين:

عَجَباً لهاتيكَ النظارةِ أصبحَتْ كالثوبِ بينَ أناملِ (القَصَّارِ)

وأناملُ (القصارِ) تعبثُ مثلَ آ لاتٍ تحركُها يُدُ (النجَّارِ)

والقصار والنجار من كبار شيوخ جامع الزيتونة، وهما من هيئة نظارة الجامع الأعظم.

رأى الشيخ الخضر: «أن القيام بحق الإسلام يستدعي مجالاً واسعاً، وسماء صافية»، فقرر الارتحال إلى الشام نهائياً خلال شهر ديسمبر سنة ١٩١٢م، (وكانت سنه تناهز الأربعين)، وقد تكونت فيه شخصيته العلمية، وغزرت معارفه؛ مما جعلها تبحث عن مجالات أوسع، وآفاق أرحب.

أنا سأقول جملة: «إن المرحلة التونسية استمرت مع الشيخ محمد الخضر حسين كامل حياته؛ من ناحية التأثير والتأثر، ومن ناحية مسيرته حتى وصل إلى مشيخة الأزهر»، والدليل على ذلك: لجوء الرئيس الحبيب بورقيبة إلى مصر، فقد أُوقف على الحدود الليبية المصرية، فاتصل وزير الداخلية اللواء صالح حرب ـ آنذاك ـ بالشيخ الخضر ليلاً... وكانا معاً في جمعية (الشبان المسلمين)، فضمن الشيخ الخضر الرئيس بورقيبة الذي أنزله الشيخ في داره لمدة يومين حتى وفّر له غرفة في إحدى الجمعيات.

ثم إن دار الشيخ الخضر في القاهرة كانت محطة استقبال وترحيب بالتونسيين من علماء وساسة وأدباء.

وفي مقالاتي الأخيرة، ذكرت أن زوجته توفيت، وتزوج ابنة أختها التي كانت تعيش معه، للخدمة والعناية بالشيخ، ومازالت موجودة للآن، وكنا سنأتي بها، ولكنها مريضة، وقد ذهبتُ إليها السنة الماضية، ووافقت أن نقوم بتسجيل كامل حياتها مع الشيخ، ويكون هذا فصلاً من الكتاب الذي سأطبعه

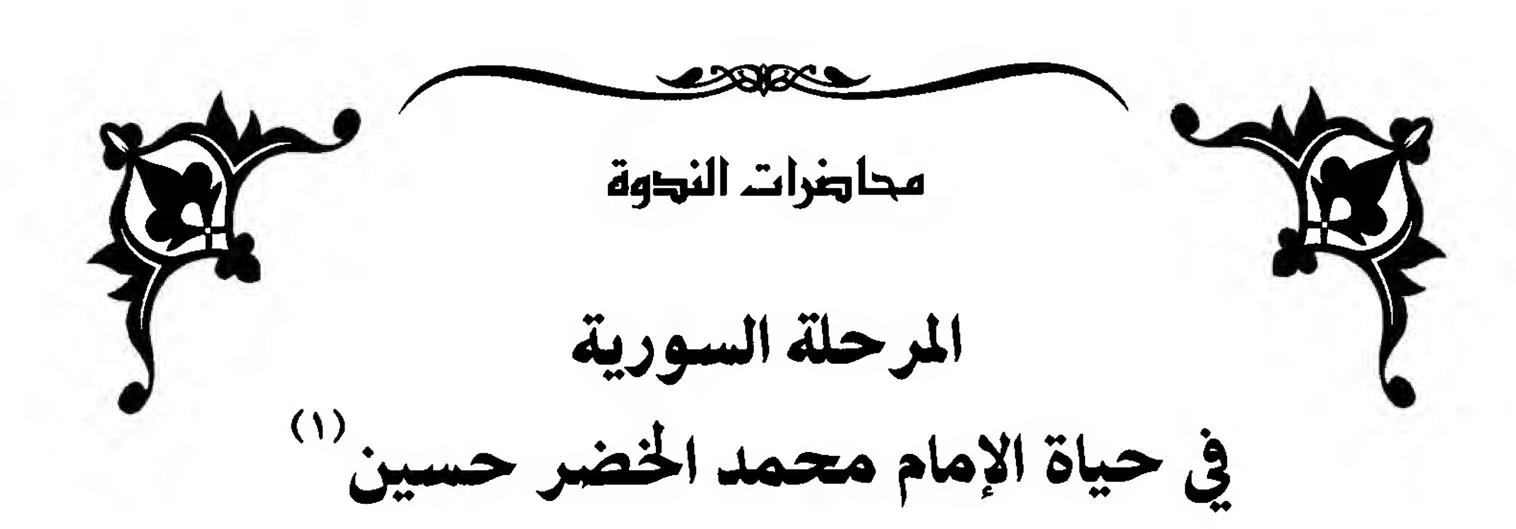
عن الشيخ فيما بعد، وسيكون في جزأين، وأنا في طور التحضير فيه، وإن شاء الله في الندوة القادمة للشيخ الخضر سيكون حاضراً، وهذا الكتاب تمَّ بدعم كامل من الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي تربطه بالشيخ الخضر أخوة صادقة.

هذا باختصار ما سمي بالمرحلة التونسية من حياة العلامة محمد الخضر حسين، التي أعتبرها من الناحية التاريخية هامة جداً، شخصية لها أبعاد عديدة، تجاوزت الإطار، ولذا قررت (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي): أن هذه الندوة العلمية الأولى.

وهناك ندوات، وبالتعاون مع (الجمعية الخلدونية) ببسكرة، هذه الشخصية غنية جداً، ويمكن للجمعيتين أن تقوما بتنظيم ندوات مشتركة.

قلت في الجزائر، وقلت في مقالاتي، وأقول الآن: إن شخصية الشيخ محمد الخضر حسين، وابن خلدون، هي شخصيات تتجاوز الإطار الجغرافي إلى إطار عالمي، وهذه الشخصيات لها قيمة علمية وعالمية، والسلام.





المرحلة السورية
في حياة الإمام محمد الخضر حسين[1]

الأمم الماجدة العظيمة، تلك التي تعتز وتفاخر بمسيرة عظمائها، وتعقد الملتقيات والندوات بين الفينة والفينة؛ لتكون عبرة ومنهجاً لمن يريد أن يسلك مسلك العزة والشرف، وليكون بهما عظيماً في علمه وعلو همته.

وفي الندوات درْس إلى أفراد الأمة ـ وخصوصاً شبابها وطليعتها المتنوّرة المثقفة ـ ليستدلوا به إلى سبيل العمل الصادق الجاد لرفعة شأن الأمة وصلاح حالها، وارتقائها إلى أسمى درجات الكرامة ومراتب المجد.

في هذه الندوة التي تحتضنها مدينة «نفطة»، والتي تؤكد استمرارها لما سمّيت به آنفاً (بالكوفة الصغرى). تقدم ابناً لها، غزيرَ العلم والمعرفة، رائع الأدب، كامل الخلق، أودع الله تعالى فيه من المواهب ما لا نجدها في الكثير من أهل عصره، وممن لا يجود بهم الدهر إلاّ قليلاً في النادر، في هذه الندوة يشرق فيها وجه الإمام الخضر حسين.

ومن حق تونس أن تفاخر بوليدها، ومن حق الجزائر أن تتباهى بأصيلها، ومن حق دمشق أن تعتز بمعلّمها وعالِمها، ومن حق مصر أن ترفع الرأس

(١) محاضرة علي الرضا الحسيني.

بشيخها وإمامها في مشيخة الأزهر، بل من حق أي بلد إسلامي أن يحتفل بالرجل العظيم.

فهو المصلح الاجتماعي، والمفسّر، والمحدّث، والمناضل، والمدرّس، والقاضي، والإعلامي، والرّحالة، واللغوي، والشاعر، والأديب، وأكرمه الله أن يكون شيخاً للأزهر، وهكذا يكرّم الله رجاله في الحياة الدنيا قبل ثواب الآخرة.

والإمام محمد الخضر حسين من الرجال الذين صبروا وصابروا ورابطوا من أجل الدعوة إلى الإسلام، وإصلاح المجتمع، والدفاع عن خال الأمة، برغم ما لاقاه في سبيل ذلك من أذى، وترحال من بلد إلى بلد، وملاحقة من قبل المستعمر، إلا أنه كان عظيماً في علمه، عظيماً في خلقه، عظيماً في تقواه.

والمرحلة السورية في حياة الإمام محمد الخضر حسين تنحصر من تاريخ الرابع من شعبان (١٣٣١هـ ـ الموافق ديسمبر ١٩١٢م) عندما أقلعت الباخرة من مرساها في تونس إلى دمشق، حتى عام (١٩٣٩هـ ـ ١٩٢٠م) خروجه من سورية إلى مصر.

غادر التراب التونسي وهو ينشد:

حادِي سَفينتِنا اطْرَحْ مِنْ حُمولَتِها ... زادَ الوقودِ فَما في طَرْحِهِ خَطَرُ

وخُذْ إذا خمدَتْ أنْفاسُ مِرْجَلِهَا ... مِنْ لَوْعةِ البَيْنِ مِقْباساً فَتَسْتَعِرُ

عندما أخذ الحنو إلى الوطن يتزايد، وحر الآسف لمفارقة الأصحاب يتصاعد.

وفي هذه المرحلة نميز ثلاث ومضات هامة من حياته:

أ ـ نشاطه العلمي الغزير، ومكانته السامية في الأوساط السورية.

ب ـ دخوله السجن في عهد السفاح جمال.

ج ـ نضاله السياسي في ألمانيا من أجل المغرب العربي والإسلام.

هاجر الشيخ الخضر إلى دمشق وفي صدره أسى، وفي نفسه لوعة على فراق وطنه تونس. وتجمعت عدة أسباب لديه لاتخاذ هذه الخطوة:

١ ـ رغبته في الالتحاق بأسرته التي انتقلت بكامل أفرادها إلى دمشق، بعد أن ارتأت والدته السيدة حليمة السعدية بنتُ مصطفى بن عزوز ضرورةَ الانتقال إلى بلد آمن، والمغاربة يعتقدون أن الشام بلد شريف.

٢ ـ أضف إلى هذا: عامل التضييق والمراقبة والملاحقة من قبل السلطة الاستعمارية الفرنسية، ووجد أن ميدان العمل أصبح ضيقاً لا يتناسب مع روحه الوثّابة، وطموحه وآماله الكبرى في العمل الإسلامي. وفي انتقاله إلى الشام فسحة من المكان، يجد فيه المجال الأوسع لرسالته العظمى.

*** نشاطه العلمي الغزير، ومكانته السامية في الأوساط السورية:**

دخل إلى دمشق على القطار القادم من بيروت، وعند مدخل مدينة دمشق حيث الغوطة الغربية الجميلة، والوادي الضيق بين جبلين، ونهر بردى يقطع الوادي عند (الربوة)، فاضت شاعريته ببيتين هما من أجمل ما قاله شعراً:

لجَّ القطارُ بنا والنارُ تَسْحَبُه ... ما بَيْنَ رائقِ أشْجارٍ وأنهارِ

ومِنْ عجائبِ ما تَدْريهِ في سَفَرٍ ... قَوْمٌ يُقادُونَ للجَنَّاتِ بالنّارِ

سبقته شهرته العلمية إلى الوسط الثقافي بدمشق، فبادر العلماء والأدباء

للترحيب به في المجالس والنوادي، كما التف حوله طلبة العلم في حلقات الدرس والبحث، فأعطى كل فريق حقه، ووزّع أوقاته للتدريس بين الجامع الأموي، ونوادي دمشق ـ والمدرسة (السلطانية)، وفي مجالسه الخاصة التي كانت تُقصد على مدار الأسبوع.

يقول الإمام الخضر في إحدى رسائله إلى الشيخ محمد الصادق النيفر في تونس، والمؤرخة في ٢٠ محرم ١٣٣١هـ: «لقينا من أهل دمشق حفاوة واحتراماً فوق ما نستحق، لاسيما الناشئة المتأدبة، وكثير من أهل الفضل والعلم، حتى ظهر منهم الاستبشار، وأقبلوا على تهنئتنا عندما بلغهم تعييننا لتدريس آداب اللغة العربية والفلسفة في المدرسة السلطانية بدمشق».

والإمام ـ من خلال هذه الاحتفالات والمسامرات التي تتصل حلقاتها يومياً ـ لم ينسَ وطنه تونس، ولم يغب عن باله الأصحاب، ولاسيما صديق الوفاء والمحبة الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وها هو ذا يرسل له تحية شعرية:

أَيَـنْعمُ لـي بـالٌ وأَنـتَ بَعيـدُ ... وأَسْـلو بطَيْـفٍ والمنـامُ شَـريدُ
بَعُـدْتُ بِجثمـاني ورُوحـي رهينـةٌ ... لَـدَيْكَ وَلِلْـودّ الـصّميمِ قُيـودُ

إلى أن يقول:

فـأين ليالينـا وأسـمارنا التـي ... تُبَـلُّ بهـا عنـد الظَّمـاءِ كُبـودُ
ليـالٍ قَـضَيناها بِتـونِسَ ليْتهـا ... تعـودُ وَجـيْشُ الغاصِـبينَ طريـدُ

ويقول في رسالة من دمشق بتاريخ ٢٩ جمادى الأول ١٣٣٢هـ موجهة إلى الشيخ محمد الصادق النيفر: «أما سيرتنا بدمشق، فلم تتغير عن الطريقة التي كنا نسلكها في تونس، وهو أن معظم أدبائها وكبرائها يعرفوننا ونعرفهم،

وبالجملة: فقد لقيت منهم أخلاقاً حسنة، وآداباً مؤنسة، وفيما بلغني أنهم راضون عن سيرتنا، ومعجبون بمسالكنا في التعليم.

كما أن للتلاميذ أدباً كامل معنا، وعواطف زائدة، ولاسيما نجباؤهم، وكثيراً ما أحادثهم بالحالة العلمية في تونس، وأحاضرهم بشؤون جامع الزيتونة... وعلمائه، فأصبحوا يجلّون التونسيين، ويدركون شيئاً من مقدراتهم العلمية».

إن عبارات الخطاب تشير إلى اهتمام الإمام محمد الخضر حسين ببلده تونس، والحرص على التعريف بها، وعن مكانتها العلمية.

عقد الشيخ الخضر صداقات مع كبار العلماء والمفكرين بدمشق، ومنهم: محمد كرد علي رئيس (المجمع العلمي العربي بدمشق)، وخير الدين الزركلي صاحب كتاب «الأعلام»، وعلامة الشام محمد بهجة البيطار، وشاعر الشام الأستاذ خليل مردم بك، وغيرهم الكثير.

وأصبح عضواً عاملاً في (المجمع العلمي العربي بدمشق) بجلسته الأولى في ١٩١٩/٧/٣٠م.

وعندما عزم الإمام على الارتحال من دمشق، كتب له الشاعر الأستاذ خليل مردم بك وزيرُ خارجية سورية، ورئيس (المجمع العلمي العربي) في ذلك العهد كتاباً رقيقاً، قال فيه: «سيدي! إن من خير ما أثبته في سجل حياتي، وأشكر الله عليه، معرفتي إلى الأستاذ الجليل السيد محمد الخضر التونسي.

فقد صحبتُ الأستاذ عدة سنين، رأيته فيها الإنسان الكامل الذي لا تغيره الأحداث والطوارئ، فما زلت أغبط نفسي على ظَفَرها بهذا الكنز

الثمين، حتى فاجأني خبرُ رحلته عن هذه الديار، فتراءت لي حقيقةُ المثل: (بقدر سرور التواصل تكون حسرة التفاصل).

فلم يعد لي إلا الرجاء بأن يكون لي نصيب من الذكر في قلبه، وحظ من الخطور على باله، لذلك فأنا أتقدم إليه بهذه القصيدة؛ لتكون لي رتيمة عنده، وذكرى أحد المخلصين إليه. أمتع الله به، وأدام الكرامة، وكتب له السلامة في حله وترحاله». ومطلعها:

طَيْفٌ لِلَمْياءَ ما ينفكُّ يبعثُ لي ... في آخرِ الليل إنْ هَوَّمْتُ أشجانا

وأجابه الشيخ الخضر بقصيدة طويلة، ومطلعها:

ما النَّجْمُ تجري به الأفلاكُ في غَسقٍ ... كالدرِّ تقذفُه الأقلامُ في نسقِ

ويقول فيها:

وكيف أنْسى خليلاً قد تَضَوَّعَ في ... حُشاشتي ودُّه كالعنبرِ العَبِقِ

هذا مشهد نضربه لبيان المرتبة العلمية الرفيعة التي تبوأها الإمام في قلوب أهل العلم والأدب في دمشق.

ونظم خلال إقامته في دمشق قصائد رائعة في مناسبات عدة مختلفة، نكتفي بالإشارة إلى عنوان ومطلع بعضها:

عن الضجر من كثرة الأسفار يقول:

أنا كأسُ الكريمِ والأرضُ نادٍ ... والمطايا تطوفُ بي كالسُّقاةِ

كَمْ كؤوسٍ هَوَتْ إلى الأرضِ صَرْعى ... بين كفٍّ تديرها واللَّهاةِ

فاسمحي يا حياةُ بي لبخيلٍ ... جفنُ ساقِيه طافحٌ بسُباتِ

ومن قصيدة في تهنئة أخيه الإمام محمد الطاهر بن عاشور عند ولايته

القضاء بتونس ١٣٣٢هـ:

بسطَ الهناءُ على القلوبِ جناحا　　فأعادَ مُسْوَدَّ الحياةِ صباحا

ومنها:

أَوَ لَمْ نكُنْ كالفرقَدَين تقاربا　　والصَّفْوُ يملأُ بيننَا أَقْداحا

وله قصيدة تحت عنوان: (بكاء على مجد ضائع) قالها في دمشق سنة ١٣٢٢هـ حين وجد للدولة العثمانية شيئاً من الضعف، ولقنصل فرنسا أمام قناصل الدول الأوروبية شيئاً من النفوذ، ومطلعها:

بين الجوانحِ همةٌ　　تسمو إلى أمدٍ بعيدِ

ومنها:

أدمى فؤادي أَنْ أَرى الـ　　أَيامَ ترسُفُ في قيودِ

وأرى سياسةَ أمتي　　في قبضةِ الخَصْمِ العنيدِ

ومن أروع ما قاله في الحنين متشوقاً إلى تونس ومَنْ فارقهم فيها من الأصدقاء تحت عنوان: (تحية الوطن)، ومطلعها:

ماليَ لا ألمحُ من ذي الجمالْ　　سوى الخيالْ

إلى أن يقول:

يا موطني لم أنسَ عهدَ الشبابْ　　عذبَ الرُّضابْ

وريثما شمَّر يبغي الذهابْ　　صاح الغرابْ

بِنّا وخُضْنا في غِمار الصِّعابْ　　بلا حسابْ

بيني وبين المجد عهدٌ يُهابْ　　فلا عتابْ

حيا رُبا تونسَ ذات الزهورْ　　عهدُ السرورْ

وقال قصيدة تحت عنوان: (الشعور طليعة الفلاح) أيام الحرب العظمى في دمشق سنة ١٣٣٤هـ، ومطلعها:

وإن ساورَتْ بعضَ القلوب ضغينةٌ وعادت من البغضاءِ كالحَشَفِ البالي

وفيها يقول:

لنا هممٌ تسمو إلى العِلْمِ رفعةً وهِمّاتُ بعضِ الناس تصبو إلى المالِ

وله قصيدة (بكاء على قبر) يرثي بها والدته البارة السيدة حليمة السعدية بنتَ مصطفى بن عزوز. وقد عاد إلى دمشق من ألمانيا، ووجدها ارتحلت إلى الله تعالى. وهي من أهم قصائده في الرثاء، ومطلعها:

قطَّبَ الدهرُ فأبديتُ ابتساما وانْتضى الخطبُ فما قلتُ سلاما

«بنتَ عزّوزٍ» لقد لقّنْتِنا خشيةَ الله وأَنْ نرعى الذِّماما

ودَرَيْنا منكِ أن لا نشتري بمعالينا من الدنيا حُطاما

ودَرَيْنا منكِ أن الله لا يخذُلُ العبدَ إذا العبدُ استقاما

ودَرَيْنا كيف لا نعنو لمن حاربَ الحقَّ وإنْ سَلَّ الحساما

وقال عند سفره من دمشق:

كأنّيَ دينارٌ وجِلَّقَ راحةٌ تُنافِسُ في الإنفاق راحةَ حاتمِ

فكمْ سمحتْ بي للرّحيل وليتني ضربتُ بها الأوتادَ ضربةَ لازمِ

وخاطب صديقه الشاعر الأستاذ خير الدين الزركلي صاحب كتاب «الأعلام» بعد أن ألقى قصيدة من نظمه في مجلس الإمام:

يا محضراً في بُردِ شعرٍ رائعٍ روحَ ابْنِ بُرْدٍ وهو يلفظ بالحِكَمْ

مـن علّـمَ الـشعراءَ أن يتحـضّروا روحاً تَرَدَّى جسْمُها ثـوبَ العـدمْ

هذه بعض أشعاره خلال المرحلة السورية في حياته التي قالها بدمشق، وله قصائد أخرى عن دمشق خلال زيارته لها قادماً من القاهرة.

* دخوله السجن في عهد السفاح جمال :

عندما نقرأ سيرة الإمام محمد الخضر حسين نجد صفحاتٍ قاسيةً مؤلمة من جراء دفاعه عن الحق، وقد عانى الأذى والاضطهاد على يد السفاح التركي جمال باشـا في دمشـق، وقَبِلَ الابتلاء بكل إيمـان وصـبر، وبقلـب مؤمن صادق.

اعتقل الشيخ الإمام مدة ستة أشهر وأربعة عشر يوماً في شهر رمضان سنة (١٣٣٤هـ الموافق آوت آب ١٩١٦م) حتى الرابع من شهر ربيع الثاني ١٣٣٥هـ. وأحيل إلى المحاكمة أمام المجلس العرفي العسكري تحت رئاسة فخري باشـا؛ بحجّة أنه حضر مجلسـاً خاض فيه المجتمعون في سياسـة الدولة، وسعى فيه أحدُ المحامين إلى تناول الدولة بعبارات قاسية، حتى استفتى في نكث العهد من طاعتها، والخروج عليها، وسعى إلى تأسيس جمعية تدعو إلى الانفصال عن الدولة العثمانية.

واعتبرت السلطة الطاغية في دمشق أن الشيخ يحمل المسؤولية لعدم إبلاغ الإدارة المختصة بهذا الاجتماع، وما جرى فيه من حديث يتعلق بسياسة الدولة، وأذنت باعتقاله حتى يرى المجلس العرفي رأيه.

وتم الاعتقال في (خان مردم بك) بمدينة دمشق، وهو مكان مُعَدٌّ لاعتقال رجال السياسـة، وكان من رفاقه في السـجن: الرئيس شكري القوتلي الذي شغل منصب رئيس الجمهورية السورية، وفارس الخوري أحد رؤساء الوزارة،

وسعدي بك الملا الذي أصبح رئيساً للوزراء في لبنان، وكان سكرتيراً لشكري الأيوبي.

وحكم المجلس العرفي على الشيخ الإمام بالبراءة مما نسب إليه، وقرر مخاطبة الدولة بطلب إعطائه مكافأة بما لحقه من ضرر.

ويقول الإمام: «ولكني لم أتشبث بهذا القرار، وقنعت بما ظهر للدولة من طهارة ذمتي، وعدم تسرعي إلى النفخ في لهيب الفتنة على غير هدى».

ومن شعر الإمام في السجن:

غلَّ ذا الحبْسُ يدي عن قلمٍ ... كانَ لا يصحو عن الطِّرْس فناما

هل يذودُ الغمض عن مقلته ... أو يلاقي بعدَه الموتَ الزُّؤاما

أنا لولا همةٌ تدعو إلى ... خِدْمة الإسلام آثرتُ الحِماما

ومن روائع شعره في المعتقل: أن الأستاذ سعدي الملا كان رفيق الإمام في زنزانة واحدة، وجرت بينهما محاورة عن البداوة والحضارة، فقال الشيخ:

جَرَى سمرٌ يومَ اعْتُقلنا بفندقٍ ... ضُحانا به ليلٌ وسامرُنا رَمْسُ

فقالَ رفيقي في شَقا الحبسِ إنَّ في الْـ ... ـحضارةِ أُنْساً لا يقاسُ به أُنسُ

فقلتُ له: فضلُ البداوة راجحٌ ... وحسْبُكَ أن البَدْوَ ليس به حَبْسُ

وله أشعار أخرى في المعتقل الذي لم يزِدْه إلا قوةً في العزيمة، وإصراراً على النضال والاستمرار بصلابة في طريق الحق، ودون أن تؤثر في إيمانه الراسخ حوادث الأيام العابرة.

ومن ذكريات السجن قال في دمشق:

ولقد ذكرتُكِ في الدّجى والجندُ قد ... ضربوا على دار القضاء نِطاقا

وقضاةُ حـربٍ أرهفـوا أسـماعَهم ... وصـدورُهم تغْلِـي عَلَـيَّ حِناقـا

والمدّعي يُغري القضاةَ بمـصْرَعي ... ويـرى مُعانـاتي الـدفاعَ سِـياقا

أتـروعُ أهـوالُ المنـونِ متيَّمـاً ... جَرَّعْتِـهِ بعـدَ الوصـالِ فِراقـا

*** نضاله السياسي في ألمانيا من أجل المغرب العربي والإسلام:**

جنَّد الاستعمار الفرنسي ـ بالترغيب والترهيب ـ الآلافَ من أبناء المغرب العربي في صفوف جيشه، وزجَّ بهم كالقطيع من الأغنام في مذابح الحرب، وألقى بهم في خطوط النار الأولى من المعارك التي خاضتها فرنسا ضد ألمانيا، ووقع منهم العدد الكبير أسرى لدى القوات الألمانية. وقد سافر الإمام إلى ألمانيا؛ للاتصال بهؤلاء الأسرى؛ ليحرضهم على القتال ضدَّ فرنسا، لأن بلادهم أحوجُ إليهم في هذا الموقف، ويحثهم على التطوع لمحاربة فرنسا.

أقام في ألمانيا على مرحلتين: تسعة أشهر في عام ١٩١٧م، وسبعة أشهر في عام ١٩١٨م، وكان رفاقه في النضال: الشيخ صالح الشريف، والشيخ إسماعيل الصفايحي من تونس، بالإضافة إلى مناضلين عرب؛ كالأستاذ عبد العزيز شاويش، والدكتور عبد الحميد سعيد، واللواء يوسف مصطفى.

قام بتأليف (اللجنة التونسية الجزائرية) لتحرير المغرب، وألقى المحاضرات على الجنود المغاربة الأسرى في المعتقلات، وسعى إلى ضمِّهم تحت لواء الثورة على الاستعمار من أجل الاستقلال والحرية لأوطانهم.

وكان يكتب مناشير التحريض؛ لتلقى بواسطة المدافع وراء خطوط القتال على الجنود المغاربة، يدعوهم فيها إلى التمرد والعصيان.

أتقن اللغة الألمانية خلال مدة إقامته في برلين، واطلع على أحوال

المجتمع الألماني وعاداته وأخلاقه، كما درس علوم الكيمياء والطبيعة على يد البرفسور الألماني (هاردر) أحدِ العلماء المستشرقين الألمان. وتقول بعض المصادر: إنه كان يخطب باللغة الألمانية في بعض المناسبات.

حتى تحت أزير الرصاص، وفي الأتون المشتعل لهيباً ودماراً، والحرب بضجيجها وعجاجها تقرع الأسماع ليل نهار، لم يترك الشيخ القلم جانباً، وإنما دوّن مشاهداته في برلين، ونشرها في جريدة «المقتبس» بدمشق، الجزأين السابع والثامن من المجلد الثامن، كما طبعت في كتاب مستقل، وله شعر بديع في مناسبات عدة في ألمانيا ضمن ديوانه «خواطر الحياة».

أصدرت السلطات الفرنسية حكماً عليه بالإعدام غيابياً؛ لتحريض المغاربة على الثورة ضد المستعمر الفرنسي. كما صدر الأمر المؤرخ في ١٥ حزيران ١٩١٧م، والذي تضمن: «حُجزت بقصد بيعها أملاكُ الأخضر ابن الحسين المدرسِ السابق في الجامع الأعظم الذي ثبت عصيانه»، ونشر الأمر في «الرائد التونسي» ـ النسخة الفرنسية الصادرة ٢٠/٦/١٩١٧م.

أقول في خاتمة هذه المحاضرة المقتضبة عن المرحلة السورية في سيرة الإمام الخضر التي تستغرق مجلداً لباحث ودارس، ولعلِّي بهذه العجالة أوجزت كثيراً، وأوفيت. أقول:

ـ إن الإمام محمد الخضر حسين خزانة علم متنقلة في حله وترحاله.

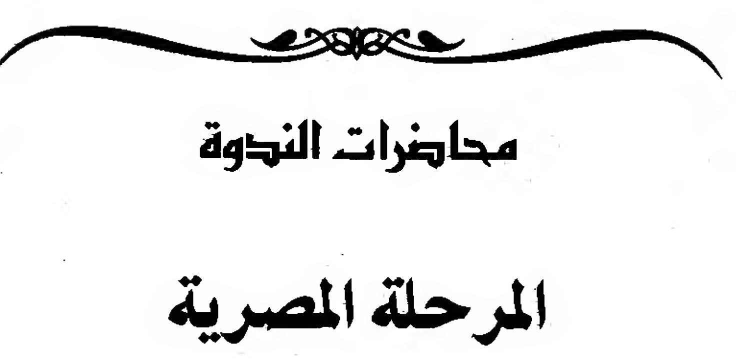
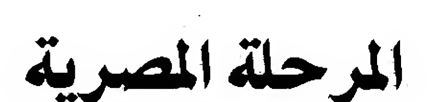
ـ إن الإمام محمد الخضر حسين نبع إلهي لا يغور ماؤه، ولا ينضب عطاؤه.

ـ إن الإمام محمد الخضر حسين ـ كما قال فيه الأستاذ محمد مواعدة ـ: هو رجال في رجل.

ـ إن الإمام محمد الخضر حسين ـ كما قال فيه أحد كبار علماء الأزهر، ويردده الأزهريون من بعده ـ: هذا بحر لا ساحل له.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



المرحلة المصرية
في حياة الإمام محمد الخضر حسين[(١)]

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ورضي الله عن صحابة رسول الله، وعن التابعين، وتابعي التابعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ورضي الله عن مشايخنا ووالدينا والحاضرين، وجميع المسلمين، آمين يا رب العالمين.

وبعد:

الإمام الشيخ محمد الخضر حسين عَلَم من أعلام الإسلام، فريدُ عصرِه، ووحيدُ دهرِه، وهو فلتة من فلتات الزمن، لن يجود الزمن بمثل هذا الرجل.

صحيح أن الأمة الإسلامية ولاّدة، ولكن هذا الرجل يعتبر فعلاً فلتة

---

(١) محاضرة الدكتور مجاهد توفيق الجندي مؤرخ الأزهر، وعضو في الجمعية التاريخية العربية الإسلامية.

مع ملاحظة أن هذه المحاضرة هي نفسها بنصها مع حذف وإضافة القليل، والتي سبق أن ألقاها في (ملتقى الإمام محمد الخضر حسين) في مدينة «بسكرة» بالجزائر ديسمبر ٢٠٠٧م، ونوردها مجدداً هنا حسب نصها السابق، لعل القارئ لم تصل يده إلى محاضرات الملتقى في الجزائر.

من فلتات الزمن، فهو المصلح لهذه الأمة أمرَ دينها، وهو الذي أنار السبيل لها؛ لتنهض من كبوتها، لتحارب الاستعمار، وتخرجه من بلادها.

وهو السياسي الذي قاد السفينة إلى برٍّ الأمان وسطَ الأمواج المتلاطمة، والأعاصير القاتلة، والرياح العاصفة، والبروق والرعود المدوية.

وهو الصحفي الذي لا يُشق له غبار، صاحب مجلة «السعادة العظمى» في تونس، ومجلة «الشبان المسلمين» في مصر، ومجلة «الهداية الإسلامية»، ومجلة «نور الإسلام» التي هي مجلة «الأزهر» بعد ذلك، ومجلة «لواء الإسلام» ومجلة «مجمع اللغة العربية»، وجريدة «الفتح».

ومجلات وصحف أخرى لا نستطيع أن نعرفها بالتحديد، نشر فيها الشيخ الخضر قصائده ومقالاته وبحوثه، سواء الصادرة منها في مصر، أو سورية، أو تونس، أو غيرها من البلاد، ومنها: مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق. ومجلة «البدر» التونسية، والمجلة «الزيتونية» التونسية، وجريدة «الزهراء» الصادرة بتونس، ومجلة «الزهراء»، وهي علمية أدبية اجتماعية، منشئها محب الدين الخطيب.

وهو الشاعر، والأديب، والخطيب المفوّه الذي يهز المنابر.

والواقع أن الشيخ محمد الخضر حسين ابتدأ حياته الأدبية شاعراً قبل أن يبدأها ناثراً؛ حيث نجد آثاره الشعرية الأولى أكثر اهتماماً بالحياة العامة، وأطرفَ أسلوباً، وأميلَ إلى التجديدِ والمطالبةِ بالإصلاح من نثره.

ولكنه سرعان ما انقلب إلى النثر، فعبّر به عن قضايا الأمة والحياة، والمجتمع والفكر، تاركاً للشعر بعض المناسبات الخاصة، والجوانب الأكثر التصاقاً بالعاطفة والوجدان والإخوانيات، وقد ترك ديوانين كبيرين، أحدهما

طبع، وهو «خواطر الحياة»، والثاني مازال مخطوطاً، لكن كثيراً منه منشور في الصحف. وكان قد أعدّ للطبع، ولكن وفاة الشيخ حالت دون ذلك.

وقد رثى والدته السيدة حليمة السعدية التي توفيت سنة (١٣٣٥هـ ـ ١٩١٣م) بقصيدة يقول فيها:

قَطَّبَ الدَّهْرُ فأَبْدَيْتُ ابتساما وانتضى الخطبُ فما قلتُ سَلاما

لستُ أدْري أنَّ في كفَّيكَ يا دهرُ رُزْءاً يملأُ العيْنَ ظَلاَما

إلى آخر القصيدة.

وقد رثى زوجته المصرية الأولى السيدة زينب مذكور ـ وهي من عائلة مذكور، وهي عائلة كبيرة في مصر تتبع قبيلة النجمة التي تعيش في منطقة الهرم، وأعتقد أنها قبيلة من أصول يمنية ـ بقصيدة منها:

أعاذلُ غُضَّ الطَّرْفَ عَنْ جَفْني الباكي فخَطْبٌ رمى الأكْبَاد منّي بأشواكِ

ولي جارةٌ أَوْدى بها سَقَمٌ إلى نوًى دونَ منآها المحيطِ بأفْلاكِ

إلى آخر القصيدة.

*** معارك الشيخ محمد الخضر حسين الأدبية والفكرية:**

ألغى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة الإسلامية سنة ١٣٢٢هـ. وقد أثار هذا القرار ضجة كبرى في العالم الإسلامي، فعقدت المؤتمرات، وكتبت المقالات المعارضة للتشهير بهذا الإلغاء الذي يتعارض مع أهل السنّة والجماعة. وقد كان الملك فؤاد ـ رحمه الله ـ ملكُ مصر من أكبر المعارضين لهذا القرار؛ لأنه كان يسعى لتولِّي خلافة المسلمين؛ لما في ذلك من مكاسب مادية وأدبية وسياسية.

وقام أنصار الملك فؤاد بترويج هذه الفكرة بوسائل عديدة، وفي خضم

هذا الخلاف الشديد بين المناوئين للملك فؤاد، والموافقين له، والمدافعين عن هذه الفكرة، أصدر الشيخ علي عبد الرازق أحدُ علماء الأزهر كتابة «الإسلام وأصول الحكم» سنة ١٩٢٥م.

في الحقيقة: أن الشيخ علي عبد الرازق ـ رحمه الله ـ، وهو من بيت علم قديم في قرية أبو جرج التابعة لمحافظة المنيا في مصر، وهذا الرجل قد وهبه أبوه مع ثلاثة من إخوته للأزهر الشريف، وهو من بيت أثرياء، بيتهم مفتوح لعابري السبيل، ولا يذهب أي قاصد لصدقة، أو لطلبة فيرجع خائباً.

في حديث لي مع المرحوم الشيخ أحمد إدريس وكيلِ لجنة الفتوى بالأزهر، عندما قلت له: عندنا ندوة غداً، أو بعد غد في المجلس الأعلى للثقافة بمناسبة مرور سبعين سنة على كتاب «في الشعر الجاهلي»، وتحدثنا بشأن كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، قال: يا بني! هذا الكتاب ليس للشيخ علي عبد الرازق، ولكنه لطه حسين، أضافه إليه، ليأخذ به شهرة.

وكان بينه وبين طه حسين علاقة ما من النسب أو القرابة، فخجل الرجل، كان رجلاً طيباً جداً، لم يشأ أن يُحرج طه حسين، برغم أن هيئة كبار العلماء اجتمعت، ومحت اسمه من سجلات الأزهر، وأخرجته من زمرتها.

قلت للشيخ أحمد إدريس: ما الذي عرَّفك؟ قال: كنت واعظاً لهذا المركز في محافظة المنيا، مركز يتبع بني مزار، وبني مزار بلدة بها العديد من الصحابة، صحابة رسول الله الذين استشهدوا بالمعارك، الذين صاحبوا عمرو بن العاص في الفتوحات الإسلامية.

بلدة أبو جرج هذه بلدة علي عبد الرازق، وآلُ عبد الرازق بيت كريم، الشيخ أحمد إدريس ذهب إلى هذا البيت، وكان واعظاً للمركز، ذهب ليتغذى

هناك، وليبيت. وعندما انتصف الليل وأراد الرجل أن يذهب إلى الحمام، وجد الشيخ علي عبد الرازق يبكي، والدموع تُبلل لحيته في جوف الليل، يُصلّي في جوف الليل والناسُ نيام، والدموع تبلل لحيته، قال له: يا مولانا! ولماذا كتبت هذا الكتاب؟ قال: يا ابني! هذا الكتاب ـ والله ـ ليس لي، ولكنه لطه حسين، أضافه إليَّ؛ لشيء من القرابة، أو شيء من المصاهرة، لآخذ به شهرة، وهذا الكتاب ليس لي.

قال: لماذا لم تتبرأ من هذا الكتاب؟ قال: ما أردت أن أُحرج طه حسين، وتحمَّل الرجلُ ما حدث له، وأنا اليوم سعيد. هذا ما أؤكد عليه بخصوص كتاب «الإسلام وأصول الحكم».

في ندوة طه حسين في المجلس الأعلى للثقافة، قمت بمداخلة، وقلت هذا الكلام، فغضب عليَّ الدكتور جابر عصفور، وهو من العَلْمانيين المعروفين في مصر. ولكن هو لا يعرف الحقائق، وعندما قلت هذا الكلام، قام وثار وغضب، وقال: هذا الكلام غير صحيح؛ لأنه لو كان صحيحاً، لوقف في وجه هيئة كبار العلماء الذين أخرجوه من زمرتهم، فقلت: اذهبوا إلى الشيخ أحمد إدريس، والصحفيون تجمعوا حولي؛ لأن هذا الكلام جديد بعد مرور أكثر من سبعين سنة على هذا الكتاب. وذهبوا إلى الشيخ أحمد إدريس، وأكد لهم ما قلته، ونشر ذلك في الصحف.

هذا بخصوص «الإسلام وأصول الحكم»، وقد عارضه مولانا وشيخنا الجليل الشيخ الخضر حسين، عارض هذا الكتاب، فأُعجب به الملك فؤاد؛ لأنه كان يريد أن يكون خليفة للمسلمين.

كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، يقول فيه طه حسين؛ لأنه ليس لعلي

عبد الرازق، يقول: إن الحكومات الحديثة لا تحتاج إلى الخلافة، والخلافة ليست ضرورية، وليست من الدين، هذا كلام طه حسين، وهو كلام المستشرقين.

وطه حسين ـ بالطبع ـ حاقد على الأزهر الشريف، برغم أنه أكل من خيرات الأزهر، ولحم أكتافه من خيرات الأزهر الشريف، وجلس في زاوية العميان، يحترمونه، ويأكل ويشرب ويكتسي على نفقة الأزهر الشريف، حيث كان فقيراً، الأزهر الشريف خيرُه على أشداق الذين درسوا فيه، وبرغم هذا يشتمون الأزهر، ويلعنون المشايخ.

قال طه حسين يشتم اللجنة التي ناقشته في الدكتوراه، أو في العالمية، في قصيدة طويلة يشتم فيها المشايخ:

جلسةٌ في الضُّحى   بين العمائمِ واللِّحَى

أتذكَّر هذا البيت.

وثار عليه المشايخ، وسألوه أسئلة عويصة كانت سبباً في أنه لم ينجح في العالمية، فغضب على الأزهر الشريف، واتجه إلى المستشرقين أربابِ النعمة عليه، وقيل: إنهم أعطوه الدكتوراه في جلسة شاي. هكذا يقولون.

وأنا أخذت في هذه الندوة، ندوةِ كتاب «في الشعر الجاهلي»، حصلت على ملف الدكتور طه حسين، اشتريته بثمن غالٍ، وليس ببخس، وجئت به إلى جابر عصفور. فقال لي: جبت الملف ده منين؟ قلت: أنا صحّيته من النوم، وقلت له: قم يا طه، هناك مؤتمر بالنسبة لك.

قال بعد أن قلّب الملف: أريد أصوّر هذه الأوراق، وهي الأوراق التي يدافع بها المستشرقون عن طه حسين، وهم أساتذة جامعة فؤاد الأول،

أو الجامعة المصرية من الفرنسيين. يدافعون عنه، ويقولون: إن الأستاذ في الجامعة حرّ يقول ما يريد. وشهد شاهد من أهلها. هم أهلُه وأحبابه شهدوا له.

فقلت له: لا تصوِّر ولا ورقة واحدة، فاسوَدَّ وجهه، وامتقع، وقال لي: لماذا قلت: أنا لا أريد أن أصور شيئاً من هذا الملف؟ قال: أنا أريد أن أتفاوض مع وزارة الثقافة لأشتري منك هذا الملف بما تحب؛ لنضعه في (راماتان) ـ هي فيلا طه حسين ـ، فقلت: أنا لا أريد أن أبيع هذا الملف، أنا أريد أن يبقى عندي.

خُذْ صوِّر هذه الثلاث ورقات، هذه الثلاث ورقات قرأتها على الحاضرين. وفيها دفاع طبعاً عن طه حسين، المستشرقون الفرنسيون يدافعون عن طه حسين. هذا كلام أقوله أمام حضراتكم.

هذا بخصوص كتاب «الإسلام وأصول الحكم» الذي أُعجب به الملك فؤاد، واستدعاه إلى الإسكندرية ليقابله هناك، وأعطاه الجنسية المصرية، فرحاً وحباً في دفاعه عن الخلافة، ونقضه لكتاب «الإسلام وأصول الحكم» الذي هو لطه حسين، وليس للشيخ علي عبد الرازق.

وقد كان الملك فؤاد ملكُ مصر من أكبر المعارضين لهذا القرار، قرارِ إلغاء الخلافة؛ لأنه كان يسعى لتولي خلافة المسلمين؛ لما في ذلك من مكاسب مادية وأدبية وسياسية.

وقد أثار هذا الكتاب ضجة في أوساط رجال الدين والأزهر، سواء من مؤلفه الذي هو من رجال الإسلام، ولا يمكن لمثله أن يصدر عنه كتاب من هذا النوع، أو بالنسبة لمحتواه المخالف لما يعتقده العلماء والشيوخ،

فتصدى له الشيخ محمد الخضر حسين بكتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، وقد بادرت هيئة كبار العلماء بالأزهر إلى طرد الشيخ علي عبد الرازق من صفوفها، ومحو اسمه من سجلات الأزهر، كما حوكم الكتاب، وصودر من الأسواق.

*** خلاف الشيخ محمد الخضر حسين مع الدكتور طه حسين:**

في سنة ١٩٢٦م أصدر طه حسين كتابه «في الشعر الجاهلي»، وتصدى له الشيخ محمد الخضر، طبعاً جاء في هذا الكتاب: أن الشعر الجاهلي منحول، وهذا يعني: أن القرآن الكريم منحول، وهذه الأشياء كلها منحولة، وتصدى له الشيخ الخضر بكتاب يساويه حجماً وصفحات وتبويباً، أسماه: «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» الذي أُعيد نشره مراراً بعد تعديله تحت اسم «في الأدب الجاهلي».

وقفز هذا الكتاب بالشيخ الخضر حسين إلى الصف الأول بين علماء مصر وأدبائها، فارتفعت مكانته وشهرته بسرعة فائقة جداً.

*** خلاف الشيخ محمد الخضر حسين مع الأستاذ إبراهيم مصطفى:**

وهو ـ أيضاً ـ من تلاميذ طه حسين، ألّف الأستاذ إبراهيم مصطفى كتابه «إحياء النحو» الذي تعرض فيه إلى بعض علماء النحو القدامى، ونظرياتهم في هذا الميدان، وردّ عليه الشيخ محمد الخضر في مجلة «الهداية الإسلامية»، ومما قاله:

والواقع: أن المؤلف سلك أعوج الطرق في التحامل على علماء العربية، والمبالغة في نسبتهم إلى التقصير، وهي الطريقة التي يسلكها الدكتور طه حسين على جهالة، أو قضاءً لحاجة في النفس.

وقد شكر طه حسين جهودَ إبراهيم مصطفى، وسعة علمه، فتعرض له الشيخ الخضر حسين بقوله: وهذا التقريظ دائر بين أمرين: إما أن الدكتور طه حسين لم يقرأ هذا الكتاب، وقرّظه مع العاطفة والمبدأ، وإما أنه قرأه، ولضعفه ـ أي: ضعف طه حسين ـ في عِلْم العربية بدا له أن هذا الكتاب إحياء لعلم النحو.

ويبدو من مقال «الهداية الإسلامية» أن الشيخ الخضر كان يعتزم تأليف كتاب بالرد على إبراهيم مصطفى، لكن لأن الشيخ محمد عرفة ـ وهو عالم جليل من علماء الأزهر المصلحين أيضاً ـ كفاه مؤونة ذلك عندما ألّف كتاباً حقق نفس غرضه، وهو «النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة».

*** خصومة الشيخ محمد الخضر حسين مع الشيخ رشيد رضا:**

كان الرجلان متفقين في النظرة إلى اللغة العربية؛ من حيث الدفاعُ عنها باعتبارها وسيلة للتعريف بأصول الدين الإسلامي، وهي لغة القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وتزداد الصلة مكانة ومتانة عند صدور كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، و«في الشعر الجاهلي» لطه حسين، ويقف منهما الشيخ الخضر الموقفَ الذي بيّناه، ويسانده الشيخ رشيد رضا، ويشيد بكتابيه، وبقيمة صاحبهما العلمية والدينية، كما يقرّظ مجلة «الهداية الإسلامية».

كانوا متفقين سوياً، ثم برزت القطيعةُ بينهما عند صدور العدد الأول من مجلة «نور الإسلام»، وما كتبه بشأنها الشيخ رشيد رضا، خاصة لومه على رئيس التحرير الشيخ الخضر؛ لعدم ذكره الشيخ محمد مصطفى المراغي، الذي هو شيخ الأزهر الذي ثبّت الشيخ الخضر حسين في وظيفته بالأزهر

رسمياً، وكان أستاذاً في كلية أصول الدين في قسم التخصص، يدرّس السياسة الشرعية لطلبة التخصص، و ـ أيضاً ـ في كلية الشريعة طلبة التخصص في السياسة الشرعية، وهذه لا يدرسها إلا فطاحل العلماء. لعدم ذكر الشيخ مصطفى المراغي، وابتعاد المجلة عن السياسة، اختلف في حاجتين: لأنه ما ذكر الشيخ المراغي في العدد الأول، وأنه كان صاحب فضل عليه في تثبيته رسمياً في الوظيفة عندما أصبح شيخاً للأزهر، و ـ أيضاً ـ لخلافه أن المجلة بعيدة عن السياسة.

وقد ردّ الشيخ الخضر على الشيخ رشيد رضا بمقال عنوانه: «للحقيقة والتاريخ»، وهو خطاب مفتوح نشر في مجلة «الهداية الإسلامية»، ثم يذكر ما قاله الشيخ رشيد رضا بخصوص مساعدة الشيخ المراغي للشيخ الخضر حسين بجعله مدرساً في قسم التخصص في كلية أصول الدين بعناية خاصة استثنائية، فيشير الشيخ الخضر إلى أن مجلس الأزهر قد ندبه بالتدريس قبل ولاية الشيخ المراغي بنحو سنة، عندما كان الأستاذ عبد الرحمن قرّاعة رئيساً لهذا المجلس.

*** دخول الشيخ محمد الخضر حسين جماعة كبار العلماء:**

أخذ عضوية هذه الجماعة، وحصل عليها بكتاب «القياس في اللغة العربية»، وهي رسالة؛ لأن من شروط الانضمام إلى هذه الجماعة: أن يقدم العالم رسالة جديدة فيها كل جديد.

فقوبل بالإجماع سنة ١٩٥٢م. وعندما ناقشت اللجنة الشيخ، أجاب على الأسئلة باستفاضة ودقّة متناهية، ولذلك قال الشيخ اللبان ـ وهو رئيس الممتحنين ـ للجنة: هذا بحر لا ساحل له، فكيف نقف معه في حجاج؟!

وأعطي العالمية بالإجماع بدرجة ممتازة.

* مشيخة الأزهر الشريف:

تقلد الشيخ محمد الخضر حسين منصب شيخ الأزهر الشريف في ظروف سياسية واجتماعية معينة، جعلت بقاءه في هذا المنصب العلمي الهام لا يطول كثيراً، برغم ما للرجل من قيمة علمية وأخلاقية ودينية.

في يوم الأربعاء (٢٧ من ذي الحجة ١٣٧١هـ ـ ١٧ ديسمبر ١٩٥٢م) زار ثلاثة من الوزراء على رأسهم الشيخ أحمد حسن الباقوري صديقُ الشيخ، ووزير الأوقاف المصرية منزلَ الشيخ محمد الخضر حسين، وبعد الترحيب بهم، بادره الشيخ صديقُه الباقوري بالقول: لقد وقع الاختيار عليك لتكون شيخاً للأزهر، فأبدى الرجل امتناعاً؛ نظراً لخطورة المهمة، وكبرها، ولعجزه البدني، وشيخوخته، وقد أشرف سنّه على الثمانين، فرفض الوزير الاعتذار قائلاً: هذا أمر تجنيد، وفي هذا العهد المبارك تُجند الكفاءات النزيهة لخدمة مصر. وعند ذلك قَبِل المسؤولية الجديدة، وأجاب: وأنا لا أهرب من الجندية، وليوفقنا الله.

ولم يكن الشيخ الخضر ينتظر بلوغه هذا المنصب لأسباب عديدة، لذلك أجاب عن سؤال يتعلق ببرنامجه الإصلاحي في الأزهر بقوله ـ عندما سأله المحرر بمجلة «المصور» المصرية بذلك الوقت ـ، قال: ليس لدي برنامج مدروس؛ إذ كنت لا أتوقع أن أكون شيخاً للأزهر، بعد أن قضيت عمراً طويلاً أدرّس السياسة الشرعية في كليتي الشريعة وأصول الدين، ثم أُحلت على المعاش بعد عشرين سنة في هذا العمل، ولزمت بيتي.

وتجدر الملاحظة: أن قلة المصادر المتعلقة بهذه الفترة الهامة من حياة

الخضر هي التي عاقتنا عن معرفة الأسباب التي أدت إلى اختياره شيخاً للأزهر، ولعل ما نفترضه هو: أن غزارة علمه، وشهرته الواسعة في الأوساط الدينية والثقافية، وهدوء طبعه في معالجة الأمور، وفي مشيخة الأزهر بالذات التي تكثر حولها الفتن، وتكثر حولها المؤامرات.

بالإضافة إلى الصداقة التي كانت تربط بينه وبين عدد كبير من علماء مصر وفضلائها، وأعضاء مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو كانوا زملاءه في جمعية «الهداية الإسلامية»، كانوا أعضاء، ربما ليسوا أعضاء عاملين، ولكن كانوا يساعدون بالمال، ويساعدون بأشياء كثيرة.

*** استقالة الشيخ محمد الخضر حسين من مشيخة الأزهر:**

واصل الشيخ محمد الخضر حسين نشاطه الإداري والعلمي بمساعدة عدد من العلماء البارزين في الأزهر إلى سنة ١٩٥٤م؛ إذ كثرت أمراضه الجسمية؛ مما منعه من القيام بمسؤولياته التي يرتضي ضميره، لذا قرر الاستقالة من منصب مشيخة الأزهر، وبارح هذا المعهد العلمي يوم (٢ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ ـ ٨ جانفي ١٩٥٤م). طبعاً هذا كلام سياسي، ولكن الحقيقة أنه استقال نظراً لقانون الإصلاح الزراعي. وهذا يلغي كل من عنده أكثر من مئة فدان من الإقطاعيين المصريين بذلك الوقت. وغضب الشيخ غضباً، وقال: هذا حرام أن نأخذ أموال الناس، ونوزعها على آخرين، وقدم استقالته، لكن وجد من يطرق عليه الباب، فتح الباب، فوجد محمد نجيب وجمال عبد الناصر يقفان أمام البيت بعد الاستضافة، قالا له: إننا نرجوك أن تسحب هذه الاستقالة، ونحن نلغي هذا القانون. وفعلاً أُلغي مؤقتاً إلى أن رجع الشيخ؛ لأن استقالة الشيخ فضيحة، كون الشيخ يستقيل من الثورة هذه فضيحة لهم،

ولأن الشيخ من العلماء العظام الذين اختيروا من بين جماعة كبار العلماء، وليس معيناً من قبل الثورة، ولكنه آخر العلماء العظام الذين كانوا مختارين لمشيخة الأزهر الشريف، لذلك رجع مرة إلى المشيخة، والمرة الثانية قالوا: إنه استقال؛ لأنهم أرادوا أن يضموا المحاكم الشرعية إلى القضاء الأهلي، فقال: العكس هو الصحيح، يُضم القضاء الأهلي إلى القضاء الشرعي، وقدم استقالته نهائياً، ولم يرجع، ونفذوا كل ما أرادوه بعد ذلك.

*** حياته بعد الأزهر:**

ترك الشيخ الخضر جامع الأزهر وسنّه إحدى وثمانون سنة، وانزوى بمنزله إلى كتبه العلمية، وقد أنهك جسمَه الإعياء، ولم يبق له من المهام العلمية إلا عضويةُ المجمع اللغوي التي واصل القيام بها إلى آخر يوم من حياته، وكذلك عضوية جماعة كبار العلماء التي لم تكن تكلف صاحبها عناء كبيراً.

ولم ينقطع عن كتابة المقالات الدينية في بعض المجلات؛ مثل: «لواء الإسلام» التي كان أحد المشرفين عليها، ومحرراً لقسم تفسير القرآن فيها.

*** وفاة الشيخ محمد الخضر حسين:**

انتقل الشيخ محمد الخضر حسين إلى جوار ربه بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال يوم الأحد (١٣ رجب سنة ١٣٧٧هـ ـ ٢ فيفري ١٩٥٨م).

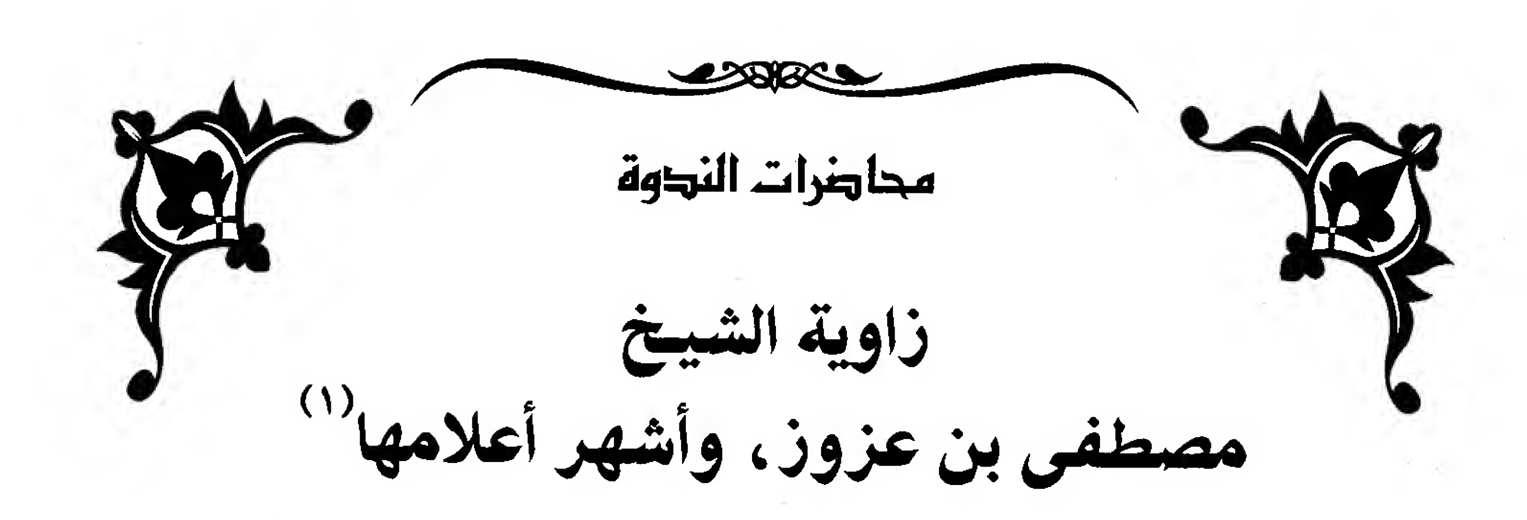
وفي نفس ذلك التاريخ وقع الإعلام بمدينتي القاهرة ودمشق عن ميلاد الجمهورية العربية المتحدة. وكأن الصدفة أرادت اقتران هذا الحدث السياسي بوفاة رجل كان يدعو طول حياته إلى دعم الرابطة الإسلامية، وتقوية التعاون والوحدة بين المسلمين.

وقد نعى العالم الإسلامي هذا العلاّمة الكبير، وحضر تشييع جثمانه كبارُ رجال الدولة المصرية، وعدد من علماء المشرق العربي البارزين.

وقد طلب رئيس الجمهورية التونسية الحبيب بورقيبة من سفير تونس بمصر السعي لدى عائلة الفقيد للموافقة على دفنه في أرض الوطن، إلا أن المرحوم كان قد ترك وصية خطية طلب فيها دفنه بجوار صديقه أحمد تيمور باشا، الذي وجد منه الشيخُ التقدير والعون والمساعدة، ولذلك دفن في مصر تاركاً شهرة علمية واسعة.

وبذلك انتهت حياة العالم الجليل عن سن ٨٦ عاماً قضاها في طلب العلم، وتقوية الرابطة الإسلامية.





زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز، وأشهر أعلامها[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

في بداية هذه الندوة المباركة، أشكر (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي)، والقائمين عليها، كما أشكر الأستاذ محمد مواعدة على جهوده الصادقة في التحضير لها، والعمل المخلص الجاد على إنجاحها، وإبرازها في صورة واضحة. كما أشكر الأستاذ فتحي القاسمي الكاتب العام للجمعية، لهم الشكر جميعاً على أن أتاحوا لي هذه الفرصة للمشاركة في هذه الندوة، وأن أحاول أن أتحدث عن زاوية الشيخ سيدي مصطفى بن عزوز، وعن أبرز أعلامها في «نفطة».

والحديث عن هذه الزاوية هو الحديث عن جذور الشيخ سيدي مصطفى ابن عزوز العائلية والفكرية، والروحية ـ أيضاً ـ، وصلة هذه العائلة الشريفة بعائلة سيدي الحسين من جهة النسب، والصلة العائلية، وخدمة الطريقة الرحمانية التي عملوا لها ومن أجلها.

---

(١) محاضرة الدكتور الطبيب حسين بن عزوز، من أحفاد الشيخ مصطفى بن عزوز. وهو طبيب، وله اهتمامه الخاص (بعائلة آل عزوز).

إن الشـيخ مصطفى عزوز هو جدّ الإمام محمد الخضر حسـين للأم. وإن هذه الزاوية هي المدرسة الأولى للشيخ الخضر، والذي أصبح من أبرز أعلامها.

إن العلامة الإمام محمد الخضر حسين مولود في «نفطة» سنة ١٨٧٣م، وينتمي إلى عائلة جزائرية صوفية، ووالده الشـيخ الحسـين بن علي بن عمر الطولقي نسبة إلى «طولقة» من دوائر «بسكرة»، وكان مريداً خاصاً للشيخ مصطفى ابن عزوز، وقد دخل معه «نفطة» مهاجراً سنة ١٨٤٣م، وأم الإمام الخضر هي السيدة حليمة السعدية إحدى بنات الشيخ مصطفى بن عزوز، ورابطة النسب بين عائلة الشيخ الخضر وعائلة ابن عزوز متأصلة متشعبة.

ثم إن هذه علاقة القربى ترافقها علاقة روحية قوية، وهي علاقة الشيخ بخليفته، وعلاقة الخليفة بشيخه؛ إذ أن الشيخ سيدي علي بن عمر الطولقي هو جد الخضـر، وأبرز خلفاء سـيدي محمد بن عزوز البرجي والد سـيدي مصطفى.

كما أن الشيخ مصطفى بن عزوز هو شيخ سيدي الحسـين بن علي بن عمر والد الشيخ الخضر.

وبعد هذه التوطئة أريد أن أقرأ عليكم هذه الكلمة عن أعلام تونس.

«أشد ما يؤلم ذا الشعور الحي، والنفس اليقظة: ذلك الكابوسُ العجيب الذي نزل على التاريخ التونسـي في أحداثه وآثاره ورجاله، فلـزَّه إلى زاوية الإهمال، وكسـاه ثوب الذبول والخمول، وضرب عليه التلاشي والضياع، وألزمه انعدام المصـادر، وفقدان التآليف، وتعطل البـروز، حتى أصـبحت الجهالة بأحواله سنّة متبعة، والنكران لرجاله مشرعاً سائغاً، والطمس لمعالمه

حقاً مرعياً، ولقد كنت ـ حين ألاحظ أمر هذا الكابوس ـ يشتد عجبي، ويحتد غضبي من كونه عمَّ بلا استثناء، حتى دس الجهل في أوساط العلم، وأساغ النكران في شارع المعرفة. . .»

هذه الصرخة هي من العلامة الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ـ رحمه الله ـ في كتابه «تراجم الأعلام»، وفي مقدمة له لترجمة الشيخ محمد المكي بن عزوز، وهي صرخة لهذا العَلَم، ولغيره من أعلام تونس.

وللأسف الشديد، هذا الإهمال مازال موجوداً حتى اليوم، ولكن الآن ـ والحمد لله ـ هذه هي (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي)، إلى جانب وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، ووزارة الشؤون الدينية، تقوم بمجهود طيب في التعريف بالأعلام المنسيين.

ولعلي بهذا العرض ألقي الضوء على بعض جوانب زاوية سيدي مصطفى ابن عزوز وأعلامها.

من هو الشيخ سيدي مصطفى بن عزوز؟ وما هي ظروفه التي هاجر فيها؟ وما كان نشاطه ونشاط الزاوية؟ ثم ما أنتجَه من دعوة؟

الشيخ مصطفى بن عزوز هو ابن المربي الشهير الشيخ محمد بن عزوز البرجي الإدريسي، ينتمي إلى النسب النبوي الشريف، ولد في مدينة «البرج» القريبة من «طولقة»، وهي قرية صغيرة في الواحة، وتبعد ١٤٠ كم عن «بسكرة» بالجنوب الجزائري.

في هذه الروضة الشريفة، والدوحة الطاهرة ولد الشيخ مصطفى بن عزوز سنة ١٢٢٠هـ، «وهو ينحدر من بيت عريق في الديانة والفضل، والمنزلة الجليلة المنقطعة النظير، والصيت المطلق في الخير والهداية والصلاح، ولقد ارتكزت

قيمة هذا البيت على ما شهر به الشيخ محمد بن عزوز من الورع والصلاح، والقدم الراسخة في السلوك الشرعي؛ إذ تخرج على الصوفي الأشهر الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الجزائري، ناشرِ الطريقة الرحمانية الخلوتية، وعمَّ ذكر فضله بانتشار الطريقة التي عظُمت بها سمعته، وعلت شهرته».

كما كتب الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ـ رحمه الله ـ:

لقد أخذ الشيخ مصطفى العلم عن والده، وعن شيوخ كبار، أخذ عن محمد الأمير أحدِ شيوخ الأزهر الشريف، وإبراهيم الباجوري، ومحمد بن علي السنوسي مؤلفِ الطريقة السنوسية، وغيرهم.

هذا ما جاء في كتاب الأستاذ عبد المنعم القاسمي ـ وهو حاضر معنا ـ عن «أعلام التصوف في الجزائر»، وهو من العائلة القاسمية الفاضلة.

تعلم الشيخ مصطفى، وأخذ طريقته الرحمانية عن شيخه سيدي علي بن عمر الطولقي جدِّ الشيخ الخضر؛ إذ بعد وفاة الشيخ محمد بن عزوز دفن في زاويته بالبرج، وما زالت الزاوية حتى الآن يؤمها المصلون والزوار، وهي عامرة بالصلاة والذكر. بعد وفاة والده، وبوصاية منه، اعتنى به شيخه سيدي علي بن عمر، وانتصب في زاوية والده بالبرج، ثم دعاه شيخه، وألح عليه بالهجرة إلى تونس ـ كما ذكره الشيخ عبد الرحمن بن الحاج بن علي بن عثمان ابن علي بن عمر في كتابه «الدر المكنوز في حياة سيدي علي بن عمر، وسيدي ابن عزوز» لنشر الطريقة الرحمانية في هذه الربوع، زيادة عن البحث عن ملجأ للثوار الجزائريين. فاختار الشيخ مصطفى بن عزوز «نفطة» موطناً لعائلته؛ لقربها من الحدود الجزائرية، ولِبَثِّ الطريقة الرحمانية، ولأهداف بعيدة المدى، منها: مساعدة المجاهدين في الجزائر.

يقول الشيخ إبراهيم خريف في كتابه «المنهج السديد في التعريف بقطر الجريد»:

«وورد على بلدة «نفطة» من بلاد الزاب مهاجراً، القدوةُ المرشد، صفوةُ البررة، وخلاصة الصالحين الخيرة، صاحبُ المآثر العديدة، والأخلاقِ الحميدة، الشيخُ سيدي مصطفى بن عزوز، فاستوطن مع عائلته وعددٍ كبير من أتباعه وأشياعه، فأقبلت عليه البلاد، وهرعت إليه العباد، يلتمسون بركته، ويستمدون فيوضاته. ثم أحدث زاويته المشهورة، المشتملة على عدد كبير من المساكن لإيواء الواردين عليه من كل صُقْع، وإنشاء مطابخ لإطعام كل مَنْ يرد مِن أبناء السبيل وغيرهم».

أقام في «نفطة» مدرسةً مهمة لتعليم القرآن الكريم وحفظِه، مع تعليم كافة العلوم الأخرى، وجهز بيوتاً لإقامة طلاب العلم، وأحضر من كبار الشيوخ للتدريس، ومنهم: العلامة محمد المدني بن عزوز، والفقيه العالِم أبو العباس أخو الشيخ مصطفى، والشيخ محمد بن حمادي، وجلب من «ققصة» العالم الشيخ أحمد السنوسي بن عبد الرحمن القفصي، ومن «توزر» العلامة إبراهيم بو علاّق التوزري، والشيخ محمد بن عزوز، والشيخ أحمد الأمين بن عزوز، والشيخ التارزي بن عزوز، وكثير غيرهم من الفضلاء الأجلّة.

فما هي الطريقة الرحمانية التي جاء لبثِّها؟

الطريقة الرحمانية هي طريقته، وطريقة والده، المنبثقة عن الطريقة الخلوتية التي أسسها سراج الدين الخلوتي المتوفى في «تبريز» ٨٠٠هـ، وهي ترجع إلى فرع من فروع السهروردية وترجع بالطبع إلى الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ.

سـميت بالرحمانية؛ لأن ناشرها الأول بالجزائر والمغرب العربي هو الشـيخ محمد بن عبد الرحمن الجرجري الأزهـري، عن الشـيخ محمد بن سالم الحفناوي، وقد لازمه أكثر من ربع قرن قبل أن يرجع إلى الجزائر؛ حيث عرفت الطريقة انتشـاراً واسـعاً على يديه بين بلاد القبائل في القطـر الجزائري، وتونس، وامتدت إلى جوبا، وإلى طرابلس في ليبيا، وعند وفاة الشيخ عبد الرحمن خلَّف ٢٣ خليفة من كبار الشيوخ ساهموا في نشر الطريقة، منهم: سيدي عبد الرحمن باش تارزي القُسَنْطيني، وسيدي علي بن عيسى، وسيدي محمد أمزيان بن الحداد، وسيدي محمد بن عزوز البرجي والد سيدي مصطفى بن عزوز، الذي كان له أثر عظيم في الجنوب والشرق الجزائري، كما ذكره الأستاذ عبد الباقي مفتاح في عرضه (لمحة تاريخية حول الطريقة الرحمانية الخلوتية)، وذلك في ندوة أقيمت في «طولقة» تحت عنوان: (الملتقى الأول للعلامة الشيخ محمد بن عزوز) نور الصحراء في زاوية الشيخ علي بن عمر بين (١١ ـ ١٢ ربيع الأول ١٤١٨هـ/ ١٦ ـ ١٧ جويلية ١٩٩٧م).

وطلب الشيخ محمد بن عزوز من شيخه محمد بن عبد الرحمن الإذن بزيارة والدته، فقال له شيخه ـ بعد أن أذن: ـ إذا لم تجدني في قيد الحياة، فأتمم دروسك وتربيتك عند الشيخ عبد الرحمن باش تارزي دفينِ قسنطنية.

وبالفعل توفي الشيخ في غياب تلميذه، فلازم الشيخ باش تارزي صاحبَ «المنظومة الرحمانية» حتى أتم تربيته، وقفل راجعاً إلى بلدته «البرج» حيث أسس زاويته هناك إلى أن توفي سنة ١٢٣٣هـ، ودفن بزاويته المشهورة حتى اليوم.

وللشـيخ محمد بن عزوز أرجوزة عنوانها: «رسـالة المريد في قواطع

الطريق وسوالبه وأصوله وأمهاته»، وله شرح عجيب مفيد عليها.

وترك الشيخ محمد بن عزوز ثمانية أبناء، وهم:

١ ـ الحسين، ودفن في «البرج» جانب والده.

٢ ـ محمد الشيخ، ودفن في «طولقة».

٣ ـ أبو العباس، توفي ودفن في «نفطة».

٤ ـ محمد، انتقل إلى القيروان، واستوطنها، وتوفي بها، ومازال فرعه حتى اليوم.

٥ ـ الحسن بن عزوز الذي عينه الأمير عبد القادر خليفة على مقاطعة الزاب، وله تاريخ مجيد في البطولات. ويحتاج إلى ندوة كاملة، وقد تحدث عنه مطولاً الأستاذ محمد علي دبوز في كتابه «نهضة الجزائر».

٦ ـ الشيخ مصطفى صاحب زاوية «نفطة» ـ وموضوع محاضرتي في هذه الندوة.

٧ ـ الشيخ محمد التارزي صاحب كتاب «الهواتف»، وهاجر إلى المدينة المنورة، وتوفي بها.

٨ ـ الشيخ المبروك، انتقل إلى الأغواط في الجزائر، وأسس زاوية هامة لازالت حتى اليوم.

يذكر الباحثون أن الشيخ مصطفى بن عزوز أسس قرابة خمسين زاوية ومسجد للصلاة في أنحاء القطر التونسي، ودخل في الطريقة عشرات الألوف، حتى كانت الأولى بين الطرق المنتشرة في تونس، وبلاد المغرب العربي.

وعرفت الطريقة الخلوتية بالعزوزية؛ لشهرتها بآل عزوز الذين خدموا العلم والطريقة، بدءاً من شيخها الأول سيدي محمد بن عزوز، وإخوته،

إلى الأبناء والحفدة من أسرته المباركة.

لا بد أن نشير هنا باختصار شديد إلى مساعي الصلح التي قام بها الشيخ مصطفى بن عزوز مع علي بن غذاهم، وثورته سنة (١٢٨٠هـ ـ ١٨٦٤م)، وقد تناولها الباحثون والمؤرخون في العديد من المؤلفات.

فقد أصدر المشير محمد الصادق باي أمراً فرض بموجبه إعانة ـ وهي ما يعرف اليوم بالضريبة ـ على كل تونسي تُجبى لصالح الخزينة، وقدرها ٧٢ ريالاً، وشكل هذا عبئاً على الناس، ولاسيما طبقة العمال والفلاحين، ومنهم من اشتكى، ومنهم من تمرد وحمل السلاح في وجه الباي، ومنهم: علي بن غذاهم من مدينة «ماجر»، وعمت الفوضى البلاد التونسية، وقامت حملات عسكرية عنيفة على المواطنين.

ونظراً للمكانة السامية للشيخ عند الباي محمد الصادق، ومكانة الشيخ عند عامة الناس، فقد طلب الباي إليه التوسط في هذا الموضوع.

يقول الشيخ الوزير أحمد بن أبي ضياف في كتابه «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان»: «ولم يزل الحال في اضطراب وشدة إلى أن قدم من الجريد بركةُ القطر المشارُ إليه بالبنان، المتدرجُ في مقامات العرفان، الوليُّ السالك المحبّبُ لعباد الله، شيخُ الطريقة الرحمانية، أبو النخبة، الشيخُ مصطفى بن عزوز، واجتمع بعلي بن غذاهم ووجوهِ جموعه، وقد مسهم نصبُ الملل، بعد أن أخذ لهم الأمان من الباي، واستوثق منه بالعهود والأيمان، وقرأ للباي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[النحل: ٩١]. ثم قال لهم: لا جواب لكم عند الله تعالى على إراقة دماء المسلمين. وقد أعطاكم

الباي الأمان على يد أمير المحلة، وخفف عنكم أكثر مما يُظن، إلى غير ذلك مما تفضل به عليكم خشيةَ إراقة الدماء.

وقال لعلي بن غذاهم: «أنت لستَ بقائمٍ تطلب ملكاً، وزعمت أنك جامعُ عصابة شاكية لكفِّ عادية جهالها، وقد زال السبب، فلابد أن يزول المسبب، وقد عطلتم الناس عن السعي في ابتغاء رزقهم».

«وبلّغ الشيخ مصطفى الناس أوامر الباي في الأمان، وإسقاط ما ثقل من الأوامر، فانقادوا معه، بعد أن عقد الباي يده بيد الشيخ، وعاهده على الوفاء بالعهد في أمان الناس ظاهراً أو باطناً، ووثق الشيخ بهذا العهد». ثم جرى ما جرى من نقض العهد، وقتل ابن غذاهم.

يقول الأستاذ علي الرضا الحسيني في كتابه «زاوية مصطفى بن عزوز»: «إن الشيخ مصطفى بن عزوز بصفاء سريرته، ونقاء نيته، لا يعرف أن السياسة في الملك لها طرقها وأساليبها، وأن العهود والعقود لا تعني شيئاً للحاكم إلا بمقدار ما تحفظ له سلطته، وتحقق له غاياته، حتى ما إذا تمكن من مراده، وحصل على مقاصده، تنكر لما عاهد به دون أي عناء. وكان الذي تمَّ من نقض عهد الدولة، ومآل علي بن غذاهم».

ولابد من الإشارة إلى جهاد الشيخ مصطفى بن عزوز في مقاومة الفرنسيين بالجزائر، وهذا يحتاج إلى متسع من الوقت. كما يحتاج إلى مراجعة المؤرخين والباحثين في الملفات لذلك العهد. وهذه مهمة جداً في تاريخ الشيخ المجاهد الصالح.

وما أحوجَنا إلى ندوة خاصة تقوم بها (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي) حول الشيخ مصطفى بن عزوز،

تتناول سيرته وأعماله وجهاده بالتفصيل، وتضيء النواحي المشرقة في حياة هذا الشيخ البركة الذي اختار «نفطة» لنشر الطريقة والجهاد، ونالت «نفطة» شرف إقامته فيها حتى وفاته ـ رحمه الله ـ في آخر ليلة من ذي الحجة سنة ١٢٨٢هـ، ودفن بزاويته هنا.

ونظراً لضيق الوقت، فإن الحديث عن كبار أعلام زاوية مصطفى بن عزوز، ولاسيما الشيوخ:

ـ محمد المدني بن المبروك بن عزوز الذي دفن بضريح ضيف الله في (عرش الشرفا) بمدينة «نفطة» سنة ١٢٨٥هـ.

ـ التارزي بن محمد بن عزوز، وتوفي بالمدينة المنورة سنة ١٣١٠هـ.

ـ سيدي الحسين بن علي بن عمر والد الإمام محمد الخضر حسين، وتوفي في مدينة تونس سنة ١٣٠٩هـ.

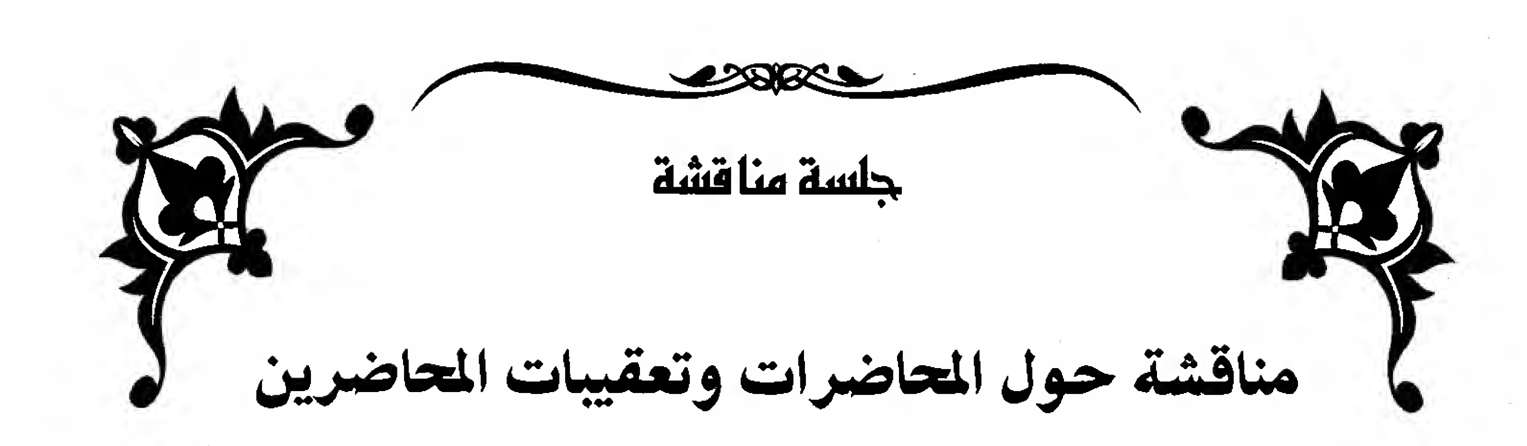
ـ أحمد الأمين بن محمد المدني بن عزوز، توفي بالمدينة المنورة سنة ١٣٥٤هـ.

ـ المجاهد العربي التبسي رئيس جمعية العلماء الجزائريين المسلمين في الجزائر وغيرهم، نجعله في فرصة أخرى ـ إن شاء الله ـ.

وأخيراً أقول: رحمة الله عليك يا ابن الحسين، يا الخضر، شرّفت أجدادك، وشرفت «بسكرة»، و«نفطة»، وشرفت تونس والجزائر، وشرفت جامع الزيتونة المعمور، وجامع الأزهر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





مناقشة حول المحاضرات وتعقيبات المحاضرين

*** الأستاذ فتحي القاسمي[1]:**

ـ أريد أن أشكر الشكر كلّه لأساتذتي الذين تفضلوا بهذه المداخلات. هناك بعض التساؤلات التي أسوقها سريعاً:

بقدر ما أنا مسرور بصدور كتاب الأستاذ محمد مواعدة «محمد الخضر حسين حياته وآثاره» مستقبلاً في جزأين، أتساءل: أليس من باب الإضافة والطرافة أن نضيف إلى هذه اللبنات: المرحلةَ الأوروبية، خصوصاً أن هناك وثائق ومخطوطات كثيرة موجودة في برلين. وأنا بلغني منذ مدة قصيرة أن الأستاذ منير فندي قد جلب من المكتبات الألمانية وثائق هامة جداً حول فترة إقامة الشيخ الخضر في ألمانيا، وكانت للشيخ لقاءات هامة مع كبار المستشرقين، وأنا أضم صوتي إلى ما قاله الأستاذ علي الرضا الحسيني من أنه كان يتقن اللغة الألمانية كتابة وقراءة.

ـ بالنسبة إلى المرحلة السورية، أتساءل: ألا يمكن أن نتحدث بهذا الإطار عن الدور التونسي في تأجيج مقاومة السوريين للاستعمار الفرنسي،

(١) الكاتب العام للجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي، وأستاذ محاضر مختص في النهضة الفكرية في الوطن العربي عموماً، وتونس خصوصاً.

وقد وظّف الشيخ صالح الشريف، والخضر حسين اللذان اكتويا من الاستعمار الفرنسي، وقد وظفا تلك الثقافة لتأجيج شعور المقاومة ضد الجيش الفرنسي في سورية؟

ألا يمكن الحديث عن الخضر في تعاونه مع كوكبة من التونسيين الذين استقروا فترة ما بدمشق، وكان لهم دور في هذا الوعي الوطني؟

ـ بالنسبة إلى صديقي الدكتور حسين بن عزوز، لماذا مررتَ مرور الكرام عن تلك القضية الكبيرة التي جرى حولها حديث كثير؟ وهي وساطة الشيخ مصطفى بن عزّوز في قضية ابن غذاهم، خصوصاً أن وساطة الشيخ مصطفى ابن عزوز لإقناع علي بن غذاهم في إيجاد حل سلمي، في حين أن غاية الباي الغدر، وقتل بالسم علي بن غذاهم وهو في ريعان شبابه. وربما نجد هنا أن الشيخ التقي الورع لم يكن له الدهاء السياسي، وأنه ربما لو لم يتوسط في هذه القضية، لكان لابن غذاهم شأن آخر، وشكراً لكم.

* **الأستاذ الحبيب الجنحاتي**[1]:

في الحقيقة، نظراً لما استمعت إليه، وخاصة في النقاش، حرصت على أن أسهم إسهاماً متواضعاً.

وقعت إشارة في كلام الأستاذ محمد مواعدة عن قضية تصنيف فكر الشيخ محمد الخضر حسين ضمن مفهوم الإصلاح.

أولاً: من المعروف أن الحركات الإصلاحية التي عرفها المجتمع العربي الإسلامي، وخاصة في منتصف القرن التاسع عشر إلى ما بعد ذلك: أن هذه

---

(١) باحث وكاتب وأستاذ في الجامعة التونسية.

الحركات مرت بمراحل وتيارات مختلفة، ويمكن تصنيفها بأكثر من تيار.

ثم نجد ضمن التيار الواحد من روّاده خصوصيات، وهذا الرائد ضمن تيار معين يتغير موقفه من هذه القضية، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، ومنها: شخص محمد عبده، كانت له علاقات مع الأفغاني، ثم أصدروا «العروة الوثقى»، ثم اختلف معه في الرأي.

بالنسبة للشيخ الخضر حسين، أعتقد ـ أيضاً ـ أن فكره الإصلاحي مرَّ بمراحل مختلفة، وليس هنا المجال للحديث عن هذه المراحل، المهم في هذا تفاعله، خاصة وأنه عاش في بيئات ثقافية وسياسية متنوعة، كيف أثرت هذه البيئات في تحوله الفكري الإصلاحي، ومواقفه الإصلاحية والسياسية.

مثلاً عندما نأخذ المرحلة السورية، هناك بدأ تيار واضح في قضية العروبة، وموقفه من السلطة العثمانية، ونجده في بعض الأحيان تحدث عن هذه العروبة، هل هو تحوّل؟

ما أريد أن أصل إليه، هو: المهم تنزيل هذه المراحل المختلفة في سياقها التاريخي؛ لأن هناك ـ أيضاً ـ فترة مهمة، هي قضية رحلته من إستنبول إلى ألمانيا، وانضمامه إلى حركة أصبحت تظهر الآن حولها الوثائق، وليس فقط مجهود أفراد، وإنما حركة تمثل تياراً يستغل ظروف الحرب العالمية الأولى؛ ليخدم القضايا الوطنية في المغرب العربي والعالم الإسلامي، وهناك علاقته المتينة مع أنور باشا.

وأختم بهذه الملاحظة: بأنه إلى جانب الدراسات المعروفة، ولاسيما الدراسات الأخيرة التي خرجت بالألمانية، وبعضٌ منها مذكرات ممن عرفوا بالقرب في برلين الشيخَ الخضر حسين، وليست مذكرات أنور باشا فقط، فهذه

الكتب معروفة نسبياً، الجديد هو الوثائق الألمانية الأصلية الرسمية؛ لأنه من حسن الحظ أن الوثائق الأصلية في برلين، والذين ترددوا على الشيخ الخضر، هذه الوثائق منعتها الحرب الثانية، موجودة، وأهم ما في هذه الوثائق هي: المراسلات من سفير ألمانيا في إستنبول إلى الخارجية الألمانية في برلين، وكثير من هذه الوثائق تحدثت عن هؤلاء الأشخاص، كيف نتعامل معهم؟ ما هي أهدافهم؟ هل هي متناقضة مع مصلحة ألمانيا؟ كل هذه التفاصيل أصبحت ـ والحمد لله ـ متوفرة بالنسبة للدارسين في المستقبل لهذه القضية. وشكراً.

*** الأستاذ محمد قويدري[1]:**

شكراً للجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي على دعوتنا للمشاركة في هذه الندوة الهامة، وفي هذا اللقاء. عندي عدة ملاحظات:

أولاً: ذكر الأستاذ علي الرضا الحسيني: أن الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ عندما كان في دمشق، كان له اتصال مع تونس والجزائر.

أقول: وكذلك لم ينس الشيخ الخضر الجزائر عندما كان في تونس، فكان له اتصالات وزيارات ورحلات كتبها في مجلة «السعادة العظمى»، فهو قلبه دائماً على تونس، وعلى الجزائر، وعلى الأمة العربية والإسلامية ـ رحمه الله ـ.

ثانياً: إن والدة الشيخ الخضر حسين السيدة حليمة السعدية هي بنت

---

(١) باحث ومستشار في المحكمة العليا بالجزائر.

سيدي مصطفى بن عزوز، وجدته السيدة (للا دخَّة) أخت سيدي مصطفى بن عزوز، والدة سيدي الحسين، وزوجة جده سيدي علي بن عمر؛ أي: إن الشيخ مصطفى خاله وجده من جهة الأم، فجدّه عزوزي، ووالدته عزوزية ـ رحمه الله ـ.

ثالثاً: أحب أن أقول عن الطريقة الرحمانية: إنها تختلف عن الطرق الأخرى، القادرية والتيجانية يقدمون الرجل، والطريقة الرحمانية يقدمون الرجال والنساء، ومنهن من تولى شيخ الطريقة الرحمانية، وزينب البتول في زاوية الهامل تولت مشيخة الزاوية بعد وفاة والدها، وهي أول شيخة تحكم الزاوية في الجزائر، وسميت البتول؛ لصلاحها وتقواها.

رابعاً: إن الشيخ مصطفى بن عزوز دخل تونس سنة ١٨٣٧، وأقام زاويته الشهيرة بنفطة لنشر الطريقة الرحمانية، ولتكون موئلاً وملجأً للثوار المجاهدين الجزائريين. وقامت هذه الزاوية بتقديم خدمات جليلة في نشر الطريقة والجهاد الوطني. والسلام.

* **الأستاذ المنجي الشملي**[١]:

أتيت إلى هنا؛ تقديراً واعتزازاً بمحمد الخضر حسين، وتقديراً لأهل «نفطة»، والجزائر، والعرب جميعاً.

القضية، هي قضية شخصية العلامة محمد الخضر حسين، ولكن كنت أود في التدخل بالمرحلة التونسية، لكن لماذا ترك تونس؟ يجب أن نحلّل، لِمَ؟

---

(١) أستاذ في الجامعة التونسية، وباحث ومحقق.

عندما غادر الشيخ الخضر حسين تونس كان محروماً مقهوراً، هي قضيته، لما تقدم وشارك في امتحان الطبقة الأولى في الزيتونة، ولم ينصف؟

ثم مسألة أخرى وأخيرة، هي المرحلة الألمانية، وبعد صدور الوثائق الألمانية يجب أن ندرسها درساً هادئاً وموضوعياً. وشكراً.

*** الأستاذ أنور بن خليفة[1]:**

لقد بحثت في تفسير الإمام محمد الخضر حسين للقرآن الكريم، وأعتبره في نهاية البحث شيخي وإمامي ووالدي؛ لأني صراحة عشت معه مرحلة طويلة جعلتني وإياه في روح واحدة.

سؤالي موجه إلى الأستاذ محمد مواعدة: في خدمة هذه الشخصية العظيمة غيّبت بكتابك موضوعاً هاماً، وهو تفسيره للقرآن الكريم برغم أهمية هذا الموضوع؟

*** الأستاذ شمام:**

لست مؤرخاً، وإنما أهتم بحضارتنا، عندما استمعت إلى ما قيل حول شخصية الشيخ الخضر، تبادر إلى ذهني شخصية أخرى تشترك مع الشيخ الخضر حسين في اهتماماته وجذوره، أعني بذلك: شخصية اهتمت بالإصلاح والسياسة، وعانت كذلك من المطاردة والنفي.

لماذا لم نذكر هذه الشخصية؟ وهو عبد العزيز الثعالبي.

سؤالي هو الآتي: هل للشيخ الخضر علاقة بهذه الشخصية، هل كانا يتصلان ببعضهما في الخارج والداخل؟ والسلام.

---

(١) أستاذ في معاهد الجامعة الزيتونة، وباحث ومحقق.

*** مداخلات أخرى من الحضور:**

- عندي اقتراح، هذا الاقتراح يتعلق بحياة الشيخ، وباعتبار أن حياته مليئة بالأحداث، وأن لنا دراسات مستفيضة عن فكره ونضاله السياسي، لماذا لا تكون هذه الدراسات ضمن إنتاج تلفزي كما هو الحال في الشرق يكرمون علماءهم؟

- المداخلات التي تمت وتناولت هذه الشخصية الجديرة بالاهتمام، مداخلات جيدة بالنسبة لما ذكره الأستاذ علي الرضا الحسيني، ما هي الأسباب الوجيهة التي أدت إلى محاكمة الشيخ أمام المحكمة العرفية بدمشق أيام جمال باشا؟

- وغيرها من المداخلات التي تتضمنها إجابة المحاضرين عليها.

*** تعقيب المحاضر الأستاذ محمد مواعدة:**

أيها الإخوة والأخوات!

جواباً على الأسئلة والتساؤلات التي طرحت:

- حقيقة هذه الجلسة اليوم هي بداية الجلسات العلمية، أعطت الندوة البعد الحقيقي العميق.

نقول بكل صراحة: في بعض الندوات، تقع الجلسة الافتتاحية فقط، بعد الافتتاح تنطلق الأمور عادية، ولكن هذه الندوة أخذت أبعاداً علمية جادة بفضل الأساتذة والمحاضرين والمشاركين الذين أبدوا اهتماماً خاصاً بهذه الشخصية، شخصية محمد الخضر حسين بكافة وجوهها الإصلاحية والأدبية والنضالية.

- أقول بصراحة - أيضاً -: إنه ترددنا كثيراً في مكان تنظيم الندوة،

في تونس العاصمة، أم في نفطة؟ ولكن جميع الأساتذة والمهتمين بهذا العلامة أكدوا أن تنعقد في «نفطة»، والإخوة في (الجمعية التونسية للبحوث والدراسات حول التراث الفكري التونسي) قالوا: لابدَّ أن تنعقد في «نفطة» لسبب أساسي، هو: أهمية تنظيم هذه الندوة من حيث الهوية الوطنية الحضارية، برغم أنه كان هناك اتجاه أن تنعقد في تونس.

هذه الشخصيات الهامة هي ركائز موجودة في مكان ما، ولكل بلد له وضعه ومكانته: ابن الشباط في «توزر»، الحبيب بورقيبة في «المنستير»، وغيرهم. هذه الشخصيات هي ركائز حضارية تؤكد تثبيت الهوية الوطنية في الأماكن التي ولدت فيها.

- بالنسبة للمرحلة التركية، والمرحلة الألمانية للشيخ. أنا قلت في كتابي ملاحظة إن هذه الشخصية لها جوانب متعددة تستحق الدرس والتحليل، وفي الطبعة الأولى لكتابي أشرت إلى العديد من الأمور التي تحتاج إلى بحث واستقصاء توضيح.

وهناك مساعٍ جادة للتوصل إلى وثائق الخارجية الألمانية والتركية، ووزارة الحرب التركية والألمانية؛ للتمكن منها، وسأتناول في الطبعة الثانية من كتابي هاتين المسألتين الهامتين، وهما مرحلتان سياسيتان، بالإضافة إلى العديد من الأسئلة التي مازالت تطرح في سيرة الرجل، وتحتاج إلى جواب.

- بخصوص وساطة الشيخ مصطفى بن عزوز بين الباي وابن غذاهم، فإن الشيخ تدخل بصفة دينية وعلمية، وبالإضافة لذلك: مكانته لدى السلطة الحاكمة في عهده، وخاصة لدى الباي محمد الصادق، ولو لا ما كان يتمتع به

شيخ الطريقة الرحمانية من تقدير وإكبار من قبل الجانبين المتنازعين، لما نجحت هذه الوساطة، أما ما نتج عن هذه الوساطة، فالواقع يحتاج الموضوع إلى التوسع في البحث والدراسة لنصل إلى الحقيقة، هذا يحتاج إلى ندوة في المستقبل.

ـ رداً على الأستاذ ابن خليفة، فإن كتابي قد استوفى كل ناحية من حياة الشيخ الخضر، وإذا قرأ كتابي بإمعان، فسيجد أني أوليت مكانة القرآن الكريم في حياة الشيخ مكانها الأول، وقد أبرزت في الكتاب البيئةَ التي عاش خلالها الشيخ في نفطة، وقلت: إن عدداً كبيراً من الجوامع والمساجد يتجاوز الأربعين كانت كلها مواطن عِلْم يُتلى فيها كتاب الله، وتلقى فيها دروس الفقه والحديث واللغة والأدب.

وقلت بشكل واضح: إن الشيخ محمد الخضر حسين تربى في هذه البيئة العلمية الثقافية، وما يحيط بها من ورع ديني، وحفظ القرآن الكريم على مؤدبه الخاص الشيخ عبد الحفيظ اللموشي.

ثم إن الشيخ الخضر هو ابن زاوية عاش فيها، وتعلم في صغره العلوم الدينية واللغوية، بما في ذلك تفسير القرآن الكريم، وهذا واضح في كتابي.

ـ إن هذه الندوة ستتبعها ندوات، وستتناول بشكل دقيق كل المواضيع التي طرحها الإخوة المتداخلون، والجواب على كافة التساؤلات التي مازالت حتى اليوم على الألسنة.

وهذه الندوة لا يمكن أن تلمّ بكل ما يتعلق بشخصية متعددة المواهب والكفاءات، مثل شخصية الشيخ محمد الخضر حسين، والندوات القادمة

سوف تبين كل ما يمكن السؤال عنه.

ـ بالنسبة للعلاقة بين الشيخ الخضر حسين والشيخ الثعالبي لم تكن قائمة، هذا باختصار شديد، وهذه معلوماتي الخاصة، وهذه قضية تحتاج إلى بيانها، والأسباب التي كانت في تلك الفترة، والتي أدت إلى هذا الأمر.

ـ لماذا غادر الشيخ محمد الخضر حسين تونس؟ هذه الأسباب أوضحتها في كتابي «محمد الخضر حسين حياته وآثاره»، وفي الطبعة الجديدة سأتناولها بتفاصيل أكثر.

هناك ثلاثة أسباب أساسية:

السبب الأول: هي الطريقة التي عومل بها الشيخ من قبل علماء الزيتونة عندما تقدم للمناظرة للطبقة الأولى من المدرسين... هذه القضية طرحتها مع الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وقال لي: إن الشيخ الخضر لم يجد حقه.

والسبب الثاني: القضية السياسية.

والسبب الثالث: وجود عائلته بدمشق؛ لأنه ذهب إلى دمشق مرتين، ذهب في المرة الأولى برحلة إلى بلاد الشام كما يقول الشيخ: «إن الباعث هو زيارة الأهل وفاء بحق صلة الرحم» في جويلية ١٩١٢م، ثم عاد إلى تونس يوم ٢٤ نوفمبر ١٩١٢م، ومن ثم قرر العودة إلى الشرق، والاستقرار مع إخوته بدمشق، ورأى: «أن القيام بحق الإسلام يستدعي مجالاً واسعاً، وسماء صافية»، وتم ذلك خلال شهر ديسمبر ١٩١٢م.

ـ بخصوص البحوث والدراسات حول الشيخ محمد الخضر حسين، هناك عدة دراسات حوله، وهناك في الجامعة التونسية توجهات حول هذا

الموضوع، بعد أن توفرت مؤلفاته التي كانت نادرة، ونأمل المزيد من دراسة هذه الشخصية وتحليلها والتعريف بها، والاستفادة من آرائها في كافة المجالات العلمية التي يتناولها الشيخ.

ـ إن هذه الندوة ليست للتعريف فقط بالشيخ، إنما هي للدراسة والتحليل، والبحث في علومه وآثاره، إن هذه الشخصية عظيمة، صامدة، لها أبعاد متعددة، وكما قلت في كتابي: هو الرجل العالم، والأديب، واللغوي، والمصلح، والسياسي، ومع ذلك عندما ستعقد الندوات عن الشيخ الخضر مستقبلاً ستتناول هذه الشخصية وفق تلك الصفات. وشكراً.

* **تعقيب المحاضر علي الرضا الحسيني:**

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك نقاط هامة تساءل عنها المتداخلون والحضور الكرام، أحببت أن أوضحها باختصار:

ـ أرى أنه من الواجب تجاه الشيخ الإمام محمد الخضر حسين أن لا نفسر أمراً من أموره بأكثر مما يستحق من التفسير؛ لأن تفسير الأمر يتعلق حسب زمانه ومكانه، والشيخ في حياته المباركة من «نفطة» إلى مشيخة الأزهر في القاهرة لم يكن غامضاً، ولم يكن ذا وجهين، ولم يكن في السر ما لم يكن في العلن، فإن صلته بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، وإيمانه القوي برسالة الإسلام، فتح له الطريق واضحة لا عوج فيها، على هذا المبدأ يجب أن نفهم الشيخ، ونقرأه، وندرسه، ونحلله.

ـ لماذا لم يتعامل مع المجاهدين العظيمين: إسماعيل الصفايحي، وصالح الشريف بدمشق؟

سبق وأن قلت: إنه لاشك ولا ريب عند كل منصف: أن الإمام محمد الخضر حسين، والمجاهد الشيخ صالح الشريف، والعلامة المناضل الشيخ إسماعيل الصفايحي، هؤلاء الأبطال الثلاثة تونسيو الولادة، زيتونيون تعلماً وثقافة، إسلاميون نضالاً وفكراً ودعوة.

لم يجتمع الإمام الخضر حسين بالشيخين في دمشق؛ لأن الشيخ الخضر قدم دمشق سنة ١٩١٢م، وقد سبقه الشيخان بمدة، فالشيخ صالح الشريف غادر تونس ١٩٠٦م، وعاش مدة سنتين في دمشق، وكان له شأن عظيم لا مجال لذكره في هذه العجالة، ثم سافر إلى تركيا، أما الشيخ إسماعيل الصفايحي، فقد توجه إلى الشرق سنة (١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م)، وأقام مدة قصيرة في دمشق، وانتقل إلى تركيا.

فالشيخان سبقا الشيخ الخضر إلى دمشق، وغادراها قبل قدومه، وهذا سبب عدم تعامله معهما في دمشق، وكان تعامله ولقاؤه بهما لأول مرة في إستنبول سنة ١٩١٥، أو ١٩١٦م) ثم كان كفاحهم المشهود له في برلين. وهذا يحتاج إلى متسع من الوقت للإفاضة، وما أكثرَ ما في الجعبة من تلك المشاهد الرائعة!

ـ لماذا لم يحارب الشيخ الخضر الاستعمار الفرنسي الذي فرَّ منه في تونس، لماذا لم يحاربه بدمشق؟

إن حياة الشيخ الخضر ـ منذ مغادرته تونس وحتى آخر حياته الشريفة ـ كلها نضال وكفاح، ولتونس القسم الأكبر من هذا النشاط.

لقد حارب الشيخ الخضر فرنسا في كافة الميادين، بدمشق، وألمانيا، ومصر. وبالرجوع إلى نشاطه في برلين، وقيامه بتحريض الجنود المغاربة

في الجيش الفرنسي للفرار من الجبهة الألمانية ـ الفرنسية، وانضمامهم إلى جيش وطني يعمل على تحرير تونس والمغرب من الاحتلال الفرنسي الغاشم. وما حكمُ الإعدام الذي أصدرته فرنسا، ومصادرةُ أملاكه إلا الدليل القوي على أثر محاربته ونضاله ضد فرنسا عند المحتل الفرنسي. وآمل من السائل أن يرجع بإمعان إلى تاريخ الشيخ؛ ليجد الجواب الكافي والشافي.

ـ لماذا اتصل بالتونسيين، ولم يتصل بالجزائريين؟

لا أدري ماذا يقصد الأخ السائل؟ هل يقصد اتصاله بالتونسيين والجزائريين في دمشق؟ أم مراسلة بعض التونسيين والجزائريين من دمشق؟

للشيخ اتصالات واسعة بدمشق مع كل من أبناء تونس والجزائر، ولمزيد من الإيضاح هنا أشير أن أبناء المغرب العربي من المغرب إلى الجزائر وتونس وليبيا هم في عرف السوريين مغاربة، لا فرق بين هذا وذلك ـ أقول هذا بصدق لا عن عاطفة ـ، وكان اتصاله بهم مستمراً ومتيناً، حتى إن حي المغاربة في مدينة دمشق، وفي منطقة تسمى: «السويقة» حي كبير يضم كافة أبناء المغرب دون تفريق.

أما مراسلاته من دمشق مع المغاربة، فلاشك أنها كانت قائمة، ولا ندري حجمها، أما مراسلاته خاصة مع التونسيين، فقد اتصل بشخصين ـ حسب ما وقع تحت يدي من رسائله ـ هما: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الصديق والأخ الوفي، والشيخ محمد الصادق النيفر، برسائل عاطفية، ولم يتدخل فيهما بالسياسة.

إن المهام العظام التي يحمل الشيخ رسالتها لم تسمح له بالمراسلات الكثيرة التي لا طائل منها إلا بث الشوق. فقد كان الشيخ وقتُه مليئاً بالأعمال،

وحتى الشيخ محيي الدين القليبي ـ رحمه الله ـ يتحدث عن يوم في حياة الشيخ، إذا قرأناه، نستغرب هذه الطاقة الإيمانية عند الشيخ، فهو يخرج من داره بعد صلاة الفجر . . . وتبدأ أعماله، ولا أريد أن أطيل هنا، ولعلها في مناسبات أخرى.

ـ يسأل الأستاذ عن الصلة بين الشيخ الخضر حسين والشيخ الثعالبي، وهل كانا يتصلان بالداخل والخارج؟

لم تكن هناك علاقة قائمة بين الشيخين، أما عن الأسباب، فالله أعلم بذلك، إلا أنني لم أجد في كافة كتبه وأوراقه الخاصة التي حصلتُ عليها كلمةً واحدة عن الشيخ الثعالبي، ومن طبيعة الشيخ الخضر لا يرغب في عمل حزازات شخصية مع أي شخص كان، أما إذا كان الأمر يتعلق بعظمة الإسلام ـ كالرد على طه حسين، وعلي عبد الرازق وغيرهما ـ، فلن يقف صامتاً، بل يغضب لله، ويقول حقاً.

ـ لم تقم أية صلة بينه وبين الشيخ محمد عبده، ولا علم لي بالسبب، ولم أجد في أوراقه وكتبه ما يتعلق بهذا الأمر.

ـ الشيخ الخضر من دعاة الوحدة الإسلامية، وله في هذا الميدان بحوث ومقالات عديدة، وقد انتقد رجال الخلافة الإسلامية؛ لما شاهده من ضعف ووهن في نظامها، ولكنه كان من دعاة التقاء المسلمين ووحدتهم؛ لما في ذلك من قوة للإسلام.

ـ دعوته إلى الإصلاح من أولى مبادئه وعقيدته، وإن مؤلفاته مليئة بالبحوث التي تدعو إلى الإصلاح في كافة ميادين الحياة، الدينية والاجتماعية والأدبية، وأول كتاب نشر في تونس: «الدعوة إلى الإصلاح»، وهو ـ على

صغر حجمه ـ يمثل مدرسة في الإصلاح، وفي القاهرة أصدر كتابه: «رسائل الإصلاح».

إن مواضيع الإصلاح واضحة في مؤلفاته، ولا تحتاج إلى عناء للوصول إليها.

ـ لماذا ترك تونس؟

سؤال يتناقله الكثير من الباحثين، ويفردون له التحاليل والظنون، وأنا أرى من خلال دراستي لحياة الشيخ، وطموحه في خدمة الإسلام: أنه ليس هناك غرابة، صحيح أن ما ناله من شيوخ الزيتونة من أذى، هذا سبب، ولا أعتقد أنه السبب الأهم؛ لأن الشيخ فوق هذا التفكير. ولعل السبب المهم في الدرجة الأولى: رغبته في الانتقال إلى ميدان أوسع للنضال والكفاح، والإصلاح والعمل السياسي، فأتى إلى سورية، ووجد فيها مبتغاه، يضاف إلى هذين السببين: وجود عائلته في دمشق.

ـ أما اعتقاله في دمشق في عهد جمال باشا؟

من سجل الإمام المتعلق بجهاده الإسلامي اعتقاله في دمشق في (شهر رمضان ١٣٣٤هـ ـ ١٥ أوت ١٩١٦م) لمدة ستة أشهر وعشرة أيام، وجرت محاكمته أمام المجلس العرفي العسكري، وطلب المدعي العام عقوبة الإعدام، والتهمة: أنه حضر في مجلس خاض فيه أحدُ المحامين اللبنانيين في سياسة الدولة، وسعى إلى تأسيس جمعية تدعو إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، وقد استفتي الشيخ في هذا، ورأت إدارة البوليس أنه مسؤول عن عدم إبلاغ الحكومة في حينه، وحكم المجلس العرفي بالبراءة. ومن رفاقه في السجن: شكري القوتلي الذي شغل منصب رئيس الجمهورية السورية، وفارس الخوري

رئيس وزرائها، وسعدي بك الملا الذي أصبح رئيساً للوزارة اللبنانية، فكان اعتقال الشيخ سياسياً، وقضت المحكمة ببراءته.

ـ أقول في الختام: إن كثيراً من مراحل حياة ومؤلفات وأفكار الشيخ الخضر حسين تحتاج إلى مزيد من الدرس والتحقيق، ولعل الندوات القادمة تنجز هذه الآمال في هذه الشخصية الإسلامية العالمية، والسلام عليكم.





الفكر الإصلاحي ومشاريع التحديث[1]

أيها الزملاء والأصدقاء!

أشكر في البداية المشرفين على تنظيم هذه الندوة، وأشكر الإخوة في (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي).

الدعوة الكريمة للمشاركة في هذه الندوة قد مكنتني من التعرف إلى جوانب جديدة من شخصية محمد الخضر حسين، وهذه الجوانب ذاتها لها علاقة بالفكر الإصلاحي في المجتمع العربي الإسلامي بالمرحلة الحديثة بصفة عامة.

واسمحوا لي ـ قبل الحديث عن الفكر الإصلاحي ومشروعات التحديث ـ أن أبدأ بنقطة تمهيدية.

من حسن الحظ أن مرحلة تراكم الدراسات والبحوث حققت في السنوات الأخيرة في تونس وفي خارجها تقدماً كبيراً، تراكم البحوث والدراسات حول الفكر الإصلاحي بصفة عامة، والفكر الإصلاحي في تونس.

وقد أُنجزت ـ عملياً ـ عن الفكر الإصلاحي التونسي في مراحل مختلفة

---

(١) محاضرة الأستاذ الحبيب الجنحاني، كاتب وباحث وأستاذ في الجامعة التونسية، ألقاها ارتجالاً مستعيناً بأوراق دوّن بها ملاحظاته حول الموضوع.

رسائل جيدة في الحقيقة، البعض منها طبع، وعرفناه، والبعض الآخر بصدد النشر بحول الله.

هذه البحوث الجديدة أضواء جديدة عن شخصيات رواد الإصلاح وعن فكرهم، كما أنه توجد وثائق عرفت في الأعوام الأخيرة فقط، وهنا أذكر مثالاً، وهو: مثال الشخصية المحتفى بها، والتي عقدت هذه الندوة الأولى لدراستها، وأعني: الشيخ الخضر حسين.

إلى جانب النصوص الأصلية، وهي الأساس، وهي المنطلق، النصوص التي رعاها الأستاذ علي الرضا الحسيني مشكوراً بنشرها وتوزيعها، هناك نصوص أخرى تعتبر جديدة، اطلعت على بعضها في بعض الرسائل التي كتبها باحثون ألمان باللغة الألمانية، هذه البحوث تناولت شخصيات متعددة من رواد الحركة الإصلاحية التي عرفتها نصوص الثلث الأول من بداية القرن العشرين، ومنهم: شخصية الشيخ الخضر الحسين.

واعتمدت على مجموعة من مذكرات أشخاص عرفوا مباشرة الشيخ الخضر حسين، منهم: مذكرات أنور باشا، وشكيب أرسلان، ومحمد فريد، ومذكرات بعض الألمان الذين عاشوا ـ أيضاً ـ تلك الفترة، ونشروا مذكراتهم بالألمانية، وفيها ـ أيضاً ـ إشارة إلى هؤلاء الروّاد.

هذا ذكرته كمثال عن المراجع والمصادر والنصوص الجديدة.

وإني أستطيع أن أقول: إن المدونة حول هذه الشخصية التي وقع إثراؤها والإضافة إليها في جوانب مختلفة، سواء كانت رسائل جامعية، أو مذكرات، ولكن أبرز هذه النصوص التي كانت غير معروفة تماماً، ولا أدري بالضبط هل لم يكشف عنها من قبل؛ لأنه في الوثائق الرسمية يسمح بالاطلاع عليها

بعد مرور فترة زمنية معينة. أبرز هذه النصوص هي وثائق وزارة الخارجية الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى، هذه مهمة جداً؛ لأنها تتضمن نشاط التعريف بهؤلاء الأشخاص وغيرهم، ونظرة الألمان لهؤلاء، والحديث مع هؤلاء الساسة.

وأبرز هذه النصوص هي مراسـلات السـفير الألماني في إستنبول إلى وزارة الخارجيـة، أو مراسـلات وزارة الخارجية الألمانية إلى سـفيرها في إستنبول؛ لأخذ معلومات عن هؤلاء الرواد الذين اتصلوا بها، أو وصلوا إلى ألمانيا خلالها، ومجموعة أساسية من هؤلاء الرواد الذين كانوا موجودين، وقاموا بأعمال في ألمانيا، أو في سويسرا، ثم انتقلوا إلى ألمانيا، أبرز مجموعة من العربي الإسلامي هي المجموعة التونسية.

إذن، نذكر بسرعة بعض الأسماء؛ كصالح الشريف، وإسماعيل الصفايحي، والشيخ محمد الخضر حسين، ومحمد باش حانبة، هؤلاء بالأساس، وهناك أسماء في درجة ثانية.

البعض منهم كانوا ضباطاً في الجيـش الفرنسـي، ووقع الاتصال بهم في نطاق الهدف الذي سعوا لتحقيقه من خلال تعاونهم مع ألمانيا في تلك الفترة.

في هذه الملاحظة التي ذكرتها هنا، من الأشياء الجديدة التي لا نعرفها، كشفت عنها الوثائق، هو انتساب هؤلاء أو البعض منهم؛ كالشيخ الخضر إلى تنظيم كان يشرف عليه أنور باشا بالصيغة التركية، وباسم رسمي (تشكيلات مخصوصة) في المراجع الأجنبية يذكرونها بهذه الصفة.

هذه الملاحظة التركية أختمها بملاحظة:

بعد أن توفرت هذه المدونة بأصنافها المتنوعة: رسائل جامعية، ومذكرات، وسائر الدراسات، هذه المدونة توفرت، ووقع إثراؤها خلال عشرين سنة الماضية، الآن المرحلة القادمة، وأعتقد أنه ضمن المرحلة القادمة تندرج الدراسات المستقبلية عن العلامة الشيخ محمد الخضر حسين.

المرحلة القادمة هي القراءة الجديدة لهذه المدونة في ضوء مناهج البحث الجديدة، التي وصلت إليها هذه المناهج الجديدة لدراسة القضايا الاجتماعية والفكرية.

اسمحوا لي أني توقفت عند هذه الملاحظة، ربما تساعد بعض الباحثين الجدد الذين يهتمون بهذه الجوانب.

أصل الآن إلى موضوع الفكر الإصلاحي، وعلاقته بمشروعات التحديث في المجتمع العربي الإسلامي، ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر إلى ما بعد ذلك، إلى المرحلة التي عاشها وناضل من خلالها المرحوم محمد الخضر حسين.

من أبرز دراسة ملامح هذا الفكر الإصلاحي عادة، إلى جانب النصوص، وإلى جانب الصحافة من المراجع التي عدتُ إليها هي: رحلات هؤلاء الروّاد، رحلاتهم إلى أوروبا، يكتشف المرء ـ في نظري ـ في النهاية بعد دراستي لنصوص هذه الرحلات، يشعر أو يلمس في يسر هذه الرحلات، كتبوا هذه الرحلات وهم هادفون، كتبوها عن وعي، ليست مجرد تسجيل رحلات.

نأخذ ـ مثلاً ـ رحلة الطهطاوي «تخليص الابريز» في رحلته إلى باريز، أو «أقوم المسالك» لخير الدين، أو ما كتبه الشيخ أحمد بن أبي ضياف في رحلته مع أحمد باي إلى فرنسا سنة ١٨٤٦م، أو فارس شدياق في كتابه

«المخبى»، أو بيرم الخامس، أو محمد السنوسي، إلى آخر هؤلاء.

هؤلاء من كبار الرواد في الفكر الإصلاحي العربي والإسلامي. تشعر ـ في النهاية ـ أنهم كتبوا ذلك عن هدف، وأرادوا من خلال الرحلة، ومن نصوص الرحلة أن ينقلوا إلى مجتمعاتهم وإلى شعوبهم صورة التقدم في أوروبا، فليس من الصدفة أن يتحدثوا عن الدساتير، وعن أنواع السلطة، وعن عمل البرلمان، وكيف أن البرلمان في فرنسا ـ مثلاً ـ، أو في أوربا يقوم بعملية المحاسبة، ويستعمل المفهوم التقليدي الحسبة، وكيف أنهم يستطيعون أن يحاسبوا الحكومة، ويسحبوا منها الثقة، كل هذه القضايا للفت النظر إليها في بلدانهم وفي شعوبهم، ثم إلى جانب ذلك هناك جوانب أخرى في الحقيقة، وبكل وضوح، أبرز هذه الأفكار الإصلاحية لم يعالجوها مباشرة، وإنما تحدثوا عنها هادفين.

لما نريد أن نحوصل ونلخص أبرز هذه التيارات. أنا عادة أصنفها إلى ثلاثة تيارات:

التيار الأول: هو التيار الذي يهدف إلى تجديد الفكر الديني، وإلى نشر التعليم والتربية؛ باعتبار أن نشر التعليم والتربية هو خطوة أساسية أولى في نشر الوعي والتقدم، والخروج من التخلف بصفة عامة.

وهنا تندرج مساعي محمد الخضر حسين، وصديقه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ضمن هذا التيار.

وكذا ألمحتُ أمسِ بسرعة، نجد أن التيار الواحد الكبير نجد ملامح مختلفة؛ لأن أحد المصلحين ـ مثلاً ـ هو نفسه مرَّ من مرحلة إلى مرحلة ثانية. وهذا معروف في التاريخ، الشيخ محمد عبده في المرحلة الأولى كان

ينتسب إلى التيار الذي نتحدث عنه، ولما تخالف مع أستاذه الأفغاني، أصبح ينتسب إلى هذا التيار الأول: نشر التعليم والتربية، وابتعد عن السياسة والعمل السياسي.

التيار الثاني: يرى أنه لا يمكن التفكير في التحديث والحداثة والتقدم قبل إنجاز مرحلة الإصلاح السياسي، وقسم من هؤلاء سعى هذا المسعى التحديثي من داخل السلطة.

وليس من الصدفة أن أبرز تيارات الفكر الإصلاحي في المجتمع العربي الإسلامي في تلك الفترة انطلقت من عدة مراكز: إستنبول عاصمة الخلافة، ومصر وتونس؛ لأن مشروعات التحديث البارزة في هذه البلدان الثلاثة انطلقت من داخل السلطة: محاولات مدحت باشا بالباب العالي، الطهطاوي وعلاقته مع محمد علي في مصر، ثم خير الدين في تونس.

وأبرز نقطة يمكن أن نلمح الآن إليها بسرعة في هذا: الفكرة التحديثية من داخل السلطة. أبرز نقطة ـ في رأيي الشخصي ـ أن هذه المحاولات الثلاث للإصلاح من داخل السلطة من رجال يباشرون السلطة، الصدر الأعظم أو الوزير الأكبر في تونس، وشخص أكبر من الوزير، في النهاية اكتشفوا أنه لا إمكان لمشاريع تحديثية تقدمية ضمن سلطة استبدادية، وأبرز من تفطن إلى هذا هو خير الدين، ولذا أنا طرحت هذا السؤال وتساءلت في أحد النصوص التي نشرتها: هل كان أنصار الفئة الثانية مدركين أنه لا يمكن أن يتحقق التقدم، وأن تؤتي الإصلاحات التحديثية أُكلها في ظل نظم سلطوية استبدادية، وأن الحل يبدأ بالإصلاح السياسي كما تفطن إلى ذلك خير الدين حكيم السياسة ـ كما كان يسميه الطهطاوي ـ؛ لأنه في ممارسة السلطة تفطنوا إلى هذا التناقض الكبير؟ غير أن خير الدين وجد نفسه أن ذلك غير ممكن في ظل السلطة

الاستبدادية سلطة البايات، مدحت باشا مع السلطان عبد الحميد، نفس القصة في مصر مع محمد علي وابنه إبراهيم باشا. . . إلى آخره.

وهنا نجد صنفاً آخر ضمن هذا التيار الذي ذكر أنه لا يمكن أن يتقدم المجتمع العربي الإسلامي، وأن تتحقق مشاريع التحديث بدون إصلاح سياسي، لكنه كان خارج السلطة؛ بحيث هو يلتقي مع التيار الآخر، ولكن التيار الثاني يقول: يمكن أن يحقق من داخل السلطة، والصنف الآخر يقول: لا يمكن أن يتم ذلك، ومنهم: الأفغاني، وولي الدين يكن، وسليم سركيس، وهؤلاء لقوا عنفاً شديداً، ومتابعة واضطهاداً من طرف السلطة القائمة يومئذ.

أصلُ الآن إلى التيار الثالث، وأختم هنا مع ملاحظة أساسية، سواء كانوا أنصار التيار الأول التجديدي الديني البحت، أو التيار الثاني الذي انتبه إلى الإشكالية السياسية دائماً مع الهاجس الكبير أو مشاريع التحديث، الاقتداء بالنموذج الغربي، لكن دوماً مع التوفيق مع الشريعة الإسلامية، يسمونها: الاقتباس والتوفيق مع الشريعة الإسلامية.

التيار الثالث يختلف، ولكن هو أبعد من التيارين السابقين، ولكنه يؤمن بضرورة الإصلاح الفكري والسياسي، والإفادة من الجوانب المضيئة المشرقة في التراث العربي الإسلامي في مرحلة معينة. الوضع يقتضي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الإفادة من هذه الجوانب، الجوانب المشرقة المضيئة، ليست القضية شغلهم الشاغل التوفيق مع الشريعة، لا، وهذا التيار فيهم من المسلمين، وفيهم من غير المسلمين. بل بالعكس، إنهم يرون ـ بعد ذلك ـ أنه يجب القطيعة مع التراث، من أبرزهم: شبلي شميل، وحنتور. وحنتور يستشهد بابن رشد، ولكن يقول: أرجو أن يأتي يوم وننسى ابن رشد، وهؤلاء

على أساس يصبح التفكير حداثياً بحتاً.

وأنا حريص أن أقف عند شخص في خاتمة هذه الكلمة، ولماذا هذا الوقوف؟ لأن هذا الشخص من الجيل الذي سبق الخضر حسين، وتوفي في السنة التي وُلِد فيها الخضر حسين، وهو أحمد بن أبي ضياف، هذا الزيتوني المعمم في رحلته التي كتبها، ورافق فيها أحمد باي تفطن ـ أيضاً ـ، وهو طبعاً من الزمرة الأولى. خير الدين تفطن ـ أيضاً ـ إلى أن مشروعات التحديث، والتي تزعمها صديقه أحمد باي: أنه لا يمكن أن تصل إلى نتائج في ظل سلطة استبدادية، وهي سلطة البايات.

فخرج يوماً مع أحمد باي في شارع الشانزليزيه خارج البرنامج الرسمي، وقال له أحمد باي: ما أشوقَني إلى الدخول في تونس من باب عليوه، وأشتم رائحة داخله. فقلت له مداعباً: وأنا أتنفس في هواء الحرية، وأرد من مائها، وأقف على أرضها، قلت له: يحق لك ذلك؛ لأنك إذا دخلت من هذا الباب، تفعل ما تشاء، أما الآن، فأنت واحد من الناس، فقال له: سامحك الله، ولماذا لا تحملني على حب الوطن وأهله، فقلت له: إن هذا البلد يُنسي الوطن، وكما قال الشاعر:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن نزيلَهم ... يُعاب بنسيانِ الأحبةِ والأهلِ

إذن، أصبحت الحرية التي شاهدها الزيتوني المعمَّم تتجاوز الحدود الجغرافية.

اذكر هذا؛ لأنه يندرج ضمن التيار الذي واصله بعد ذلك الشيخ الخضر حسين.

ومع الشكر على اجتماعي بكم.

الإصلاح التربوي في فكر الإمام العلامة محمد الخضر حسين[1]

أيها السيدات والسادة!

جاء في مقال الأستاذ محمد مواعدة، الذي صدر بجريدة «الصباح» يوم الأحد في ٢٤ فيفري ٢٠٠٨م (محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق): أن هذا العَلَم الإسلامي المتميز كان منشغلاً في الميدان التربوي بإصلاح التعليم الزيتوني منذ حياته الطلابية، وبعد تخرجه من الجامع الأعظم كان من بين شيوخ الزيتونة، وعلمائها العاملين على تطوير التعليم مضموناً ومنهجاً.

هذه الإشارات التي أتى بها تدل على المكانة التي حازتها القضية التربوية لدى عالِمنا الشيخ محمد الخضر حسين.

ومع ذلك، لا يمكن الادعاء بأنه كان صاحب نظريات، أو صاحب مدرسة في هذا المجال، وإنما نجد في مختلف كتاباته بذوراً للإصلاح التربوي، وخاصة في مجال التعليم؛ لأن التربية لا تقتصر على التعليم فقط.

وأفكاره التربوية الإصلاحية مبثوثة هنا وهناك في مؤلفاته... تارة في شكل فصول كاملة، وطوراً في شكل فقرات تتخلل مشهداً إصلاحياً عاماً.

---

(١) مختصر محاضرة الدكتور مصدق الجليدي، باحث في مشاريع الحضارة والتربية، ودكتور في علوم التربية.

وسنعتمد بدراسة الفكر التربوي للشيخ محمد الخضر حسين على المدونة التالية:

١ ـ «رسائل الإصلاح».

٢ ـ «الدعوة إلى الإصلاح».

٣ ـ «تونس وجامع الزيتونة».

٤ ـ «الرحلات».

٥ ـ مجلة «الهداية الإسلامية» الجزء ١٠ و١١ من المجلد التاسع، والجزء الثاني من المجلد الثالث عشر.

٦ ـ مجلة «السعادة العظمى» العدد ٧.

للشيخ محمد الخضر حسين مجالان أساسيان في الإصلاح التربوي، وكلاهما يتبع المجال الديني، وهما: الإصلاح التربوي الأخلاقي، والإصلاح التربوي العقلي.

نقد الشيخ محمد الخضر حسين التعليم الديني على عهده تحت عنوان: (عيوب التعليم الديني الحاضر).

في نظر الشيخ الخضر، المثالبُ والنقائص التالية في التعليم على عهده بمصر: ـ وأكتفي بأن أقرأ عناوين هذه النقائص ـ

١ ـ ضآلة المحتوى في التعليم الديني.

٢ ـ عدم اعتبار المادة الإسلامية مادة أساسية.

٣ ـ سوء العناية بمادة القرآن الكريم.

٤ ـ عدم الاهتمام بالسيرة النبوية، وبالتاريخ الإسلامي.

٥ ـ الاقتصار بالتعليم الديني على الأحداث دون الكبار.

٦ ـ التساهل مع المقصرين بأداء الواجبات الدينية، والمخالفين لمكارم الأخلاق.

٧ ـ حصر التعليم الديني بالأزهر، وفي المعاهد الدينية.

٨ ـ نقده الطرق البيداغوجية التقليدية المعتمدة على نظام العقوبات البدنية القاسية. وهذه نتوقف عندها قليلاً من خلال ما رواه الشيخ في كتابه «الرحلات» مما شاهده بنفسه عند أحد الشيوخ التقليديين، فيقول:

«ذهبت إلى الجامع الأزهر لأذان العصر، وانتدبت للتحية مكاناً بين مجتمعين لتعليم القرآن، فانشق صدري أسفاً لأحد المعلمين، إذ كان لا يضع العصا من يده، ولا يفتر أن يقرع بها جنوب الأطفال وظهورهم بما ملكت يده من قوة.

وربما قفز الصبي آبقاً من وجع الضرب الذي لا يستطيع له صبراً، فيثب في أثره بخطوات سريعة، ويجلده بالمقرعة جلداً قاسياً، حتى قلت لأزهري كان بجنبي: من جلس إزاء هذه المزعجات، فقد ظلم نفسه... وذكرت أني كنت ألقيت خطبة في أدب تعليم الصبيان ببلدة «بنزرت»، حالما كنت قاضياً بها، وأدرجت فيها ما قرره صاحب «المدخل» من الرفق بالصبي، وعدم زيادة المعلم ـ إن اضطر إلى ضربه ـ على ثلاثة أسواط، وتحذيره من اتخاذ آلة الضرب؛ مثل: عصا اللوز اليابس والفلقة، ولما خطبت في هذه الآداب، أرسل لي بعض المعلمين كتاباً على طريق البريد يعترض فيه على نشر هذه الآداب، ويقول: إن هذا مما ينبه قلوب التلامذة للجسارة علينا».

مما يدل على انتقاده للقسوة في التعامل مع الصبيان، وهذا من خلقه، وكذلك مما أخذه عن ابن خلدون في «المقدمة».

* سبل الإصلاح:

يذكر الشيخ محمد الخضر حسين طرقاً خمسة لإصلاح أوضاع التعليم الديني، ففي رأيه:

١ ـ يجب تقرير التعليم الديني مادة أساسية، شأنه شأن بعض اللغات الأجنبية ـ على الأقل ـ.

٢ ـ يجب أن يكون التعليم الديني عاماً يشمل كل دور من أدوار التعليم.

٣ ـ يجب تعديل مناهج التعليم تعديلاً يناسب حال التلاميذ في سنهم وتفكيرهم، وفي نوع دراستهم ومستقبلهم.

٤ ـ يجب أن يكون التعليم عملياً، يحرص على الالتزام بالشعائر الدينية؛ من حيث الأخلاق، والحشمة، وحُسْن الزي، واحترام المعلمين، وغير ذلك.

٥ ـ يجب أن يُعنى بدراسة التاريخ الإسلامي دراسة حية واسعة، تطبع في نفس التلميذ طابعاً لا ينمحي؛ من الاعتزاز بدينه، والاعتداد بأسلافه، والإجلال لأبطال أمته، والطموح إلى ترسم آثار السلف الصالح في التوثب والنهوض، والتشبه بهم في كافة مناحي الحياة الحقة.

٦ ـ وفي كتابه «تونس وجامع الزيتونة» يورد الشيخ الملاحظات والمطالب التالية، وهو الطلب السادس.

يقول: من الملاحظ أن ليس في مواد الامتحان علم الحديث والتفسير، مع أنهما يدرسان في المعهد، ونحن نود أن يكون هذا العلمان في أول

ما يجـري فيه الامتحان، ولو أفضـى الحال إلى مد أجـل الدراسة سنتين أو ثلاثة.

٧ ـ وفي ملاحظة سابعة يقول: لو أن المشايخ النظّار يأخذون بطريقة مناقشـة الطلاب في درس الامتحان، حتى يتضح مقدار فهم الطالب جلياً، ولتكون هـذه المناقشـة من دواعي مواظبتهم على الدروس، وإقبالهـم على ما يقرر الأستاذ؛ ليكونوا من كل ما يلقيه على بيّنة.

كما أنه دعا لتعويد الطلاب على المناقشة والنقد والتمحيص.

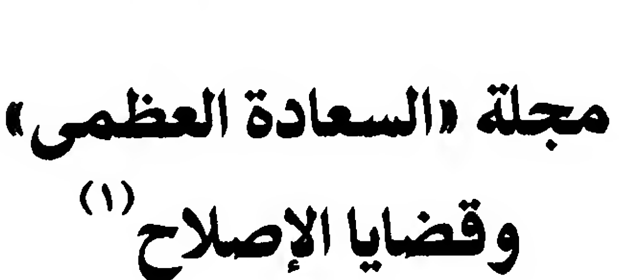
وفي مجلة «السعادة العظمى» يقول: «لا نريد بكراهة هذه الرأفة المفرطة أن يفتك من الصبي سـائر إرادتـه، ويسـلب منـه جميع عزائمه، كما يفعـل الجاهلون بأساليب الإصلاح والتهذيب، إن ذلك مما يحول بينه وبين عزة النفس، وما يتبعها من قوة الجأش، وأصالة الرأي، والإقدام على إرسال كلمة الحق عندما يقتضيها المقام».

لا ريب أن الشيخ محمد الخضر حسين قد أصاب قدراً في مجال الإصلاح التربوي خلال النصف الأول من القرن الماضي، ويظهر ذلك من خلال المعاني التحديثية التي تضمنتها أفكاره وخواطره التربوية. وشكراً.









مجلة «السعادة العظمى» وقضايا الإصلاح[1]

مجلَّة «السعادة العظمى» هي أول مجلَّة عربية في تونس، أسسها الشيخ محمد الخضر حسين في (محرم ١٣٢٢هـ/ أفريل ١٩٠٤م)، وهي (مجلة علمية أدبية إسلامية) تصدر في أول كلّ نصف شهر، انقطعت في (ذي القعدة ١٣٢٢هـ/ جانفي ١٩٠٥م) بعد أن صدر منها واحد وعشرون عدداً.

فما هي ظروف نشأتها؟ وكيف ظهرت فكرة المجلة؟ ولماذا اختير لها هذا الاسْم؟ وما هي الأبواب التي تحتوي عليها؟ وما هي أهدافها؟ وما هو مضمون أبوابها؟.

*** ظروف نشأة المجلة:**

يعود اهتمام التونسيين بالصحافة إلى بداية الحركة الإصلاحية، ومنذ احتكاكهم بالغرب؛ إذ أنهم أدركوا قيمتها، ودورها في التربية والرفع من مستوى الشعب وتوعيته.

وقد أعجب خير الدين بالطباعة والصحافة في البلدان الأوروبية، وكان سياسياً واعياً لرسالة النشر والصحافة، وتأثيرهما في حركة النهضة، لذلك

---

(١) محاضرة الأستاذة نجاة الحامي بو ملاّلة ـ باحثة.

شجَّع الطباعة، واهتم بالصحافة، واعتنى شخصياً بجريدة «الرائد التونسي»، فوجَّهَ مقالتها، وأشرف على سياستها، وتعتبر هذه الجريدة من أقدم الصحف في تاريخ الصحافة العربية على الإطلاق.

وقد عدَّت حركة الطباعة وميلاد الصحافة التونسية من أبرز معالم النهضة الثقافية في عهد خير الدين، وكان لهما تأثير قوي في الحركة الأدبية وتجديد اللغة، ولكن برغم هذا الوعي بدور الصحافة، فإننا نجد عدد الصحف محدوداً، فلعل تطبيق قانون الضمان المالي للصحافة الصادر في ١٤ أكتوبر ١٨٨٤م كان أكبرَ عائق أمام انتشار الصحف بالبلاد، ودفع التونسيين إلى التلهف على الصحف، والدوريات الواردة من الخارج، ولاسيما من الشرق. وهذا ما يفسر استبشارهم بمجلة «العروة الوثقى»، والالتفاف حولها؛ لأنها لسان الأمة الإسلامية جمعاء، وإن تقريظ الشيخ محمد السنوسي لهذه المجلة لأكبر شاهد.

وكلما تقدمنا خطوة في تاريخ الإصلاح بتونس، تبين لنا الدور الأساسي الذي تقوم به الصحف فيها، فجريدة «الحاضرة» كانت محور الحركة الإصلاحية، وجريدة «الزهرة» لسان القوى الوطنية. ويقوى اهتمام النخبة الإصلاحية بالصحافة خاصة بعد صدور مجلة «المنار» المصرية التي عرفت انتشاراً كبيراً في البلاد التونسية، تحدث عنه رشيد رضا نفسه: «وجاءنا من تونس أن الجزء الواحد من المنار يدار على العشرات من الناس».

وفي سنة ١٩٠١م أصدر الشيخ عبد العزيز الثعالبي جريدة سمّاها: «سبيل الرشاد»، جاءت لتدعم الحركة الإصلاحية، وتقوّي صفوف المجددين، وبرغم أنها لم تعمر طويلاً، فإن صاحبها كان داعية إلى التطور والحرية،

ومروِّجاً لأفكار الأفغاني، وعبده، والكواكبي.

وبصدور قانون جديد للصحافة يخفف من قيودها، ويرفع عنها الضمان المالي، زادت روح النهضة اتقاداً، وانتشرت دعوتها، وكثرت صحفها مناصرة الفكرة الإصـلاحية، ومنوّهة بمجلة «المنـار» ومقالاتها التي تقاوم الأولياء وزيارة القبور، وتثير مسائل كلامية، ومسائل فقهية.

فأصبح الخطر يهدد المحافظين والمناهضين لحركة الإصلاح، سيما وأنهم لا يملكون وسـيلة ناجعـة تربطهم بالناس، وتوضـح مواقفهم؛ لأن الصحافة كانت كلها بأيدي المجددين، وقد قَوَّت الضجّة التي قامت حول مسألة الفتوى الترنسفالية سنة ١٩٠٣ حاجةُ هذه المجموعةِ المحافظةِ إلى عالم شـهير يقود حركتهم، كما يفعل الشـيخ سـالم بو حاجب مع الإصلاحيين، ولسان نشر يعرف بمواقفهم وآرائهم يقابل مجلة «المنار».

وكان الشيخ محمد النجار المفتي المالكي معروفاً بغزارة علمه، وسعة اطلاعه، ورده على المسائل الدينية التي تتناولها مجلة «المنار»، فالتف حوله المحافظون، ووفروا بذلك العنصر الأول من حاجتهم، أما العنصر الثاني، فقد توفر لهم بصدور مجلة «السعادة العظمى» التي أسسها الشيخ محمد الخضر حسين سنة ١٩٠٤م، الذي كان يتحين الفرص لتحرير مجلة يساير بها أبناء نشأته، ويؤدي بها واجبه نحو دينه. وقد قال «وكثيراً ما ترصدنا فترة من العوائق لمسايرتهم بتحرير مجلة علمية أدبية توفية ببعض حقوق دينية، ولم تهب رياح القدر مسعفة بفصالها، إلا في هذا الإبّان».

إذاً، رغبة شخصية نابعة من اقتناع بقيمة الصحافة، ودورها في الإرشاد وترقية الأمة، وهذا ما يثبته اختيار محمد الخضر حسين للمقال الذي صدر

في جريدة «اللواء» بعنوان: «رأي الشرع في الصحافة» ونشره في العدد الثاني عشر من مجلة «السعادة العظمى» نَشَّطتها رغبةُ جماعة المحافظين في إيجاد وسيلة نشر تدعم مركزهم في المجتمع، وتثبت شخصيتهم وقدرتهم على المساهمة في إثراء الأفكار ونقدها، وإبداء الآراء في المسائل الدينية والعلمية والاجتماعية، وتخرجهم من طور استهلاك ما يفد من الشرق، إلى طور الفعل والعطاء.

تفاعل هذا العاملان: الحاجة الشخصية، والحاجة الجماعية، فأنتجا مجلة «السعادة العظمى».

ولكن نتساءل هنا عن سبب اختيار مجلة، وليس جريدة؟ ولماذا وقع اختيار هذا الاسم «السعادة العظمى»؟.

*** فكرة المجلة، وسبب اختيار هذا الاسم:**

مجلة «السعادة العظمى» هي أول مجلة عربية في تونس؛ إذ كان النشر مقصوراً على الجرائد.

وتعريف المجلة في القاموس هي: «الصحيفة فيها الحكمة ـ الكراسة، وخصت الآن بالجريدة التي على شكل كراس». وهذا التعريف نفسه يورده الشيخ محمد الخضر حسين عندما يسأله أحد الفضلاء بالجزائر العاصمة عن معنى مجلة، فيقول: وَصحبنا أحد الفضلاء، فذُكر لفظ (مجلة)، فاسْتنبأنا عن معناه لغة، فسقنا إليه عبارة القاموس: «مجلَّة ـ بالفتح ـ: الصحيفة فيها الحكمة، أو كل كتاب».

ويعرفها المقال المنقول عن «اللواء» في مجلة «السعادة العظمى»: «إن حرفة الصحافة قسمان: قسم يبحث فيه عن علوم مخصوصة للإرشاد عما

تبحث فيه؛ كالمجلات الغير اليومية، وهذه شرفها بمقدار شرف ما تبحث فيه، وهي صحافة جليلة»، وبما أن هدف المجموعة التي كانت وراء تأسيس هذه المجلة مناقشة المباحث الدينية والمسائل العلمية، وإرشادُ الأمة إلى ما تراه صالحاً عن طريق الحكمة، فإن الجريدة لا تفي بحاجتهم، لذلك ظهرت فكرة المجلة.

كما أن حرص العلماء على محاكاة مصر في وسائل نهضتها، ورغبتهم في تأسيس مجلة تقابل مجلة «المنار»، وترد عليها، جعلهم يفضلون المجلة عن الجريدة.

أمّا تسميتها: «السعادة العظمى»، فإن صاحب المجلة يرمز به إلى أن هذه المجلة تعين الأمة على تحقيق السعادة العظمى؛ بما تحويه من حكم، وما تتناوله من مواضيع، وما توضحه من مسائل، وما تبذله في سبيل الدين من جهد؛ لتقريبه إلى الأذهان، وشرح حقائقه، وتصفيته من الشوائب، وما تعدده من سبل الرقي والتمدن، فجاء العنوان بمثابة المبتدأ الذي يخبر عنه مضمون المجلة.

هذا الاسم له خلفية دينية؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى مجلتي: «العروة الوثقى» و«المنار». فقد أبرز الأفغاني أن أفضل رابطة للأمة الإسلامية هي القرآن، والتمسك به، ورمز إليه (بالعروة الوثقى).

أما «المنار»، فهو الذي يهدي إلى السبيل القويم، وكأن محمد رشيد رضا يتمم المهمة التي بدأها الأفغاني بالمناداة إلى (العروة الوثقى)، وذلك يهدي المسلمين إلى سبيل هذه العروة، ومن يعرف سر نجاح، ويهتدي إلى سبيله، فإنه يحقق (السعادة العظمى)، وعلى هذا الأساس نشعر بخيط رابط

بين هذه المجلات الثلاث؛ لأن الواحدة جاءت تواصل مهمة سابقتها، أو تعاضدها، ثم إن الترتيب الزمني يوحي لنا بهذه الفكرة.

كما أن هناك توافقاً في اختيار الصيغة، فكلمتا: (الوثقى)، و(العظمى) جاءتا على وزن واحد، لتدل على أن ما يبغيه الرجلان للأمة، يحتل أفضل المراتب، فهو السر في استعمال صيغة التفضيل.

ولنعد إلى مجلة «السعادة العظمى»؛ لنتعرّف على أبوابها وأهدافها.

*** أبواب المجلة، وأهدافها:**

صدر العدد الأول من هذه المجلة في (١٦ من شهر محرم سنة ١٣٢٢هـ ١ أفريل ١٩٠٤م)، بقطع من الورق مقياس الصفحة (١٦× ٢٥).

فرحب بظهورها جريدة «الحاضرة» لعلي باش حامبة، و«المنار» لرشيد رضا، وكثير من رجال الفكر والأدب وشيوخ الزيتونة. وقد قال الشيخ محمد الفاضل بن عاشور «فكان ظهور السعادة في معمعة تلك الخلافات كطلوع الحَكَم، انتهت به المجادلات عن الفحش، وتطهرت من الهمز واللمز، وتسامت عن التشهير والأذى الشخصي».

تحتوي المجلة على ٣٣٦ صفحة، وصدر منها واحد وعشرون عدداً، ثم انقطعت عن الصدور في (ذي العقدة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٥م).

تحتوي المجلة على ستة أبواب، ذكرها الشيخ محمد الخضر حسين في العدد الأول منها، وهي:

١ - الافتتاحية تتناول مواضيع «تقتضيها المحافظة على حياة مجدنا القديم».

٢ - المباحث العلمية.

٣ ـ المباحث الأدبية: نشر ما يكون «مرقاة للتقدم في صناعتي الشعر والكتابة».

٤ ـ الأخلاق: «كيف ينحرف مزاجها، وبماذا يستقيم اعوجاجها؟».

٥ ـ الأسئلة والاقتراحات.

٦ ـ مسائل شتى.

وتهدف المجلة إلى:

ـ إصلاح وضع المسلمين، وإعادة مجدهم الضائع.

ـ الدعوة إلى الاتحاد والتعاون للاهتمام بقضايا العصر، ومسايرتها في إطار ديني إسلامي.

ـ التمسك بالأخوة الإسلامية هي التي تسير المجموعة.

ـ الدعوة إلى نهضة جديدة.

ـ التمسك بالإسلام دون حرمان المؤمنين من حقوقهم في التمتع بالدنيا.

ومما يقول في الحثِّ على مسايرة قضايا العصر: «وإنْ تعجب، فعجبٌ ما يتخيله بعض من رُبّي في مهد الجمود من أن هذا الدين القيم لم يرشد إخوانه إلا إلى العبادات المحضة، وأنه حجاب مسدول بينهم وبين المدنية».

وقد ذكرنا الظروف التي صدرت فيها المجلة.

أما أسباب انقطاعها، فيبدو أنها مادية، تتعلق بعجز صاحبها عن توفير ما تتطلبه مستلزمات المجلة من مال، وما إلحاحه في الأعداد الأخيرة على المشتركين لإرسال مبالغ اشتراكاتهم، إلا دليل واضح على هذا العجز.

ويختم العدد الأخير من المجلة بهذا الإعلان: «يتأخر العدد ٢٢ على

غرّة ذي الحجة؛ لعارضة من الضروريات ألجأتنا إلى ذلك»، ولكن هذا العدد لم يصدر.

العددان الأول والثاني: صدر هذان العددان مزدوجين، ويعلّل محمد الخضر حسين هذا الازدواج ببطء طول المقدمات الأولية لإصدار المجلة، ولا يذكر ذلك إلا في العدد الرابع، ويستدرك هذا الخلل بإصدار أربع ورقات في العدد الرابع، وأربع ورقات في العدد الخامس، وفاءً بذمته حتّى لا تكون المجلة منساة.

احتوى هذا العدد على مقدمة تقليدية ذات صبغة تقليدية، تلاها مدرج للعلم والعقل، ثم الحديث عن بروز فكرة المجلة، ثم بيان لأغراضها وأبوابها، ويلي ذلك ثلاثة تلويحات، احتوى التلويح الثالث منها على اثني عشر استطلاعاً.

والملاحظ أن الشيخ محمد الخضر حسين قد حرر جميع صفحات هذا العدد، وقصد إلى الإطالة في الافتتاحية؛ ليعرِّف بالمجلة، وظروفها، وأبوابها، وأغراضها، ومنهجها، حتى يكون مسلكها واضحاً، ويقبل عليها مَنْ يجد في نفسه تجاوباً مع هذا المنهج والأغراض، ولا ننسى أن هذه المجلة هي أول مجلة تصدر بتونس، وربما هذا سبب آخر من أسباب طول الافتتاحية، حتى لا ينفر الناس من شكل لم يألفوه.

نلاحظ أن ترتيب الأبواب روعي في الأعداد الأولى، ثم بداية من العدد الخامس بدا بعضها يحتجب، ومن العدد السادس عشر لم يعد هناك محافظة على التبويب أو الترتيب، بل تذكر مقالات بدون تصنيفها في أي باب كان.

الباب الأول موجود في كل الأعـداد، باب الأخـلاق لم يُذكر إلا في عددين.

احتوت المجلة على خمسة وسبعين مقالاً، منها خمسة وعشرون غير ممضاة، وخمسون ممضاة، كتب منها صاحب المجلة أربع عشرة مقالة.

وقد ذكر لي الأستاذ محمد مواعدة أن المقالات غير الممضاة هي من تأليف صاحب المجلة؛ اعتماداً على ما أكده له الشيخ محمد طاهر بن عاشور؛ من أن الشيخ محمد الخضر حسين كان يقوم بجلّ ما تتطلبه المجلة من أعمال أدبية ومادية.

واستناداً على هذه المعلومات، فإن المقالات التي كتبها الشيخ محمد الخضر حسين في مجلة «السعادة العظمى» تكون تسعاً وثلاثين مقالة، مع العلم أن كل صفحات العدد ١ ـ ٢ قد كتبها صاحب المجلة.

إذن، أكثر من ثلثي المجلة هو من تأليف الشيخ محمد الخضر حسين، ولذلك اعتبرها الأستاذ محمد مواعدة أول تأليف له، فقال: وتجدر الملاحظة إلى أن أغلب مقالات المجلة كانت من تحريـره، ولذلك اعتبرتها تأليفاً من تآليفه، وليست مثل المجلات التي كان يشرف عليها ضمن هيئة تحرير منظمة لمجلتي «الهداية الإسلامية»، و«نور الإسلام».

* التقاريظ:

أشرنا في تقديم المجلة إلى أنه رحب بظهورها عدد كبير من رجال الفكر والأدب، ورجال الزيتونة، وقد تمثل ذلك في التقاريـظ التي وصـلت إلى المجلة، ونشرتها في أعدادها تحت باب: (مسائل شتى) والمتأمل فيها يتبين قيمة أصحابها، ونوعية الذين يتعاملون مع المجلة، ووجودهم في مناطق

مختلفة دليل آخر على مدى رواج هذه المجلة، وإقبال الناس عليها.

لقد احتوت المجلة ـ أيضاً ـ على العديد من الملاحظات، هي استدراكات، وتشكرات، وإعلانات، واعتذارات، وقد تنوعت، فجاءت ـ أحياناً ـ لتعرف بمجلة أو جريدة، وـ أحياناً ـ أخرى لتوضح كيفية التعامل مع المجلة في إرسال المقالات، أو لتلح على إرسال مبالغ الاشتراك في المجلة، وهذا خاصة في الأعداد الأخيرة من المجلة.

أما مضمون المجلة، ونوعية المقالات التي تضمنتها، والقضايا التي عالجتها، والمواقف التي عبرت عنها، فإننا نقدمها حسب المحاور التالية:

- الجانب الديني.
- قضايا اجتماعية وأخلاقية.
- الأدب.
- العلوم. ونعتبرها العلوم العصرية، لا العلوم بمفهوم رجال الدين.
- المواقف التجديدية.
- التقاريظ.

وإن حلّلنا افتتاحية هذه المجلة، تبينّا مدى علاقتها بهذه المحاور.

لقد اعتبر رجال الإصلاح انتشار الزوايا والطرق السببَ الأساسي لانتشار العادات الفاسدة، والعقلية الحائدة عن مبادئ الدين الصحيح، وكرّسوا جهودهم لمحاربة الأباطيل والبدع، وتطهير العقليات من الأوهام، واتخذوا الصحف والمجلات منابر للوعظ والتوعية، ووسيلة للدفاع عن الدين، وتجديد مفاهيمه، وسعَت مجلة «السعادة العظمى» إلى الاستجابة إلى ما تفرضه عليها الشريعة الإسلامية من نصح الأمة وإرشادها، لاسيما وأن صاحبها يجعل

تأسيس هذه المجلة «توفية ببعض حقوق دينية»، ورداً على من «زاغ بالكلم عن مدلولها، وانتزع الفروع من غير أصولها»، ويضبط مسلكها في التمسك بالشـريعة، ويلتزم بعدم الخـوض فيما يخالفها، فيقول: «إن هذه المجلـة لا تنثر من كنانتها إلا ما يشمله نظر الشارع بعنايته».

والناظر في افتتاحية هذه المجلة ـ التي خصص لها الشيخ محمد الخضر حسين العدد ١ ـ ٢ بأكمله ـ يتبين ـ بوضوح ـ أن خدمة الدين الإسلامي، والعمل على صيانته وتجديد مفاهيمه، هو الهدف الأساسي لهذه المجلة، حتى تستعيد الأمة مجدها الأول، وترتفع في درجات الرقي.

وقد أفاض في الحديث عن الأسباب التي جعلت «أبناء النشأة الأولى» ينجحون في مسعاهم، ويصلون إلى العزّة والشدّة والبأس، وأوضح أن السرّ في كل ذلك، يتمثل في تمسـكهم بالمعارف والهداية، ونبذهم الظواهـر، والاهتمام باللب، والبعد عن الكسل والبطالة والخمول والتجمد، وفتحهم لباب الاجتهاد.

ولما تنكر المسلمون إلى كل هذه المبادئ، انقلب الوضع، وساءت حالهم، ونقضت عُرا الاستحكام بينهم، فعمّهم الفشل، ودبّ في أجسادهم الضعف.

إذن، العودة إلى ينابيع الإسلام الصافية، والتمسك بمبادئ الشريعة، هو علاج العلة التي أصابت المسلمين، ولذلك جعل أغراض المجلة وأبوابها، تهدف إلى الوصول إلى هذا العلاج.

فالغرض من مقالات الافتتاحية: «المحافظة على حياة مجدنا القديم»، والمباحث العلمية تخوض في علوم الدين، والغرض منها: «تحقيق ما يتخللها

من أفكار سامية»، توضح السبيل القويم للمسلمين؛ ليتمسكوا بما جاء فيها من أفكار من شأنها أن تصلح وضعهم، وتبرز لهم حقوقهم وواجباتهم الأخروية والدنيوية، فالعلوم الدينية هي العلوم الأساسية.

أما المباحث الأدبية، فالهدف منها: «التقدم في صناعتي الشعر والكتابة»؛ لأن الشعر يخدم المجتمع، والفنون الأدبية والبحوث اللغوية تساعد على فهم الشريعة ونصوصها. وفي هذا أسباب تخصيص قسم للتاريخ، فالإعلام عن الماضي يستخلص الدرس منه، ويكون عبرة لأولى الألباب، فنلاحظ أن المباحث الأدبية تهدف إلى خدمة العلوم الدينية.

والباب الرابع خُصص للبحث في الأخلاق، وكيف ينحرف مزاجها، وبماذا يستقيم اعوجاجها، وما مقياسه في ذلك إلا القيم الأخلاقية في الإسلام، وما أمر به، ونهى عنه، ونجد في هذا القسم استشراف العوائد من خلال الشريعة؛ أي: بحث في العادات والتقاليد، وتمسك الناس بهما، ومدى علاقتهما بالشريعة. وهذا الباب ـ أيضاً ـ له خليفة دينية.

ثم إن الباب المخصص للأسئلة لا يخرج عن هذا السياق، ففتح مجال الأسئلة لقراء ينتمون إلى مجتمع الربع الأول من القرن العشرين، يعيش الأوضاع التي وصفناها في السابق، ويبحث عن مخرج من الأزمة التي تردى فيها، لا يمكن أن يفضي إلا إلى صنف واحد من الأسئلة، وهو الصنف الديني، والمتتبع لأعداد المجلة يلاحظ ذلك بوضوح.

وأما الباب الأخير، فيتركه صاحب المجلة مفتوحاً لمسائل شتى، دون تخصيص أو تحديد لنوع معين من المسائل.

ومن خلال هذا العرض لأبواب المجلة، يتبين اهتمامها بالجانب الديني؛

إذ هو أساس الحياة، وتتفرع عنه بقية المسائل الأخرى، ولذلك وضعت العلوم الدينية في المرتبة الأولى، ثم تليها الآداب، فالأخلاق. إذن، يمكن أن نستنتج أن هذه المجلة ترمي إلى إصلاح المجتمع على هذه الأسس: الدين، والعلوم، والآداب، والأخلاق. وهكذا جاءت التلويحات التي تلت أبواب المجلة تزيد منهجها وضوحاً.

ونفصل القول في العلوم التي ستتناولها المجلة بالبحث، وهي ثلاثة تلويحات:

خصص التلويح الأول لإبراز شرف العلوم بالاعتماد على الشريعة، ولا يكون العلم شريفاً إلا إذا كان مفيداً، فالعلم النافع طريق إلى الجنّة، وهذه نظرة دينية تنزهه عن شبهة اللذة، ولذلك حثّ الشيخ محمد الخضر حسين على الخوض في المسائل المفيدة، أما غير ذلك، فيعدّ لغواً، وإضاعة للوقت. ويحصر مسلك المجلة فيما لا يخرج عن الشريعة.

وهذه العلوم النافعة يقسمها في التلويح الثاني إلى قسمين: ما دوَّنه أهل الإسلام؛ أي: العلوم الدينية، وما دونه الفلاسفة. ويخصص الجزء الأوفر من هذا التلويح لإبراز النوع الأول، وتعريف كل علم من علومه، بينما يتحدث عن النوع الثاني في سطر واحد.

ثم يعود إلى تفصيل هذه العلوم، وبيان مقاصدها في التلويح الثالث، الذي احتوى على اثني عشر استطلاعاً، كان نصيب العلوم الفلسفية استطلاعاً واحداً، وهو الأخير، بينما تناولت بقية الاستطلاعات العلوم الإسلامية.

وبهذه النسبة المتفاوتة بين نوعي العلوم، يتدعّم ما ذكرناه في بداية هذا الفصل، من أن الشيخ محمد الخضر حسين قد أولى مباحث الجانب الديني

المرتبة الأولى في مجلته، فما هي هذه القضايا؟ وما هو موقفه منها؟

١ ـ الجانب الديني:

أوّل مهمة تكفلت بها المجلة هي: الدعوة إلى إعادة مجد الأمة، وإصلاح وضع المسلمين، والدفاع عن الإسلام، وصيانته من التحريف والتشويه. لذلك دعت إلى ضرورة الاعتصام بالشريعة، والتمسك بها، وسعت إلى توضيح مقاصدها، وخصصت افتتاحيات الأعداد الثالث والرابع والخامس لهذا الغرض، وقد كتبها على التوالي: الشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ محمد طاهر بن عاشور، والشيخ محمد النخلي.

أما النقطة الثانية التي دعت إليها المجلة بعد التمسك بالشريعة، فهي: فتح باب الاجتهاد في الإسلام، وأحكامه، وأساليبه؛ لأن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان، لذلك يقول الشيخ محمد الخضر حسين: «أما من استكمل شروطه المقررة في الأصول، فلا يسوغ له المقام في حوزة التقليد. ودعوى أن باب الاجتهاد مغلق، لا تُسمع إلا بدليل ينسخ الأدلة التي انفتح بها أولاً».

وقد كان الاجتهاد، والبعدُ عن الجمود من أسباب نهضة المسلمين في أول عهدهم، ووصولهم إلى أعلى المراتب.

إذن، كانت أهم النقاط التي عالجتها المجلة في الجانب الديني، هي: الدعوة إلى التمسك بالشريعة في أصولها ومبادئها، والاعتماد على الكتاب والسنَّة والإجماع، وفتح باب الاجتهاد، والقيام بالوعظ والإرشاد والفتاوى؛ لمقاومة البدع والضلالات؛ لتخلِّص الإسلام مما علق به من شبهات، وردِّ ما زاغ بالشريعة عن مقاصدها. وما تخصيص ركن قارٍّ في أربعة أعداد متتالية

للرد على الفتوى الترنسفالية، إلا دليل واضح على عزم المجلة على هذا الاتجاه.

٢ ـ قضايا اجتماعية وأخلاقية:

لقد اهتمت المجلة اهتماماً كبيراً بهذا الجانب، وتحدثت عن حياة الأمة، وأسباب ترقيها، وأبرزت أن التعاضد والتعاون بين أفراد الأمة هو سر عيشها، والدافع إلى تقدمها، فدعت إلى الابتعاد عن الكسل والجمود، ومحو المزاعم الباطلة، وربط القلوب بالاعتقاد الصحيح، مع الاستفادة بحضارة العصر الحديث ومدنيته.

يقول الشيخ محمد الخضر حسين: «وإن تعجب، فعجبٌ ما يتخيله بعض من رُبّي في مهد الجمود، من أنّ هذا الدين القيم لم يرشد إخوانه إلا إلى العبادات المحضة، وأنه حجاب مسدول بينهم وبين المدنية»، فالكسل والبطالة خطران يؤديان بالأمة إلى الانهيار والسقوط، وبالفرد إلى الوحدة والعزلة، ولا يمكن للفرد أن يعيش بمعزل عن غيره، فالتعاون وليد الحاجة.

لذا، وجب على أفراد الأمة صيانة مدنيتها، وذلك بتحمل كل طائفة منها حظاً عظيماً من وسائل لوازمها المدنية والعقلية، وسدِّ كل ثلمة من الحاجات ما تزايدت.

وقد قسمت الأمة إلى أربع طبقات، حددت المجلة دور كل واحدة منها:

فالأولى: تدبر أمور الرعية، وتحفظ حقوقها، وتقتلع مفاسدها، وتثبت مصالحها.

والثانية: تنشر المعارف، وتحث على العلم والعمل.

والثالثة: تهتم بالتجارة، وتوفير المال.

والرابعة: تشتغل بالصنائع، وهي الطبقة الغالبة؛ لأهمية هذه الصنائع، فهي العنصر الذي يقوم عليه سوق التجارات، ومعظم أسباب العمران.

وبما أن الأخلاق دعامة المجتمع، فإن المجلة خصصت لها باباً كاملاً، ودعت إلى مكافحة الرذائل وفساد الأخلاق، ومقاومة العادات الشاذة عن الإسلام، والحث على التمسك بالقيم الأخلاقية في الإسلام، وهي: الحياء، والحلم، والتواضع، وكبر الهمة، والشجاعة، والإخلاص، والعزة، ولا تحصل هذه القيم إلا بغرسها في النفوس منذ النشأة الأولى.

لذا، أبرز الشيخ محمد الخضر حسين منافع التربية المتشبعة بما جاء في كتاب الله من المواعظ الحسنة، والإرشادات الصحيحة، فهي تعصم الإنسان من مخاطر التقليد، وما ينشأ عنه من مفاسد، ودعا إلى وجوب الاهتمام بالطفل منذ النشأة الأولى؛ لأنه يولد على الفطرة، والشرور ليست جبلّية في الإنسان، ومن نشأ نشأة صالحة، كان صالحاً، ومن نشأ في الفساد، يكون فاسد الذوق، لا يخضع لسلطة الأحكام الدينية.

فالتربية الأولى تكون بغرس عزة النفوس، وقوة الجأش، وأصالة الرأي، والإقدام على إرسال كلمة الحق، وفي هذا الصدد تنادي المجلة بوجوب تعميم التربية بين طبقات الأمة؛ لأنها أساس الحياة، وعماد كل تقدم.

فيقول الشيخ الخضر حسين: «وخاتمة المقال: أن تعميم التربية بين طبقات الأمة شيء واجب، لا ينتظم لها العيش الناعم بدونه، ولا تشرق صحائف تاريخها بسواه».

ومن الأخلاق التي حثت عليها المجلة: كبر الهمة، فهي سجية من

سجايا الدين، والعزة من شعائر الإيمان؛ لأنها تردع النفوس عما نهى الله، وتغلق أبواب الفسوق والملاهي، وتسمو بها إلى الوقوف على أسرار الهداية، وأصحاب هذه النفوس تستضيء الأمة بأنوار عقولهم، فتخطو إلى المجد بخطا سريعة. أما من ضعفت هممهم، فإنهم ينزلقون بها إلى الحضيض والرذائل.

وقد جعل الشيخ محمد الخضر حسين الهمة مقياساً لرفعة الأمة وانحطاطها: «إنما هو كبر الهمة وضعفها، يمثلان لك الإنسانية بالسلك التي ينظم خرزاً كثيراً، تباينت معادنها شرفاً وحِطَّة، واختلفت مناظرها سماحة وجمالاً».

ودعت المجلة العلماء إلى الاضطلاع بدورهم في تقويم المعوج من الأخلاق، وتعديل الزائغ من العقائد، والنهي عن البدع المذمومة.

وقد خصصت العديد من المقالات لإبراز ما تفشّى في المجتمع من الرذائل وسوء المعاملات، وطغيان المصلحة الشخصية، والتعامل بالربا الذي أفردت له مقالة؛ لتبين مدى تلاعب البعض بما جاء في القرآن من تحريم الربا، وتفسيرهم له تفسيراً يرضي حاجتهم، ويخدم مصالحهم.

وفي هذا خطر كبير على المجتمع، وبُعْدٌ عن مقاصد الشريعة، وتشويه للوجه الحقيقي للإسلام.

* **الأدب:**

تحتل المباحث الأدبية مرتبة ثانية بعد المباحث العلمية في المجلة، وقد أشرنا إلى أن الأدب واللغة وُظِّفا لخدمة الدين، فهما فرع من العلوم الدينية، لذلك نرى أن جل المقالات المخصصة للأدب في هذه المجلة خاضعة

إلى هذه النظرة، فالأدب يجب أن يتطـور، وتتناول مواضيعه ما يحيي مجد الأمة، ولذلك حثت المجلة العلماء أولي القوى والأفكار الرشيدة على خدمة الأمـة بأقلامهم؛ للنهي عن البدع المذمومـة، والتنفير من العوائد الهجينة، ودعتهم إلى تحرير الموضوعات المفيدة، والثبات أمام الانتقاد، والتمثل بالسلف الصالح، وما بلغوه من تـرقٍّ وتقدم عن طريـق الكتابـة؛ لأنهم لم يرفعوا أسس هذا التقدم باستعداد زائد في فطرتهم، أو قوة خارقة في إنسانيتهم، وإنما بسعيهم وحزمهم، ونشاطهم وجدهم، وبعدهم عن الركود والتخاذل عن الإصداع بكلمة الحق.

يقول الشيخ الخضر حسين: «هم رجال، ونحن رجال، أقلامهم من القصـب الـذي ننحـت منـه أقلامنـا، ولا يحملونهـا إلا بمثـل أناملنـا قـوة وشكلاً...»، فالكتابة إذن هي إحدى دعائم التقدم والإصلاح، وقد بينت إحدى المقالات في المجلة طرق الترقي في الكتابة، وخصصت أربع مقالات للحديث عن حياة الشعر وترقية، نشرت في أعداد متتابعة.

٣ ـ العلوم العصرية:

رأينا أن المجلة تسعى إلى بعث مجد الأمة، والوصول بها إلى مراتب التقدم والرقي، ولذلك فإنها لم تنكر الأخذ بالعلوم العصرية، بل دعت إلى تجديد العلوم الدينية ببعض العلوم الأخرى؛ تلبية لمتطلبات العصر.

وقد أبرز الشيخ الخضر حسين ـ خاصة في حديثه عن حياة الأمة ـ فوائدَ الأخذ بالآلات والطرق الجديدة، والأساليب الحديثة؛ تطبيقاً لأوامر الشريعة التي ألحت على الاقتصاد في الأموال والمجهود، ويطالب بقيام نخبة من أهل النهضة بتعليم أبناء الوطن هذه الطرق؛ لأنها سبب القوة، وازدياد الملك

والثروة، فيقول: «وهكذا سائر الصنائع التي تمس الحاجة إليها، ينبغي الأخذ فيها بالطرق التي هي أيسر كلفة، وأربى فائدة، وقد حكم العيان بأن الآلات الجديدة حققت كثيراً من الأعمال التي لا تبلغ غايتها إلا بشق الأنفس».

ونظراً إلى أهمية هذه القضية، فإن المجلة تفرد لها مقالاً يتحدث عن «مدنية الإسلام والعلوم العصرية»، نتبيّن من خلاله أن المجلة لا تعادي هذه العلوم، بل تدعو إلى الأخذ بها؛ متأسية في ذلك بالسلف الذي أخذ الأشياء النافعة من «أي وجهة صدرت، فمحّصوها بتطبيق أصول الديانة عليها، وغرسوها في معادن معارفهم العالية».

تدعو المجلة إذن إلى معرفة هذه العلوم العصرية، وتمحيصها، وإلحاقها بالعلوم الإسلامية؛ لتضمن بذلك تقدم الأمة، وتؤكد أن ذلك لا يخالف الشريعة الإسلامية، بل إن ما ذهب إليه البعض من إساءة الظن بتعاطي هذه العلوم، واتهامه بالإلحاد، هو عينُ الجهالة والغي.

وموقف المجلة من العلوم العصرية يعتبر من المواقف التجديدية، فما هي هذه المواقف؟.

٤ ـ المواقف التجديدية:

من يتابع أعداد هذه المجلة، يرى أنها سعت إلى التجديد في أغلب المحاور التي طرقتها، فهي تنادي بضرورة التجديد في المفاهيم الدينية بما يلائم روح العصر، حتى تكون الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وهي تؤمن بمنافع الاجتهاد، وما يهيئه للدّين من حياة جديدة، وتعدد سبل الترقي والوسائل التي تدفع بالأمة إلى التقدم في كل المجالات؛ كالكتابة، وترقية الشعر، وتطعيم العلوم الإسلامية بالعلوم العصرية، ولكنها تُخضع كل ذلك

إلى مقياس الشريعة الإسلامية.

وهذا ما جعل المجلة تلقى رواجاً كبيراً في أوساط المثقفين التونسيين، وشارك في الكتابة فيها العديد من العلماء، باختلاف انتمائهم إلى الطرفين المتصارعين: المحافظين، والإصلاحيين، وقرَّظها الكثيرون، وابتهجوا لصدروها.

*** المجتمع التونسي من خلال مجلة «السعادة العظمى»:**

ذكرنا عند تعريفنا بمجلة «السعادة العظمى»: أنها أنشئت سنة ١٩٠٤م؛ أي: في أوائل القرن العشرين، وقد اتصفت هذه الفترة بسيطرة السلطات الاستعمارية الفرنسية على البلاد، ومحاولاتها مَحْقَ العقلية الإسلامية، وصبغتها بعقليتها؛ لاستيلائها على أهم المراكز التي تقوم عليها البلاد؛ كالتعليم والاقتصاد، وضعفت حالة الشعب، وشعَرَ بالذل والهوان، وطغَت عليه روح الخمول والاستسلام، فانتشرت الأوهام والبدع، وساءت المعاملات التجارية، وتغلغل الشعور بالعجز، وبان البون شاسعاً بين العقليتين المسيطرتين على المجتمع: عقلية الغرب المتطور، وعقلية الشرق المتخلف.

فتحركت همم العلماء لحماية الإسلام من الاندثار، والوقوف في وجه الغرب الزاحف بحضارته وقيمه.

واتخذ هؤلاء العلماء الصحافةَ وسيلةً للجهاد، ومنبراً للوعظ، ولم تتخلف مجلة «السعادة العظمى» عن أداء دورها ضمن هذه الحركة، فاختارت المواضيع من صميم الواقع الاجتماعي، وصوّرت لنا اهتمامات السكان بمختلف طبقاتهم، وعكست القضايا التي تشغلهم، وكتب فيها المحافظون المجددون، وقرَّظها العلماء وغيرهم من الموظفين، ووجهت إليها أسئلة من مختلف

المناطـق، فكانت هذه المجلة مرآة عاكسـة للحياة الاجتماعية التونسـية في تلك الفترة.

ويبرز هذا خاصة في المواضيع التي خاضت فيها؛ كالبدع «هذه الضلالة لعبت بعقول طائفة لم يتبحّروا في قواعد الدين، فآلت بهم إلى التوسـع في دائرته باختراع أحكام على قالب أغراضهم».

والتمدن الذي يُبرز صاحب المقال مفهومه الحقيقي، ونظر الناس إليه، فيقول: «وقد يخطئ بعض المنتمين إلى هذا القبيل، فيخرجون بتلك اللوازم عن هذا الاعتدال، بل ربما فهموا من هذه اللفظة غير المراد منها، وحاولوا التلبـس بشـعارها، فيفضـي سـوء الفهـم إلى التقـدم، ولكـن في الهمجيـة لا المدنية».

والأحاديث الموضوعة التي تداولها الناس دون تمييز بين خبيثها وطيبها، فيحذر منها صاحب المقال، ويبرز طريقة الأخذ بالأحاديث، والعمل بها، وموقف أئمة الدين منها، فيقول: «ونحن لا نرى إلا ما رأته أئمة الدين، وهو: أنه لا يستباح لأحد أن يروي حديثاً إلا بعد تحققه عدَم وضعه، ولا يكفي في ذلك سـماعُه من عالم أو خطيب، أو رؤيته في كتاب، إلا إذا أُسـند إلى من يوثق بروايته».

ومن بين المواضـيع التي عالجتها المجلـة: موضـوع الربا؛ لأنه كان منتشراً في أوساط المجتمع، يستغل به الغني حاجة أخيه الفقير، فيستشهد صاحب المقال بما أورده الله من آيات في تحريـم الربا، ويوضـح المقصـد الحقيقي منها؛ لأن المرابين قد فسروها بما يخدم مصلحتهم، واحتالوا في قياسها على مآربهم، ويُبرز أن الربا مفضٍ إلى الخراب، ويقول: «وأن الحكمة

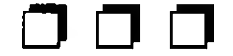
في التحريم: إزالة نحو هذا الظلم، والمحافظة على فضيلة التراحم، وأن لا يستغل الغني حاجة أخيه الفقير إليه».

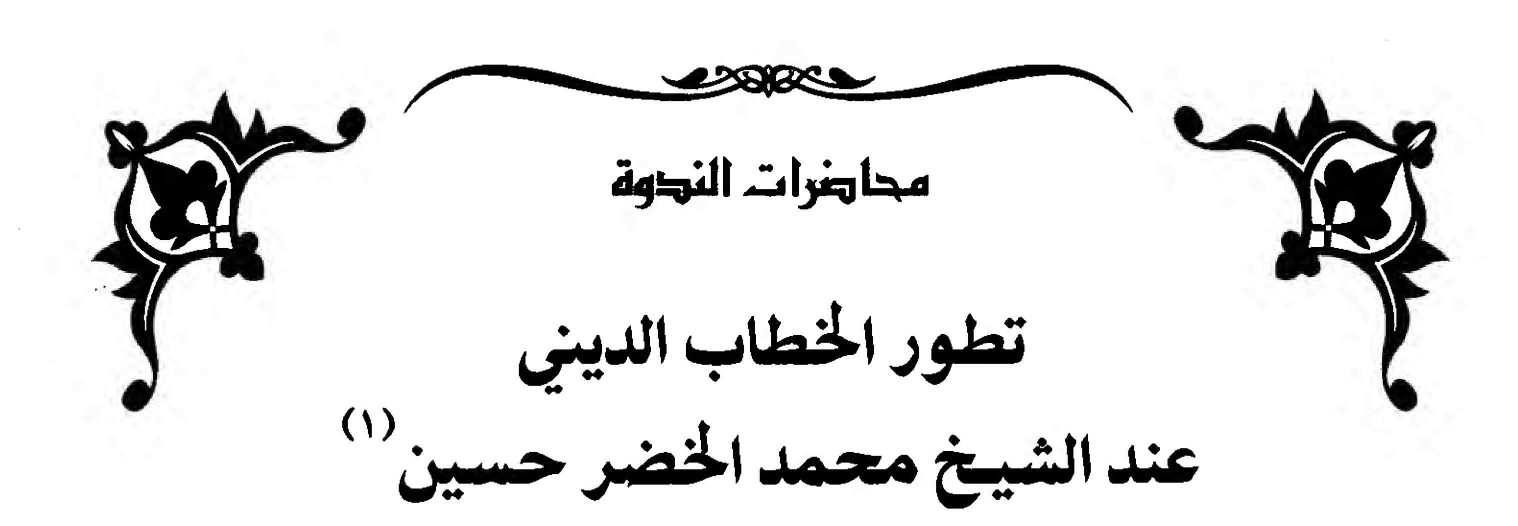
أما المشكل الذي كان يشغل بالَ أغلب المسلمين، فهو: موقف الإسلام من الحضارة، ومدى مسايرة الشريعة لمقتضيات هذا العصر، وقد أَوْلَته هذه المجلة عناية هامة، وخصصت له مقالتين منفردتين: «مدنية الإسلام والعلوم العصرية»، و«مدنية الإسلام والخطابة»، وتناولته في مقالات أخرى متفرقة، تتناول وسائل الرقي والتقدم؛ كالصحافة، والكتابة، والعلم، والتربية المطلقة.

وقد أوضحت هذه المجلة السبل التي تمكّن الأمة من مستقبل زاهر، يعيد لها ما غبر من مجد، وأبرزُها: الاعتصام بالشريعة، والاجتهاد في فهم مقاصدها، والإقبال على العلم، والتحلّي بالأخلاق والقيم الإسلامية، مع مراعاة روح العصر.

ولن يتحقق هذا إلا بالتعاون والتعاضد بين كل أفراد الأمة خدمة للمصلحة العامة؛ لأن «التعاون شرعاً يتمحض القصد منه في استجلاب المنفعة، وإزالة الضرر اللاحق، ولو لفرد واحد من أفراد الجماعة؛ رعاية للأخوة الدينية، واحتراماً للعهد الذي أخذه عنه الشارع».

وفي الختام: نرى أن هذه المجلة تفاعلت مع البيئة في أوائل هذا القرن، وساهمت في الحركة التي تميزت بها هاته الفترة.





تطور الخطاب الديني عند الشيخ محمد الخضر حسين[1]

أيها السيدات والسادة!

عنوان مداخلتي: تطور الخطاب الديني عند الشيخ محمد الخضر حسين من «السعادة العظمى» التي تأسست سنة ١٩٠٤م إلى «الهداية الإسلامية» التي تأسست في مصر سنة ١٩٢٨م.

لا مراء في أن الشيخ محمد الخضر حسين كان ركناً من أركان النهضة الفكرية والأدبية، كما بيّن ذلك الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابيه: «الحركة الفكرية والأدبية في تونس»، و«أركان النهضة الأدبية في تونس». وهو معدود من أبرز من أرّخ للحركة الفكرية والأدبية في بلادنا.

والمعلوم أن الشيخ محمد الخضر حسين كان من أبرز ناشطي شيوخ الجامع الأعظم في العقد الأول من القرن العشرين، كما كان حضوره بارزاً وفاعلاً ومنتظماً في أبرز المؤسسات التحديثية التي أسسها إصلاحيو القرن التاسع عشر، أو أسسها الجيل الأول من تلاميذه، أقصد: المدرسة الصادقية. كان الرجل مدرساً في هذه المؤسسة، الجمعية الخلدونية التي تأسست عام ١٨٩٦م، وكان من أبرز محاضريها، وكان حضـوره فيها منتظماً، جمعية

---

(١) محاضرة الأستاذ جمال الدين دراويل، باحث، ورئيس تحرير مجلة «الحياة الثقافية» بتونس.

قدماء الصادقية التي تأسست سنة ١٩٠٥م، وكانت محاضرته عن «الحرية في الإسلام» من أبرز المحاضرات التي ألقيت على منبر هذه الجمعية، ومازالت الكثير من الأفكار التي تضمنتها هذه المحاضرة تحتفظ بأهميتها.

تأسست بإشـرافه وتوجيهه أولُ منظمة طالبية بتونـس سـنة ١٩٠٧م، وهي: (جمعية طلبة تلاميذ جامع الزيتونة). وكان حراكه الفكري، ومنزعه الإصلاحي، ووعيه الوطني سببَ استهدافه من الجبهتين: الداخلية، وأقصد: المعهد العتيق الذي كان علماً من أعلامه، وهو جامـع الزيتونة، والجبهـة الخارجية، وأقصد: الاستعمار الفرنسي الذي سلّط عليه أنواعاً من النكاية. وكان هذا الاستهداف من الجبهتين الداخلية والخارجية وراء إغرائه سنة ١٩١٢م إلى الرحيل إلى الشام أولاً، فمصر ثانياً؛ حيث استقر، وبلغ قمة المجد العلمي كما تعلمون.

إذن، في أفريل ١٩٠٤م أسس الشيخ محمد الخضر حسين مجلة علمية هي الأولى في البلاد التونسية، سماها: «السعادة العظمى»، والملاحظ: أن تأسيس هذه المجلة كان في مرحلة الشباب والتوثب بالنسبة إلى هذا الرجل، وعمره في سنة ١٩٠٤م إحدى وثلاثون سنة.

*** «السعادة العظمى»، أو النظرة العالية:**

تجدر الملاحظة: أن خروج الشـيخ الخضـر من دائرة المسجد، ومن حدود الدرس العلمي داخل المعهد العتيق، واقتحامه لأول مرة في التاريخ الثقافي التونسي مجالَ الصحافة الفكرية، يقيم الدليل على سعة أفق الرجل، وإدراكه أن مجال النشـاط الإصـلاحي ينبغي أن يشـمل الرأي العام الفكري والثقافي، وأن لا يبقى في الدوائر العلمية الضيقة. وهو ما يفسّر توجُّسَ هيئة

النظّارة العلمية في جامع الزيتونة من صدور هذه المجلة، ومطالبتها للوزير الأكبر في ذلك الوقت محمد العزيز بو عتّور بإيقاف إصدارها.

إذ لم يستوعب أعضاءُ هذه الهيئة من الشيوخ المنحدرين في معظمهم من عائلات بورجوازية تونسية تجاسرَ هذا العالم الشاب من نقل مجال المداولات العلمية والفكرية المتصلة بالقضايا الفقهية والأخلاقية، والأدبية واللغوية من الدوائر التقليدية التي كان يتولاها هؤلاء الشيوخ إلى الرأي العام؛ حيث المقاهي والنوادي، إلى غير ذلك.

إذ كانوا يعتبرون أن هذه الوظيفة هي وظيفتهم، وليس فيها لغيرهم أن يتولاها، وأن يضيق دائرة سلطتهم العلمية والمعرفية في ذلك الوقت.

صدع الشيخ محمد الخضر حسين منذ المقال الأول من مجلة «السعادة العظمى»، المقال الافتتاحي للعدد الأول، فقال: «إن دعوى غلق باب الاجتهاد لا يُسمع إلا بدليل ينسخ الدليل الذي انفتح به هذا الباب أولاً»؛ رداً على النظرة الضيقة المغلقة التي كان يروِّجها المحافظون من شيوخ جامع الزيتونة، ووعياً من الرجل بأن في «السعادة العظمى» استقلالاً وحرية ونهضة معرفية وعمرانية، وهي قضايا مركزية وجوهرية بالنسبة إليهم، فالرجل كان ذا نزعة استقلالية لا مراء فيها، وكان يعتبر أن قضايا الحرية وحقوق الإنسان من القضايا التي ينبغي أن تعالج في المجتمع الحديث.

كما راهن وركز وعالج النهضة المعرفية والنهضة الفكرية التي لابد أن تكون المقدمةَ الضرورية لدخول المجتمعات العربية الإسلامية ـ والمجتمعُ التونسي مثالٌ لها ـ إلى مرحلة التحديث، والخروج من أَسر الأُطر المغلقة التي أراد المحافظون من علماء جامع الزيتونة أن يُبقوا مسارَ

الحراك الفكري والأدبي ضمنها.

فكانت هذه الفكرة ـ المعبّرة عن التحدي للجمود والمحافظة ـ سبباً في الهياج الذي قام في وجه الشيخ الخضر ووجهِ مجلته، وكان سبباً لكثير مما نال صاحبَها من الاضطهاد والنكاية خلال مقامه بتونس، علماً أن الصراع بين الطرفين، العلمي يستلزم الاستحواذ على المناصب العلمية والشرعية والدينية، وآفاقي يتطلع إلى اعتلاء سدة التفكير الفكري والإيديولوجي، كان يغذي موقف هؤلاء الشيوخ من صاحب «السعادة العظمى».

وإضافة إلى المقال الافتتاحي للعدد الأول من مجلة «السعادة العظمى» الذي جاء واضح العبارة، صريح الموقف، لا موارية في رفضه للتقليد والاستحواذ النظرة المذهبية على المذهب التشريعي.

بيّن الشيخ الخضر ـ في ذات العدد الأول ـ: أنه ينتهج في نظره الفقهي فَهْمَ مقاصد الشريعة، ولا يساير من انفرد بضيق النظر، فزاغ بالكلم عن مدلولها، وانتزع الفروع من غير أصولها. والرجل واضح المسلك في رفضه للجمود والتقليد، وفي كونه يروم المنزع الاجتهادي التنويري الذي لابد منه لإحداث الحراك الفكري والاجتماعي الضروري لخروج المجتمع التونسي من دائرة التقليد والجمود إلى دائرة النهضة المعرفية والاستقلال والحرية، إلى غير ذلك.

وعبّر عن موقفه ممن سلك مسلك الجمود والقعود والركود إلى ما قدمه القدامى اعتقاداً من أنه منتهى ما يمكن الوصول إليه، عبَّر عن ذلك في ذات المقال، فقال: «فإليك إيابه، وعليك حسابه» في أول جملة قالها في هذا المقال «اللهم كذا وكذا»، ثم أنهاه بقوله: «فإليك إيابه، وعليك حسابه»، والمقصود

هو من الجامدين من الزيتونيين المحافظين.

على هذا الأساس عبّرت مقالاته عن نظر فسيح، ورؤية عميقة، ومنزع إصلاحي، وهو ما يبرز للوهلة الأولى من خلال إمعان النظر في العنونة التي توخاها في جملة مقالاته في «السعادة العظمى».

وأسوق لكم بعض هذه العناوين: حياة الأمة ـ التقدم والكتابة ـ النهضة والرحلة ـ الشعر العصري ـ مدنية الإسلام والعلوم العصرية ـ الديانة والحرية المطلقة ـ كبر الهمة. هذا المعجم الذي كان الرجل يتوخاه في العنونة، بالإضافة إلى المضامين التي سآتي عليها بإيجاز بطبيعة الحال، تبين وجهة الرجل النهضوية، وطريقه الإصلاحي.

وفي مقاله الافتتاحي الموسوم بـ: «حياة الأمة» جاء في الأسطر الأولى: «لتجدن أشد الناس فتوراً، وأضعفهم عقدة في رابطة بني جنسه، من يرى أمة متمسكة بأذيال المدنية، ساعية وراءها بحركات تبهر العيون، وتدهش الألباب، ترفل في ملابس الرفاهية تحت ظلال عزّ مكين، ويشاهد أمة أخرى في أسوأ منظر من خشونة الحال، وشظف العيش، وجهومة المسكنة، ثم لا يسأل الناس إلحافاً عن الأسباب التي ترتفع بها قواعد العمران، والعلل التي تخرّ بها على عروشها».

هذا هو سؤال التقدم الذي يمثل مركز الاهتمام بالنسبة إلى إصلاحي القرن التاسع عشر، واللافت للنظر: أن الشيخ الخضر وصف من ركنوا إلى الجمود، ووضعوا الحواجز والموانع أمام كل محاولة للتجاوز؛ بأنهم إخوان الأنعام، ودعا على أيديهم التي تمتد بالأذى على المصلحين والتنويريين بالشلل، فقال: «رماها الله بالشلل»؛ لذلك قلت: إن مرحلة «السعادة العظمى»

بالنسبة إلى خطاب الرجل هي مرحلة النظرة العالية.

فالتقدم المشاهَد في المجتمعات الأوروبية بالعيان، وليس بعده بيان ـ كما عبَّر عنه المصلح خير الدين ـ، وسقوط المجتمعات العربية والإسلامية في وَهْدَة التخلف، وانحباس أعضائها الحضاري قابلٌ ـ كما بيّن الشيخ الخضر ـ لكل ذي همة عالية أن يسأل ويبحث، ويقارن ويحلل، ويضع مظاهر التخلف تحت محك البحث والمساءلة؛ وصولاً إلى معرفة الأسباب التي أدت إلى هذا الانحدار في وهدة السقوط الحضاري، وتوصلاً بالمعالجات الصحيحة العلمية المبنية على النظر الدقيق، والفحص العميق؛ للخروج من دائرة التخلف إلى دائرة النهوض والتقدم.

ولا يكون التقدم قابلاً للتحقق في مواقع الوجود الفعلي في رأي الشيخ الخضر، ولا يتسنى للأمة أن تستعيد عافيتها وتوازنها، وتسترجع نضارتها وحيويتها، وتستأنف دورها في تنشيط الحركة الحضارية، ولا يمكن للمجتمع العربي والإسلامي، وتونسُ أنموذجٌ له، أن يعرج إلى الأفق الأعلى من الأمن والسعادة ـ كما قال ـ إلا من خلال كبر الهمة، إلا إذا كانت الهمة تواقة إلى المعالي. ومن قوله: «جرت سنّة الله في خلقه أن لا ينهض بأحد المقاصد الجليلة، ويرمي إلى الغايات البعيدة، التي يشد بها نطاق السيادة الكبرى، غيرُ النفوس التي عظم حجمها، وكبرت هممها، فلم تعلق إرادتها بسفاسف الآمال».

هذه النوعية من الرجال والشباب التي كان الشيخ الخضر يعمل على تحريكها، وعلى صناعتها؛ للوصول بالمجتمع التونسي بعد حين إلى الغاية التي كان يروم؛ من الاستقلال، ومن الحرية، ومن النهضة المعرفية.

ودعا الشيخ الخضر إلى أن تتجه المؤسسة التربوية والفكرية إلى بث هذه الروح في الناشئة التي هي مناط المستقبل، فقال: «وإذا استبنّا أن كبر الهمة سجيةٌ من سجايا الدين، تصدر عنها الأعمال العظيمة، وتضم تحت جناحيها فضائلَ شتى، فلم لا تعقد عليها نفوس أبنائنا، ونرشحهم بلبانها في أدوار تربيتهم الأولى؛ ليستشعروا بالآداب المضيئة، ويتجلببوا بالقوانين العادلة، ولنا حياة طيبة في العاجل، وعطاء غير مجذوذ في الآجل».

وكبر الهمة، والتَّوق إلى المعالي والوجدان الأفضل والأكمل والرَّوْم على الدوام، هي مركزية في النطاق الفردي، وفي النطاق الجماعي بالنسبة إلى المجتمع التونسي، وخصص لها كتاباً مفرداً هو في حقيقته محاضرة ألقاها على منبر (جمعية قدماء الصادقية) سنة ١٩٠٦م، وفي هذا الكتاب الصغير الحجم، الجليل الفائدة، جليلُ الأفكار المتضمنة فيه، بيَّن أن المجتمع الذي جثم الاستعمار عليه، أو كان تحت نفوذ سلطة مستبدة، غيرُ قادر على إنجاز الأعمال الجليلة، فقال: «الأمة التي بُليت بأفراد متوحشة تجوس خلالها»، ويقصد: السلطة الاستعمارية، «أو حكومة جائرة تسوقها بسوط الاستعباد»: النظام الملكي للبايات المطلق، «هي الأمة التي نصفها بصفة الاستعباد، وننفي عنها لقب الحرية». وفي المقابل، فالتجمع الحر المستقل الذي يتمتع أفراده بالحرية التي عرّفها الشيخ الخضر بمضامينها الحديثة، فقال: «حيث عرف الحرية أن تُقرر للمرء حقوق لا تعوقه عن استيفائها يد غالبة»، هذه الحرية هي المنطلق والأساس بالنسبة إلى تحقق كبر الهمة، ثم إلى النهوض المعرفي والسياسي، والعلمي والاجتماعي، وإحداث الحراك اللازم لهذا النهوض.

يمكن أن نقـول: إن المباحـث التي تصـدى لهـا الشـيخ الخضـر في مجلة «السـعادة العظمـى» عالجـت بنظـرة عاليـة قضـايا الحريـة والنهضـة والتقدم والمدنية في مرحلة كانت البـلاد التونسـية تشـهد فيها مخاضـات وتحولات تُؤذِن بأن التونسيين بدؤوا يستعدون لإدارة بلادهم بأنفسهم، وهو ما عبّر عنه الشيخ الخضر إذ قال في كتابه «تونس ٦٧ عاماً من الاحتلال الفرنساوي»، قال: «أصبحت تونـس مسـتعدة للقيام بواجبات اسـتقلالها، وليست في حاجة إلى ما يسمونه: حماية». علماً أن الرجل بعد الحرب العالمية الأولى أسس (جمعية اسـتقلال تونـس والجزائر) صحبةَ الشـيخين: صالح الشريف، وإسماعيل الصفايحي، ثم في أربعينات القرن الماضي أسس (جبهة الدفاع عن شـمال إفريقيا)، وهي منظمة سياسـية بالدرجـة الأولـى، غايتها استقلالية.

لم يساير الشيخ الخضر في هذه المرحلة التونسية التي أسس فيها مجلة «السعادة العظمى» المؤسسةَ التقليدية، والعلماء المحافظين، وكانت نظرته فيها معارضة للتوجه الذي كان سائداً في تلك الفترة.

*** مجلة «الهداية الإسلامية»:**

الحجة البالغة في مجلة «الهداية الإسلامية» هي الوصول للبحث العميق والدقيق، وهي وسـيلة في ذلك بينها وبين النظرة العالية في مجلة «السـعادة العظمى».

إذ كان الشيخ الخضر حسين علماً بارزاً، وطوداً شامخاً، ينبغي أن نهتدي به، وإن مدونته تتيح للباحثين أن يدرسوه مفسراً، وفقيهاً، ومصلحاً، ولغوياً، وبلاغياً من الدرجة الأولى.

والحقيقة أن الأبحاث مازالت ضنينة إلى حـد بعيد في هـذا الاتجاه، ونرجو أن تكون هذه الندوة محفّزاً لمن يهتم من الباحثين بهذا العَلَم.

وشكراً على إصغائكم.



تطوير الفكر الديني من خلال مجلة «السعادة العظمى»[(١)]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ما أريد أن أقول في هذا العمل الذي قمت به هو: أن الشيخ محمد الخضر حسين له مكانة في تونس، حينما كان يعيش في تونس، حينما أنشأ مجلة «السعادة العظمى»، جدير بنا أن نفكر بها، لا أن نستعرضها.

فلذلك سأبدأ بمقدمة، ثم سأتطرق إلى جوهر الموضوع من خلال نقاط ثلاث.

أما المقدمة، ففيها جانبان:

الجانب الأول: يتمثل في قدوم، «الآفاقي»[(٢)] إلى الحاضرة، هذا الذي جاء من «نفطة» كما جاء الشيخ سالم بو حاجب من «بنبلة» إلى تونس الحاضرة بما فيها من «علماء».

ماذا أحدث؟ من أين انطلق؟ وماذا أحدث؟

---

(١) محاضرة الدكتور كمال عمران رئيس (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي)، وأستاذ جامعي، ومدير إذاعة الزيتونة بتونس.

(٢) تطلق كلمة (الآفاقي) في تونس على القادم من خارج المدينة، من الريف أو الصحراء، وهي كلمة كانت تعني في الماضي شيئاً من الحطّ بالقيمة.

انطلق من «نفطة» حيث الاتساع، حيث الجرأة، حيث الشجاعة، حيث الفطرة، الفطرة الذي يجعل التفكير بداية لا نهاية؛ لأن هناك من يستعمل الفطرة؛ بكون الإنسان بلا فطرة، وانتهى، لا الفطرة باعتبارها بداية للتفكير.

حينما دخل ـ في تقديري ـ الشيخُ محمد الخضر حسين بعقلية (الآفاقي) فتح فتحاً مبيناً في الحاضرة[1]، وفي جامع الزيتونة، بهذه القيم التي استلهمها من موطنه من «نفطة» كما استلهم الشيخ سالم بو حاجب، وغير هؤلاء الكثير الذين دخلوا إلى تونس، لا أذكر الشابي، لا أذكر الحداد، لا أذكر زعماء السياسة الذين جاؤوا من الآفاق، ودخلوا الحاضرة، فأهاجوا في الحاضرة نوعاً من التفكير غيَّر نزعة الثقافة التونسية العربية الإسلامية. وحينما أقول: تونسية، فإني أتكلم على ثقافة تونسية عربية إسلامية قومية.

هذا الجانب ـ في تقديري ـ مهم، والتفكير فيه ضروري، حتى ندرك فضل هؤلاء الذين جاؤوا إلى تونس، وفتحوا الفتح المبين، بأن جعلوا من النسق الفكري نسقاً فيه من الجرأة، وفيه من الشجاعة ما جعل الشيخ الخضر يكتب هذه الكتب، وأكثر منها غير موجود على المنصة.

النقطة الثانية: الجامع الأعظم في تونس حينما جاء الشيخ الخضر حسين، كان فيه ـ في تقديري ـ نزعتان: نزعة يترأسها الشيخ سالم بو حاجب، ونزعة يترأسها شيخ الإسلام أحمد بن الخوجة.

سأذكر حادثتين، وهما تكفيان عن الإبانة عن خصائص جامع الزيتونة بين هذين المفترقيْن:

---

(١) يطلق لفظ (الحاضرة) على مدينة تونس العاصمة.

الشيخ أحمد بن الخوجة كان هو شيخ الإسلام حينما دخلت فرنسا تونس ليلة ١٢ ماي ١٨٨١م، ولعله من الصدف أن مراسل جريدة «التايمز» أحدث معه حواراً، مختصرُ هذا الحوار هو ما يلي: كيف لك سيدي شيخ الإسلام، وأنت نصير الإسلام، ترتضي أن يُمضي الباي معاهدة فيها حماية أجنبي مسيحي غربي على تونس المسلمة الشرقية إلى آخره، كيف كان الجواب؟! جواب شيخ الإسلام هو: أنه لا يُمضي إلا بعد أن أمضى ولي أمره، وشأنه أن يكون خاضعاً لولي أمره، فالصادق باي أمضى، فعليّ أنا ـ شيخ الإسلام ـ أن أمضي. لا أريد أن أعلق، الأمر واضح.

الشيخ أحمد بن الخوجة هو الذي أفتى في مشكلة (الشوكولاته) (شوكولاته مينييل) التي دبَّ في تونس الحاضرة أن هذه الشوكولاته التي تأتي من مرسيليا كانت تصنع من شحم الخنزير، فعطّل الناس شراء هذه الشوكولاته، فأفتى في حِلِّية أكل الشوكولاته. هذا نموذج من شيوخ جامع الزيتونة، مع احترامنا لهم.

الشيخ سالم بو حاجب كان صفة أخرى من الآفاق، الذي جاء فحرر بالجرأة والشجاعة. أكتفي بأن أقول بأنه في المحاضرة التي افتتح بها دروس المدرسة الخلدونية سنة ١٨٩٧م، قال كلاماً ليس له من نظير لربما إلى يوم الناس هذا، وإذا قارنته بمحاضرة الشيخ محمد عبده في نفس المكان، وبعد سنوات، فإنني أرى البون بائناً بين الشيخ سالم بو حاجب، والشيخ محمد عبده؛ لأن الشيخ سالم بو حاجب خلاصة ما قاله، قال: إن العلوم الدينية لا ترقى إلا إذا ارتقينا بالعلوم الدنيوية، شرط الارتقاء بعلوم الشرع: الارتقاء بالعلوم الدنيوية. الشيخ محمد عبده قال، وأطال في الطريقة التقليدية في

استنهاض همة المدرسين والطلبة في جامع الزيتونة.

هاتان المقدمتان أردت بهما أن أشير إلى الوضع، البيئة، التي نشأ فيها الشيخ محمد الخضر حسين، وشارك فيها. كيف شارك؟

في تقديري، منظومة التطوير عند الشيخ محمد الخضر حسين فيها مجالات تحتاج إلى المراجعة، مراجعتنا نحن؛ لأننا ـ في تقديري ـ من المقصرين إزاء الشيخ محمد الخضر حسين وغيره من الذين كانوا أعلاماً، وأعطوا للفكر التونسي إلى يوم الناس هذا الثوابتَ التي ينبغي أن نعرفها، وأن نعرّف بها شبابنا على وجه الخصوص.

أول فكرة ـ في تقديري ـ جوهرية، هي فكرة العقل. كيف عاد الشيخ محمد الخضر حسين إلى منظومة العقل لتطوير المنظومة الدينية، العقل في تاريخ المسلمين له شأن كبير، ولكنه شأن منزلق من القوة إلى الضعف.

بدأ العقل اجتهاداً واستنباطاً، ونشراً للعلوم والمعارف، ثم ارتبط بالتقليد، والتقليد إنما هو كسر للعقل، واتباع لآراء البشر، وتبني الآراء المقلدة بدلَ العودة إلى القرآن والسنة، والتماس الحجج منهما. الشيخ محمد الخضر حسين حينما نظر إلى العقل كأني به يسترجع ما قاله أبو سليمان المنطقي، ابن بهرام السجستاني له كتاب عنوانه: «سوار الحكمة»، نقل عنه أبو حيان التوحيدي ما يلي، يقول: إن الشريعة حق، ولكنها ليست من الفلسفة في شيء، وإن الفلسفة حق، ولكنها ليست من الشريعة في شيء، فوجب الأخذ بهما في مكانين متوازيين؛ وصولاً إلى السكينة الإلهية، أو إلى الحكمة الإلهية.

انظروا العقل الذي كان صافياً إلى درجة التمييز بين الفلسفة، وهي واجب على المجتمع، والشريعة، وهي واجب على المجتمع.

لم ينفِ هذا بذاك كما سيحصل انطلاقاً من القرن الخامس إلى يوم الناس هذا تقريباً حينما أصبحت الفلسفة بدعة أو زندقة، وعلم الكلام بدعة. وما أدراكم أن المقَّري يخبرنا أن أمراء الأندلس كانوا يقتلون الفلاسفة تقرباً من العامة.

العقل عند الشيخ محمد الخضر حسين ـ والشاهد على ما أقوله مأخوذ من مجلة «السعادة العظمى» ـ هو المؤسس لكل تطوير في المنظومة الدينية الإسلامية.

فإذن العقل عند الشيخ هو أداة للتأسيس، وأداة لمراجعة الثقافة العربية الإسلامية.

الجانب الثاني: هو التطوير بالعودة إلى الأصل، وهنا من النقاط الجوهرية التي وجدتها واضحة لدى الشيخ في «السعادة العظمى».

ما معنى الأصل؟ كيف نعود إلى الأصل لنطوّر؟ كيف نعود إلى الوراء لنطوّر؟

هنا التمس الشيخ مبدأً جوهرياً يتمثل في مناقشة معنى الأصل، ما هو الأصل؟

الأصل عنده: هو مقتضى حديث نبوي شريف «خيرُ القرون قَرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، ما معنى هذا الحديث؟ القرن هو: الجيل، ثلاثة أجيال زكّاها النبي، وجعلها المرقاة إلى كل تطوير.

ما معنى العودة إلى الأصل؟ العودة إلى الأصل: العودة إلى القديم.

والقديم في مناقشة لطيفة بين الأستاذ عبد الوهاب بو حديبه، والمستشرق الفرنسي (جاك بيرك).

يعالج الأستاذ عبد الوهاب بو حديبة فكرة القديم، ويقول لجاك بيرك: القديم عندنا ليس نصّه عندكم. ثمة فرق كبير بين القديم عندنا بمقتضى العلاقة بين التجديد والقديم، يقول: القديم عندنا فترة من التاريخ، نعم، فترة من الزمان، نعم، حددت بالسنوات اثنين، ثلاثة، تسعين سنة، أو مئة سنة على أقل تقدير. هي في الزمان، ولكن أصبحت أنموذجاً على الزمان.

الاختراق، فترة الأصل فترة القديم من الزمان تسعين أو مئة سنة التي عاشها الصحابة بأخطائهم بالفتنة الكبرى، بما فيها من معايب، لكن بما فيها من الخصال الممارسة عن النبي، والتابعين عن الصحابة، وتابعي التابعين عن التابعين.

هذه الأشياء الثلاثة يقول الأستاذ عبد الوهاب بو حديبة ما لم يقله الشيخ، ولكن كان ليختصره اختصاراً. . . الفترة القديمة التي كانت في الزمان من الزمان، ولكنها أصبحت أنموذجاً الذي ينبغي أن يعود إليه البشر حتى يدركوا ثوابت الإسلام، حتى يستصلحوا أحوالهم في ضوء هذه الفترة القديمة؛ لأن شريعة الحق، شريعة الأصل: الفترة التي ذكرها «خير القرون قرني»، هي الشريعة تؤدي إلى حقوق الإنسان بلا منازع، ولكن الركام ساد على الفكر الإسلامي، الركام هو الذي أفقدها نظرتها.

هل يمكن أن نعد الشيخ مصلحاً في هذا السياق؟

أظن أنه نجنبه مصطلح الإصلاح بالمعنى الضيق، أما بالمعنى العام لعبارة الإصلاح، فنعم، لم يكن الشيخ محمد الخضر حسين مصلحاً كشأن الشيخ بيرم الخامس، وإن كان الشيخ بيرم الخامس متطوراً، أو غيره من الذين عاشوا؛ كخير الدين الذي تكلم عن الإصلاح، والطهطاوي، وكل الذين

تكلموا على موضوع الإصلاح بالمعنى الذي ذكرته.

الفكرة الأخيرة تتعلق بالتطوير انطلاقاً من القيم المدنية، وهذا لافت في نظر الشيخ؛ لأن العودة إلى الأصل، التطوير بالتفقه بالدين، هذا من شأن المنظومة الدينية الداخلية، ولكن للشيخ فكراً يدعو إلى تطوير المنظومة الدينية عبر القيم التي هي إسلامية محضة؛ كالوقت، كالعمل، كالعمران، هذه المصطلحات التي تناولها الشيخ في «السعادة العظمى».

هذه القيم التي كان يبدو أن ثقافة المسلمين كانت خالية منها، فجاء يدعو إليها بمقتضى الأصل، بمقتضى القرآن والسنّة، وبمقتضى حال الوقت، أو بمقتضى روح العصر الذي عاشه، وهو في سنة ١٩٠٤م، وقد أصدر مجلة «السعادة العظمى».

أريد أن أختم بأن الشيخ اهتدى لأول مرة في تونس إلى الصحافة الدينية.

صحافة، ما دورها؟ من كان يكتب فيها في تلك الفترة من ١٨٦٠ إلى ١٨٨٨م بجريدة الحاضرة إلى «السعادة العظمى»، وإلى المجلة «الزيتونية»؟

أقطاب الفكر التونسي كلهم كانوا يكتبون في الصحافة.

جلّ المفكرين التونسيين من المدرسيين، أو من المسجديين كانوا يكتبون في الصحافة.

أليس من الجرأة التي تعيدني إلى من جاء من «نفطة» حيث الاتساع إلى الحاضرة؛ حيث الضيق والمحبس، لكي ينشر قيماً في الصحافة التي كانت تقرأ في المقاهي الأدبية، وفي الجمعيات، وفي المنتديات؛ حيث كان عامة الناس من الذين يجهلون القراءة والكتابة، يصغون إلى من يقرؤون عليهم الصحف والمجلات، ومنها: «السعادة العظمى».

خاتمتـي: هي كـون الشـيخ لم يكن من الإصـلاحيين، بل كـان من التطويريين، لم يكن من المجددين، بل كان من التطويريين، وحسبه أنه نفخ في البلاد التونسية عبر «السعادة العظمى» هذه النسمات التي سيجني منها الفكر التونسي من خلال «المجلة الزيتونية» ما به يرسي ثوابت للفكر الديني.

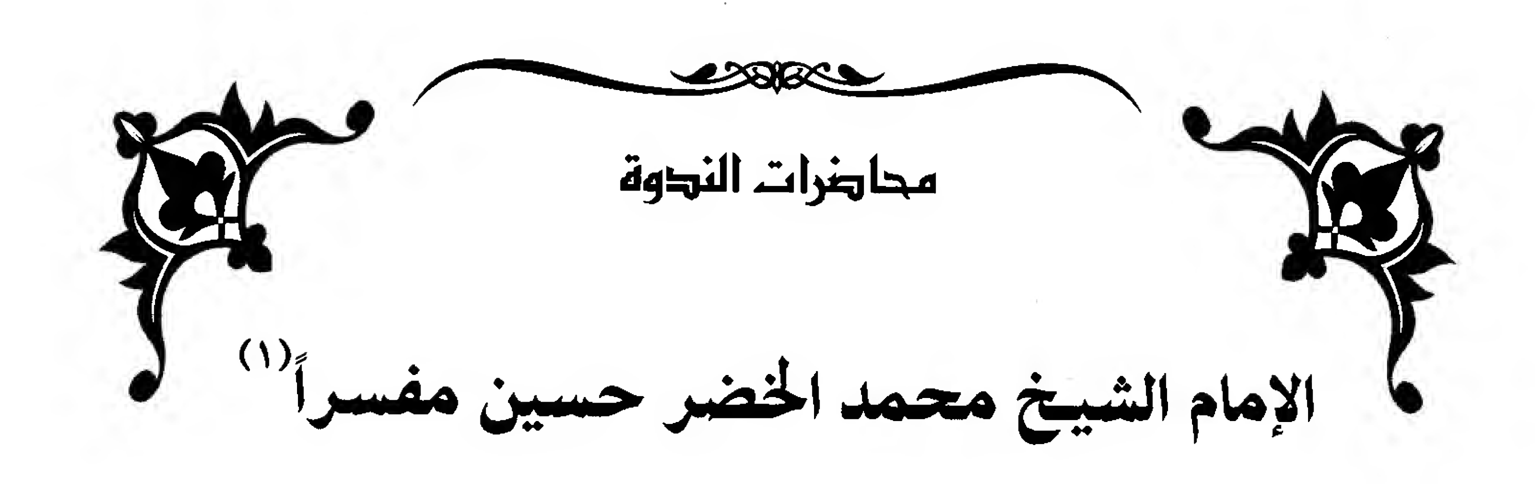
وكانت «السعادة العظمى» تجذف مع تيار لمجلة أخرى هي مجلة «العالم الأدبي» لزين العابدين السنوسي، وكانت نفحاتها تحديثية. و«المجلة الزيتونية» كانت تجذف مع تيار مجلة «المباحث»، وإن كانت ـ أيضاً ـ تحديثية.

انظروا هذا التوازي في المجلات الدينية التحديثية، كيف أننا إزاء تيارين هما اللذان سيصنعان هويتنا اليوم، فأية هوية نختار خارج هذا الاعتدال بين منابت دينية ومنابت حداثية.

وهذا ما أرساه فينا الشيخ محمد الخضر حسين.

وشكراً لكم على الصبر.





الإمام الشيخ محمد الخضر حسين مفسراً[1]

يُعَدُّ الشيخُ محمد الخضر حسين من روّاد الحركة الإصلاحية الإسلامية الحديثة؛ مثل: محمد عبده (١٨٤٩م ـ ١٩٠٥م)، ورشيد رضا (١٨٦٥م ـ ١٩٣٥م)، وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤م ـ ١٩٠٢م)، وسالم بو حاجب (١٨٢٨م ـ ١٩٢٥م)، وغيرهم.

ومِنَ المعروف أنَّ شخصيةَ الخضر حسين رجلِ «الهداية»، وصاحبِ «السعادة» شخصيةٌ ثريةٌ متعددةُ الاهتمامات.

فمنها: الاهتمامُ الصحفي الذي بدأ به نشاطه.

ومنها: الاهتمامُ التربوي؛ إذ اشتغل بالتدريس في جامع الزيتونة، والأزهر، والاهتمامُ الصحفي الإصلاحيُّ الإسلاميُّ التنويريُّ، والاهتمامُ الديني الذي يتبوَّأ مكانةً بارزةً في حياته، إنْ لم نقل: إنه يحتل الحيِّزَ الأَوفرَ في شخصيته.

وهو من رجال الفكر والأدب التونسيين مولداً ونشأةً، ساهم في إخصاب التراث العربي الإسلامي بإنتاج ثري ومتنوع في الحقلين الأدبي والديني؛ إذ كان ـ رحمه الله ـ «عَلَماً من أعلام الإسلام، وكان تعريفاً وتشريفاً للتونسيين

(١) محاضرة الأستاذ أنور بن خليفة ـ باحث ومدرّس في معاهد الجامعة الزيتونية.

وجامع الزيتونة، ومفخرةً للمغرب الإسلامي كلِّه»[1].

وقد كان الرجلُ ـ إلى جانب كلِّ ما ذكرنا ـ مُفَسِّراً للقرآن الكريم ـ كما تشهدُ بذلك آثارهُ ـ؛ إذ كانت أغلبُ آثاره تتصل بالعلوم الدينية مباشرة، وكانت الطاغيةَ على شخصيته الثقافية؛ مما يجعل آراءَه في المجال الديني تستحق بحثاً مفصلاً، وخاصة: تفسيره للقرآن الكريم.

والمُتَمَعِّنُ في إنتاج الخضر حسين في التفسير يُدْرِكُ ـ دونَ عناءٍ ـ أهميةَ منهجه في التفسير، واستقلاليتَه عن التفاسير السابقة والمعاصرة له، والحديثُ عن الشيخ محمد الخضر حسين مفسِّراً من خلال تفسيره «أسرار التنزيل»، وبقية آثاره يقتضي منّا التركيز على المسائل التالية:

أولاً: إنتاجه في التفسير.

ثانياً: مصادره في تفسير القرآن الكريم.

ثالثاً: منهجه في تفسير القرآن الكريم.

ولكن ـ باعتبار أنَّ ثقافةَ المفسِّر، واتجاهاتِه الفكريةَ، وما يسود عصرَه من علوم ومناهجَ واتجاهاتٍ وأحداث مختلفة، ينعكس غالباً على تفسيره ـ يجدر بنا أن نقف على بيئته، وتكوين شخصيته، ومختلف المراحل التي مرَّ بها في حياته.

والشيخُ محمد الخضر حسين صورةٌ عن عصره الثقافي، والبيئات المختلفة التي تقلَّبَ فيها؛ حيث وُلد في بلدة «نفطة» بالجنوب الغربي التونسي

---

(١) علي الرضا الحسيني (الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر) ـ مقال محمد الخضر حسين ذلك الجندي المجهول ـ بقلم عبد القادر سلامة ـ الدار الحسينية للكتاب، ط١/١٩٩٢/ م ص١٤٦.

يـوم (٢٦ رجب ١٢٩٣هـ/ ٢١ جويلية ١٨٧٣م)[١] في أسـرة شـريفة عُرِفَتْ بعلمها وفضلها. و«نفطة» مدينةٌ ذاتُ تاريخ، عُرفت بأثرها في العلوم الدينية والأدبية حتى لُقِّبَتْ «بالكوفة الصغرى»[٢]، فقد برز فيها عددٌ من كبار العلماء، كان لهم دورٌ بارزٌ في حفظ العلوم، ونقلها إلى الأجيال اللاحقة عنهم. وقد تميَّزت بكثرة مساجدها، وما كانت تقدِّمهُ للتلاميذ الوافدين عليها من تعليم وتكوين؛ إذ كان يقصدها طلبةُ العلم من الجزائر وتونس...

أما في أسرته، فقد عُرِفتْ أمه بثقافتها الواسعة، وحرصها الشديد على حسن تربيتها لأبنائها، وإشرافها على تعليمهم. وجدُّهُ للأم هو الشيخ مصطفى ابن محمد بن عزوز، وقد اشتهر أبوه الحسين بالعلم والورع والصلاح، تتلمذ على الصوفي الشهير الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري ناشر الطريقة الرحمانية[٣]. وخالهُ هو الشيخ محمد المكي بن عزوز العالمُ الجليلُ الذي وُلد سنة (١٢٧٠هـ/ ١٨٥٠م) بنفطة، واشتهر بنبوغه في الفنون الأدبية، والعلوم الرياضية، والعناية بعلوم الحديث، وكانت له وجهةٌ إصلاحيةٌ.

وقد أشار الشيخ محمد الخضر حسين إلى البيئة العلمية الأولى حيث تلقى تكوينه الأول، فحفظ القرآن الكريم، ودرَس الكتب الأولى في علوم

---

(١) اختلفت الروايات في ضبط تاريخ ميلاده:

- ذكر علي الرضا الحسيني سنة ١٨٧٤م في كل ما نشر من مؤلفات الشيخ.
- أبو القاسـم محمد كرو سـنة ١٨٧٦م في «أعلامنا» تونـس ١٩٧٤م، وكذلك «دائرة المعارف التونسية» (ج٣ ص٦٩٠).

(٢) محمد الفاضل بن عاشور «تراجم الأعلام» /١٩٧٠/ م، ص١٩٠.

(٣) محمد الفاضل بن عاشور «تراجم الأعلام» /١٩٧٠/ م، ص١٨٧.

اللغة والدين إذ يقول: «نشأت في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسي يقال لها: «نفطة»، وكان للأدب المنظوم والمنثور في هذه البلدة نفحاتٌ تهُبُّ في مجالس علمائها، وكان حولي من أقاربي وغيرهم من يقول الشعر، فتذوقتُ طعم الأدب من أول نشأتي، وحاولت وأنا في سن الثانية عشرة نظمَ الشعر»(١).

والتحق الخضر حسين سنة (١٣٠٧هـ/ ١٨٨٧م) بجامع الزيتونة، وكان متهيئاً لتلقي العلوم؛ لما أُتيح له من تكوين خاص، وقد وافق دخولُهُ حركةً إصلاحيةً عميقةً شملتْ العلومَ والكتبَ المقرَّرَةَ ومناهجَ التدريس، وكان لهذا الإصلاح أثرُهُ الإيجابيُّ في تكوين شخصيته، مع ما تلقاه من علم على عدد من الشيوخ الذين تأثر بهم، وتلقى عنهم العلمَ، ومن أبرزهم: الشيخُ سالم بو حاجب، والشيخ عمر بن الشيخ، ومحمد النجار (١٨٣٩م ـ ١٩١٢م). وبذلك فقد تلقى علومَه من شيوخ تميزوا بالبراعة في التدريس والمحاضرة، والتبحر في العلوم اللغوية والشرعية، وكان لهذا الاتصال أثرُهُ؛ إذ تجلَّت هذه الخصال فيه، وظهرتْ في مقالاته ومحاضراته.

ثم انتقل إلى سورية في ديسمبر ١٩١٢م؛ حيث استقر بدمشق مع عائلته، والدته وإخوته الأربعة الذين سبقوه إلى هناك، وخلال إقامته كان مثابراً على نفس النشاط العلمي والإصلاحي الذي كان يقوم به في تونس، فكان يكتب المقالاتِ في الصحف والمجلات، ويلقي المحاضرات. وقد امتازت هذه المرحلة من حياته في سورية بكثرة التنقل والسفر بين البلدان العربية والأوروبية خاصة.

---

(١) محمد الخضر حسين ديوان «خواطر الحياة»، القاهرة سنة ١٩٥٣م، (ص٥).

ومن سورية انتقل إلى مصر في ٢٤ جويلية ١٩٢٠م؛ حيث قضَّى فيها بقية عمره. وقد توجَّهَ اهتمامُه إلى تأسيس الجمعيات، وواصل نشاطَه العلمي والثقافي؛ إذ كان يلقي المحاضرات والدروسَ الدينية بالمساجد، ويكتب المقالات في بعض الصحف والمجلات لخدمة الإسلام والمسلمين. وانتُدِب للتدريس بالأزهر في قسم التخصص سنة (١٩٢٧م)، وبلغ مجدَه العلمي والديني حيث أصبح شيخاً للأزهر يوم الأربعاء (٢٧ ذو الحجة سنة ١٣٧١هـ/ ١٧ ديسمبر ١٩٥٢م). وواصل جهودَه العلمية، فكان ينشر البحوثَ الدينية والمقالات في بعض المجلات؛ مثل: «لواء الإسلام»، التي كان أحد المشرفين عليها، ومحرراً لقسم تفسير القرآن الكريم فيها تحت عنوان: «أسرار التنزيل»، ثم جُمعت هذه البحوث في كتاب واحد يحمل نفس الاسم، بعد أن قام علي الرضا الحسيني بجمعها وتحقيقها. وبذلك فلقد تكونت شخصية الخضر حسين تكويناً شاملاً بعد أن مرَّ بمراحل عديدة، واتصل بشخصيات علمية.

ولئن امتازت المرحلة الأولى التي قضاها بتونس بالتعليم والتكوين، واختصت المرحلة الثانية التي قضاها بالشام، وبعض البلدان العربية والأوروبية بكثرة التنقل والترحال، فإن المرحلة الأخيرة التي سماها محمد الفاضل بن عاشور (١٦/ أكتوبر ١٩٠١م ـ ١٩/ أفريل ١٩٧٠م): «مرحلة المجد الثقافي والشهرة العلمية»[1]، هي التي عرف فيها أعلى المراتب العلمية، وأشرف على مشيخة الأزهر.

---

(١) في محاضرة ألقاها بمناسبة أربعينية الشيخ محمد الخضر حسين في ٢٠ مارس ١٩٥٨م محمد مواعدة «محمد الخضر حسين حياته وآثاره» (ص٨٦).

وقد تبين لي: أن للشيخ محمد الخضر حسين مكانة علمية كبيرة، وأنه يتميز بسعة المعارف، وتنوع المؤلفات وغزارتها. فهو القائدُ الذي واجه الاستعمارَ الفرنسي في تونس، فعمل على استنهاض الشعب بإبراز قيمة الحرية في الإسلام، وقد دفع ثمنَ ذلك الهجرةَ من الوطن الذي نشأ فيه وترعرع.

وقد واجه تسلُّط أحمد جمال باشا وجبروته في دمشق، خاصة مع المفكرين ورجال النخبة المثقفة، فعمل على بث العلم في صفوف شبابها من خلال تدريسه بالمدرسة السلطانية، وشحذ همم رِجالها من خلال إلقاء المحاضرات العلمية بالجامع الأموي. فدفع ثمنَ ذلك السجنَ والتعذيبَ. وتصدَّى لخطر فكر أراد النيل من الدين الإسلامي وسماحته في مصر، فنقض كتابي: علي عبد الرازق، وطه حسين، وعمل على تنظيم النظم الاجتماعية وتطويرها «من خلال بعث الجمعيات»، وأثرى الحياة الفكرية «إنشاء المجلات»، فلاقى جزاءَ ذلك التدريس بالأزهر قرابة العشرين سنة، ودخول هيئة كبار العلماء، وتقلّد مشيخة الأزهر.

وقد ساهمتْ هذه المحطاتُ في إثراء الزاد المعرفي والفكري للشيخ؛ حيث لاقى في كل مرحلة علماءَ الأمة وأقطابَها، وهو ما ساهم في بلورة فكرهِ الديني، وترجيح كفّة العلوم الدينية في كتاباته، ترجيحاً توَّجَهُ باتجاهه إلى علم التفسير من خلال كتاب «أسرار التنزيل»، الذي وضعه بداية من سنة (١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م).

أولاً ـ إنتاجه في التفسير:

طرق الخضر حسين بابَ التفسير، فعقد دروساً دينية في تفسير القرآن

الكريم[١]، وكَتبَ في المجلات[٢]، وقد جُمعت وطُبعت ووُزِّعَتْ ليعمَّ نفعُها، ويزدادَ أثرُها، وقد «استمر في هذا العمل الجليل حتى أثقلتْهُ السنون، وقد قارب عمرُه الطاهرُ الثمانين عاماً»[٣].

ولم تكن هذه الدروسُ والكتاباتُ على شيء من الكثرة، فلم يكن مقدارُ ما تناولـه من آيـات القرآن بالمقدار الكبير الذي كنّـا نرغـب في أن تُزوَّد به المكتبة الإسلامية.

وإذا نحن ذهبنا نستقصيه، فإنا نجده في تفسيره لسورة (الفاتحة)[٤].

وكـذلك قـام بتفسـير القسـم الأكبـر من سـورة (البقـرة) من بدايتهـا إلى الآية ١٩٣ من قوله سـبحانه وتعالـى: ﴿. . . فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٩٣][٥].

---

(١) دروس التفسير التي ألقاها في بعض النوادي والجمعيات الإسلامية والمساجد، ونشرت في مجلة «الهداية الإسلامية» التي كان يصدرها المؤلف في القاهرة.

(٢) مجلة «لواء الإسلام» التي كانت تصدر بالقاهرة، وكان رئيساً لتحريرها بدءاً من العدد ١ الصادر بتاريخ الأول من شهر رمضان لعام (١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م) حتى العدد الثاني عشر من السنة الرابعة، والصادر في شهر شعبان لعام (١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م).

(٣) علي الرضا الحسيني ـ تقديم كتاب «أسرار التنزيل» الذي قام بجمعه، وصدر سنة ١٩٧٦م.

(٤) مجلة «لواء الإسلام»، العدد الأول من السنة الأولى/ كتاب «أسرار التنزيل» من (ص٧ إلى ١٢).

(٥) مجلة «لواء الإسلام» من العدد الثاني إلى العدد السابع السنة الأولى/ كتاب «أسرار التنزيل» (١٣ ـ ٣١١).

وقام بتفسير آيتيْ سورة (البقرة) (١١٩ ـ ١٢٠) من قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾[البقرة: ١١٩] إلى قوله ﴿ . . . مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[البقرة: ١٢٠][(١)].

تفسير الآيات (٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥) من سورة (آل عمران)؛ أي من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ . . . ﴾[آل عمران: ٥٢] إلى قوله: ﴿فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾[آل عمران: ٥٥][(٢)].

تفسير الآية (١٥٩) من سورة (آل عمران) من قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ . . . ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران: ١٥٩][(٣)].

تفسير الآيات (٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦) من سورة (الأنفال) من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ . . . ﴾[الأنفال: ٢٤] إلى قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[الأنفال: ٢٦][(٤)].

تفسير الآيات (٦٢ ـ ٦٣ ـ ٦٤ ـ ٦٥) من سورة (يونس) من قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ . . . ﴾[يونس: ٦٢] إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[يونس: ٦٥][(٥)].

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الأول من المجلد الحادي عشر/ كتاب «أسرار التنزيل» (٣١٨ ـ ٣٢٢).

(٢) ن م ـ الجزء الثاني من المجلد الثامن عشر/ كتاب «أسرار التنزيل» من الصفحة (٣٢٣ ـ ٣٢٨).

(٣) ن م ـ ج٣ مج ١١/ كتاب «أسرار التنزيل» من الصفحة (٣٢٩ ـ ٣٣٣).

(٤) ن م ـ ج٢ مج ١١/ كتاب «أسرار التنزيل» من الصفحة (٣٣٤ ـ ٣٤٠).

(٥) محمد الخضر حسين كتاب «أسرار التنزيل» من الصفحة (٣٤١ ـ ٣٤٥).

تفسـير الآيتين (٢٧ ـ ٢٨) من سورة (الحج) من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ . . .﴾[الحج: ٢٧] إلى قوله: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[الحج: ٢٨][1].

قام بتفسير خمس آيات (٢١ ـ ٢٥) من سورة (صٓ) من قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ . . .﴾[صٓ: ٢١] إلى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[صٓ: ٢٥][2].

ونجد من آثار الخضر حسين في التفسير تلك الدروسَ التي ألقاها في الأزهر الشـريف «محافظة على سُـنَّة الكثير من أهل العلم حيـث يمـرُّون بالأزهر»[3]، فقام بتفسير الآيات:

(١٢٢) من سورة (التوبة) من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً. . .﴾ إلى آخر الآية.

(٢٦) من سورة (غافر) من قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ . . .﴾ إلى آخر الآية.

(٢٢) من سورة (الأنبياء) من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ . . .﴾ إلى آخر الآية.

---

(١) مجلة «لواء الإسلام»، العدد ٤ من السنة ١ ـ كتاب «أسرار التنزيل» من الصفحة (٣٤٦ ـ ٣٥٠).

(٢) مجلة «الهداية الإسلامية»، ج٤ من المجلد ١١ ـ كتاب «أسرار التنزيل» من الصفحة (٣٥١ ـ ٣٥٨).

(٣) محمد الخضر حسين من دروسه في التفسير التي ألقاها في الأزهر ـ نشرت بجريدة «الزهرة» يوم الثلاثاء (١٧ ربيع الثاني ١٣٣١هـ/ ٢٥ مارس ١٩١٣م).

(٦٩) من سورة (يسٓ) من قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ . . .﴾ إلى آخر الآية[١].

وقام بتفسير الآيات (٢١ ـ ٢٢) من سورة (البقرة) من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ . . .﴾[البقرة: ٢١] إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٢][٢].

وكذلك نجد له بعض البحوث التفسيرية عالج فيها بعض مشكلات القرآن، ودفع بها بعض ما أثير حول القرآن من شكوك وإشكالات؛ كشرحه لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ . . .﴾[القيامة: ٣][٣].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا . . .﴾[الأعراف: ١٥٧][٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . . .﴾[الأنعام: ٢٠][٥].

وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ

---

(١) ن م.

(٢) ملخص درس من دروس التفسير التي كان يلقيها في دار (جمعية الهداية الإسلامية) بالقاهرة ـ وقد نشر في مجلة «الهداية الإسلامية» ج١٢ من مج١٣ ـ كتاب «أسرار التنزيل» من (٣١٢ ـ ٣١٧).

(٣) «محمد رسول الله وخاتم النبيين» (ص٤٤).

(٤) ن م ص٤٥ ـ ٤٦.

(٥) ن م ص٤٦.

وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ . . . ﴾[يس: ٣٦][1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ . . . ﴾[التوبة: ٦][2].

وكانت له بعض المقالات المتضمنة لتفسير بعض الآيات؛ مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ . . . ﴾[الكهف: ٢٠][3].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ . . . ﴾[النساء: ١٣٥] إلى قوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[النساء: ١٣٥][4].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ . . . ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[البقرة: ١٥٩][5].

هذا كلّ ما للخضر حسين ـ رحمه الله ـ من إنتاج في التفسير، وهو ـ على قلّته ـ عملٌ كبيرٌ وعظيمٌ، بالنظر لما يهدف إليه من إصلاح، وما يحمل في طياته من توجيه حَسَنٍ في التفسير، وحَسْبُ الشيخ أن يكون قد لفت قلوباً كثيرة من المسلمين إلى القرآن بعد أن أعرضوا عن هديه، وضلوا عن إرشاده، وتلك حَسَنَةٌ نرجو له برّها وذخرَها عند الله تعالى.

وهذه القلة في التفسير لا تعني مطلقاً أن الشيخ لم يكن مطلعاً على

---

(١) ن م ص٤٨.

(٢) ن م ص١٠٨.

(٣) ن م ص١٠٩.

(٤) ن م ص.

(٥) «محمد رسول الله وخاتم النبيين» (ص١١٠).

ما كتبه أهم أعلام التفسير، سواء ممن سبقه، أو من عاصره، وهو ـ كما ذكرنا سابقاً ـ يُمضي أغلب أوقاته في القراءة والاطلاع على أمَّهات الكتب، وهو ما يوضِّح بصورة جلية تنوُّع مصادر الشيخ في التفسير وثراءَها.

ثانياً ـ مصادره في تفسير القرآن الكريم:

كان الشيخ يستند في تفسيره للقرآن الكريم على كتاب الله تعالى ذاته؛ إيماناً منه بأنه مصدر للتفسير؛ باعتبار أن ما أُجمل في موضع قد فُصِّل في موضع آخر، وما أُبهم في آية قد عُيِّن في آية أخرى. . .

وكان يستند ـ أيضاً ـ إلى سنّة رسول الله ﷺ، وبيان السلف من الصحابة والتابعين استنادَه إلى أساليب اللغة والبلاغة، وما كتبه المفسرون، ولكنه لم يُلْغ عقله، بل كان يضع هذه المصادرَ والمراجعَ كلَّها أمام نظره.

وقد كان الخضر حسين ينهج في الإشارة إلى مصادره ومراجعه الطرقَ التالية: إما أن يصرِّح باسم المؤلف، ولا يذكر اسم الكتاب. وإما أن يذكر اسم الكتاب، ولا يصرِّح باسم المؤلف. وإما أن يصرح باسم المؤلف والكتاب معاً. وسوف أستعرض مصادر الخضر حسين من خلال ثلاثة أوجه رئيسية:

أولاً: مصادره في التفسير وعلوم القرآن.

ثانياً: مصادره في الحديث وعلومه.

ثالثاً: مصادره في اللغة والنحو والآداب.

أولاً ـ مصادره في التفسير وعلوم القرآن:

التفسير: إن المتأمل في تفسير الخضر حسين يقف على مصادر متنوعة في العلوم الإسلامية الأساسية، وخاصة التفسير، وكان اعتماده الأكثرُ في هذا العلم على تفسير الزمخشري (ت٥٣٨هـ) «الكشّاف»، وابن العربي

(ت٦٣٨هـ) في تفسير آيات الأحكام «واضح السبيل إلى معرفة قانون التأويل بفوائد التنزيل»، و«كشف المعاني» لابن جماعة (١٤٢٢م ـ ١٤٥٧م)، وتفسير القاضي البيضاوي (ت٦٥٨هـ/ ١٢٨٦م) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل».

وبرغم أنه لا يغفل عن ذكر المصادر والمراجع التي ينقل عنها، إذ تجده في عديد المقالات يعدد كتب التفسير التي نهل من معينها، والتي ركز عليها في أثناء تفسيره للقرآن الكريم، فهذا لا يعني حصره لكل ما جاء في تفسيره من مراجع، فقد نجد الكثير مما لم يتطرق إليه بالذكر؛ إذ نجده رجع في بعض المواضع إلى كتب «شروح الكشاف» للجرجاني (١٣٤٠م/ ١٤١٣م)، وابن جريج (٦٩٩م/ ٧٦٧م)، والطبري (ت٣١٠هـ)، ويكتفي ـ في بعض الأحيان ـ بالإشارة إلى ذلك بالقول: «ذهب كثير من المفسرين إلى»، و«قال المفسرون»، «جمهور المفسرين»، دون الإشارة إلى الكتب.

وبذلك فإن الخضر حسين في اعتماده على بعض أعلام المفسرين قد انتهج الطرق التالية:

ـ نقل بعض المواقف والأفكار والآراء، ومخالفتهم في مواقف أخرى؛ كما فعل مع الزمخشري.

ـ مجرد النقل الحرفي لمواقف مفسرين آخرين طالما اعتبرهم معلمين له، ودرسهم لتلاميذه، فالتقى معهم في الأفكار والآراء؛ مثل: البيضاوي، وابن العربي.

ـ الاعتماد على بعض المفسرين لتدعيم مواقف يراها، وذلك قصد تدعيم وإثبات توجهاته.

علوم القرآن: اعتمد الخضر حسين في مجال علوم القرآن على السيوطي

(١٤٤٥م/ ١٥٠٥م) في «الإتقان»؛ إذ نجده يُكثر من الرجوع إليه في أغلب مقالاته المتعلقة بالقرآن، وخاصة في تفسيره «أسرار التنزيل».

وللإشارة، فإن السيوطي قد مثّل مصدراً أساسياً في علوم القرآن بالنسبة لجميع المفسرين من بعده، وخاصة في العصر الحديث.

ثانياً ـ مصادره في الحديث وعلومه:

الدَّارسُ لتفسير الخضر حسين «أسرار التنزيل»، والمُطَّلعُ على بقية آثاره، يعثر ـ دون عناء ـ على مصادره من الحديث النبوي التي يعتمد عليها.

والملاحظ: أن مجموعة من الكتب وأصحابها كانت تتصدر القائمة، وأخرى لم تزد الإشارة إليها على مرة أو مرتين خلال تفسيره للقرآن الكريم.

أما أكثرُ هذه المصادر التي كان كثيراً ما يعود إليها، ويستقي منها ـ فيما بدا لي ـ، فهي: «صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، و«سنن التّرمذي»، و«النسائي»، و«موطأ مالك»، و«السنن الكبرى للبيهقي»...

وهي ـ في مجملها ـ أصحُّ الكتبِ المتضمنةِ لأحاديث الرسول ﷺ. ولا غرابةَ في أن تحتلَّ الأولويةَ في مصادره، ذلك أنه التزم بضرورة الأخذ بما صحَّ من الأحاديث.

أمّا منهجُهُ في ذلك، فهو الرجوعُ إلى سائر المصادر الأخرى؛ من حيث ذكرُ المرجع ومؤلفه معاً، أو ذكر المرجع دون الإشارة إلى اسم مؤلفه، أو الاكتفاء بالإشارة إلى صاحب المرجع فقط.

وبذلك فإن الخضر حسين قد حافظ على سُنَّة المفسرين في اعتماد الحديث النبوي لتفسير القرآن الكريم، معتمداً على أهمّ الكتب في الحديث، وقد كان أميناً في نقله عن المحدّثين برغم أنه يكتفي بالإشارة فقط إلى

مصدر الحديث بصيغة تدل على درجة الحديث فقط. وفي بعض الأحيان يذكر الحديث بالمعنى دون المحافظة على الألفاظ التي ورد بها الحديث.

ولئن كان مُقَلِّداً في اعتماد الحديث للتفسير، فإن كتابه يخلو من الضعيف والموضوع، متجنباً الخوض في بعض الاختلافات الحاصلة حول رفض بعض الأحاديث.

وبذلك تظهر إضافة الخضر حسين في مجال الاعتماد على الحديث في أنه تجاوز سُنَّةَ القدامى من المفسرين في ذكر أسانيد الأحاديث، ولم يُثقل قارئ تفسيره بأسماء الرواة.

ثالثاً ـ مصادره في اللغة والنحو والآداب:

ما تجب الإشارة إليه: أن المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في هذا المجال عديدة ومتنوعة، وليس من قبيل المبالغة إذا قلنا: إنها تفوّقت على جميع المصادر التي اعتمد عليها في تفسيره، برغم أنه نادراً ما يذكر المصدرَ أو صاحبَه.

ومن الملاحظ: أنه لا يقتصر في استشهاده بآراء أغلب هؤلاء الأئمة على التأييد فقط، بل كان يخالفهم الرأي، أو يُفنِّد ما أقرُّوه، برغم أنه يُظهر نفسَه بمثابة التلميذ المتعلم من شيخه، والساعي إلى الاستفادة بمذاهبهم في النحو، فهو غالباً ما يسعى لتقريب وجهات النظر، والعمل على تقليص الهوَّة والاختلافات، خاصة في فهمه لآيات الذكر الحكيم.

ومن أكثرِ الأسماء التي تداولها في تفسيره «أسرار التنزيل»، ابن هشام (ت٧٦١هـ) في كتابه «مغنى اللبيب»، وعبد القاهر الجرجاني (ت١٠٧٨م) في كتابيه: «أسرار البلاغة»، و«دلائل الإعجاز»، وسيبويه في «الكتاب»،

ثم السكاكي (ت١٢٢٩م)، والزجاج (ت٩٢٣م)، والكسائي (ت٨٥٠م). . .

وتتعدد الأسماءُ في مختلف الكتب، وكذلك تتالت أسماءُ عديدةٌ للعلماء الذّين اهتموا بالقرآن من حيث دراسةُ معانيه وإعجازه البياني واللغوي؛ من أمثال: الكسائي، والزمخشري، وابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، والفيروزبادي (ت١٤١٥م)، الذي يشير إليه دائماً بصاحب «القاموس».

وله مصادرُ في فنون أخرى متنوعةٌ؛ مثل: التراجم والسير، والتاريخ والعلوم. . . رأيتُ أن لا أذكرها، إذ لو جمعتُ كل ما ذكر من مؤلفات ومصنفات، لاستغرق مني ذلك حيزاً كبيراً، ولكن اقتصرت على ذكر نماذج منها، علّها توضِّح منهجه في مساره الفكري والثقافي، وخاصة في تفسيره للقرآن الكريم.

ثالثاً ـ منهجه في تفسير القرآن الكريم:

يمكن استخلاص منهج الشيخ محمد الخضر حسين في التفسير من خلال تعريفه لعلم التفسير، وتحديد موضوعه وأغراضه، وهو يراه: علماً «من أشرف الصناعات؛ لأن موضوعَه كلامُ الله تعالى، والغرضُ منه الاعتصامُ بالعُروة الوثقى، مع أن الناس في حاجة شديدة إليه. . .»[1].

وهو ـ في نظره ـ ينبني على علوم كثيرة شرعية ولغوية، من ذلك: أنه يرى من شروط المفسر «أن يكون عارفاً بعلوم اللغة العربية، وفنون بلاغتها. . .»[2].

(١) محمد الخضر حسين «بلاغة القرآن» (ص٢٣).

(٢) ن م ص.

وقد بيَّنَ الغرضَ من علم التفسير، فحدَّدَ له أمرين أساسيين: فهمَ معاني القرآن المُمَكِّنَ من استخراج أحكامه، والاستدلالَ به على صدق النبوة؛ إذ يقول: «أُنزل القرآن لمقصدين ساميين: **أولهما**: هداية البشر إلى سبل السعادة في الحياتين الدنيا والآخرة، **وثانيهما**: دلالته على صدق الرسول ﷺ فيما ادّعاه من الرسالة التي هي مطلعُ تلك الهداية العامة، فكان أعظمَ معجزةٍ وأخلدَها على وجه الأرض»[1].

هذه أهمُّ الأغراض التي حرص على بيانها من خلال تفسيره، وقد تعرَّض في مجمل آثاره، وفي أثناء حديثه عن التفسير إلى أنواعه، فذكر التفسيرَ بالمأثور، والتفسيرَ بالرأي، وخصائصَ كلٍّ واحد منهما، وبعضَ نقاط الضعف فيها؛ مثل: الإسرائيليات في التفسير بالمأثور.

أما التفسير بالرأي، فقد جاءه النقص من ناحيتين: عدم الأخذ بأحاديث الرسول ﷺ في التفسير من ناحية، أو بعدم الموافقة لما تقتضيه قواعد اللغة أو بلاغتها من ناحية أخرى.

كما ذكرَ بعضَ أنواع التفسير التي اعتُبرت مخالفةً للحكم المقصود من التفسير، بل خرج البعضُ منها عن الدين وأصوله، وخالف أحكامَه، وأهمُّها: التفسير الإرشادي، والتفسير الباطني.

أما المنهجُ الذي اتبعه في تفسيره للقرآن الكريم، والوسائل التي اعتمدها لبيان ما فيه من أهداف سامية، وأغراض ومعانيَ جليلةٍ، فيقوم على أسس ثلاثة، هي: **اللغة، المأثور، والرأي**.

---

(١) محمد الخضر حسين «بلاغة القرآن» (ص٢٦).

ولا يعني التّركيز على هذه الدّعائم أنّ مباحثه لم تستند إلاّ عليها، وإنما هي ركائزُ بدتْ أكثرَ وضوحاً، ورأيتُ أنها الأجدرُ بالدراسة والتّحليل، إضافة إلى تضمُّنِها موضوعاتٍ مهمّةً على صلة وثيقة بموضوع عملنا.

الأساس الأول ـ اللغة:

إن الأساسَ الأولَ ـ وهو اللغة ـ استحوذ على النصيب الأوفر، ولأن «خلفية المفسر العلمية تبدو في تفسيره واضحة، وقد تطغى على الجوانب العلمية الأخرى في تفسيره، فالزمخشري العالم المفسر اللغوي ظهرت آثار بلاغته وتقدمه في تفسيره الكشاف»[١].

فقد ظهرت براعةُ الخضر حسـين، وقدرتُه في اللغة في تفسيره للقرآن الكريم؛ بحيث يمكننا اعتباره تفسيراً لغوياً. وتعتبر اللغة في تفسيره من أهم وأبرز الأسس التي قام عليها، واسـتوى على سـوقه، بل هي العَصَبُ الذي يشدُّ أركانَ هذا التفسـير ويُقوِّيه، ويميِّزه ويتميز به. فهو يقدِّم علوم العربية على ما سواها في مجمل آثاره، وذلك لأهميتها العظمى عنده؛ إذ يقول في ذلك:

«. . . يفهمه (القرآن) كل من له إلمام باللغة العربية، سواء عليه كان خبيراً بطرق البلاغة، أم فاقد الإحساس التي يتذوق به طعمها. . .»[٢].

ومن خلال تفسيره للقرآن الكريم تبين لي: أنه عَكَفَ في مجمل مباحثه المتعلقة بالعربية على:

---

(١) مرتضى محمد تقي الإيراواني «الشيخ الطبرسي وآراؤه النحوية من خلال كتابه: مجمع البيان» رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة١٩٨٠م (ص٩١).

(٢) محمد الخضر حسين «بلاغة القرآن» (ص١٢).

- المعجم.
- النحو والإعراب.
- علم البلاغة (المعاني، البيان، البديع).
- **المعجم**: يعتمد الخضر حسين اعتماداً كبيراً على اللغة، فيهتم:

بيان المفردات: اهتم الشيخ بإيضاح المفردات القرآنية، وبيان أصولها اللغوية العميقة؛ ليوفر لقارئ كتاب الله تعالى معرفةً بأصول كلام العرب الذي به نزل القرآن، ويكون أقدرَ على فهم النصوص التي تتألف من مثل هذه المفردات. والأمثلة توضِّح ذلك: قال في شرح كلمة «الفاسقين» من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[البقرة: ٢٦].

«الفاسقون: جمع فاسق. وهو في أصل اللغة: الخروج. يقال: فَسَقَت الرطبة من قشرها؛ أي: خرجت منه. وشرعاً: الخروج عن طاعة الله، فيشمل الخروجَ من حدود الإيمان، وهو الكفر، ثم ما دون الكفر من الكبائر والصغائر. ولكنه اختص في العرف من بعدُ بارتكاب الكبيرة. ولم يُسمَع الفسق في كلام الجاهلية بمعنى الخروج عن الطاعة. فهو بهذا المعنى من الألفاظ الإسلامية، وقَصْر الإضلال بالمثل على الفاسقين إيذانٌ بأن الفسق هو الذي أعدَّهم لأن يضلوا به؛ حيث إن كفرهم قد صرف أنظارهم عن التدبر فيه حتى أنكروه..»[1].

- **عنايته بالاشتقاق**: اهتم الخضر حسين بالاشتقاق في تفسيره، وذلك

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٤٨). (انظر ـ أيضاً ـ: أمثلة أخرى (ص٣٢٣، ص٣٥٠).

لأنّ معرفة اشتقاق الكلمة يزيد في بيان معناها، ويوضحه. ومن أمثله ذلك: يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[البقرة: ١٨٠].

«... والوصية: اسم من أوصى يوصي، فهو بمعنى: الإيصاء، وقد تستعمل بمعنى: الموصى به. ومعنى الجملة: إذا حضر أحدكم الموت، وقد ترك مالاً كثيراً، وجب عليه الإيصاء بجانب منه لوالديه: أبيه وأمه، وأقاربه، وبدأ بالوالدين؛ لعظم حقهما...»[١].

- **معاني الحروف**: ومن نماذج ذلك نذكر ما قاله في تفسيره للآية: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾[البقرة: ١٩]:

«و(من) في قوله تعالى: (من الصواعق) للتعليل، وإنما كانت الصواعقُ داعيةً إلى سدِّهم آذانَهم بأصابعهم؛ من جهة أنها قد تُفضي بصوتها الهائل إلى الموت. وجاء هذا صريحاً في قوله تعالى: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، يقال: صعقته صاعقةٌ: إذا أهلكته بشدّة صوتها، أو بالإحراق. والمعنى: يسدُّون آذانهم من أجل الصواعق حذراً من أن تقتلهم بروعة صوتها»[٢].

كما يعتمد الخضر حسين على النحو والإعراب، وقد تميز منهجه في ذلك بخصائص عديدة منها:

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٢٨٧). (انظر - أيضاً -: أمثلة أخرى (ص١٤، ص١٥).

(٢) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٣٤). (انظر - أيضاً -: أمثلة أخرى (ص١٨٦، ص٣١٦).

*** المزج بين المباحث النحوية والبلاغية:**

كان كلَّما تعرَّض لآية خلال تفسيره للقرآن الكريم، ذكرها بطريقة تدل على تمكنه من المادة التي يتناولها، مع ما عُرف به من الجمع بين المباحث النحوية الإعرابية، والمباحث البلاغية عند إعراب الآية الواحدة.

فقد يبدأ بإعراب الآية إعراباً نحوياً، ويفاجئ القارئ بالدخول إلى مبحث بلاغي في نفس الوقت واللحظة، ومن نماذج ذلك تفسيره الآية الكريمة:

يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[البقرة: ٢٦].

«وأمَّا: حرف تصدَّر به الجملة للتأكيد. تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدْتَ تأكيدَ ذلك، وإفادةَ أنَّ ذهابَه واقع لا محالة، قلت: فأما زيد فذاهب، والضمير في قوله: (أنه) يعود على المثل، أو على ضربه من قوله: ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾[البقرة: ٢٦]. والحق: خلاف الباطل، وهو الثابت الذي لا يسوغ إنكارُه. ووجه كون المثل أو ضربه حقاً: أنه يوضح المبهم، ويفصل المجمل، فهو وسيلة إلى تقرير الحقائق وبيانها.

وقال: (أنه الحق) معرَّف بـ «ال»، ولم يقل: أنه حق؛ للمبالغة في حقيقة مثل. ومن المعروف في علم البيان: أن الخبر قد يؤتى به معرَّفاً بـ «ال»؛ للدلالة على أن المخبر عنه بالغ في الوصف الذي أخبر به عنه مرتبة الكمال. وأشار إلى ما يتلقى به الكافرون هذه الأمثلة عندما تتلى عليهم، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾[البقرة: ٢٦]».

«ماذا: ما الذي. والإرادة في أصل اللغة: نزوع النفس إلى الفعل. وإذا أُسندت إلى الله تعالى، دلَّت على صفة له تتعلق بالممكنات. فيترجح بهذا أحدُ وجهَي المقدور. وقد كان جائزَ الوقوع، وعدم الوقوع. وقوله: (مثلاً) واقعٌ موقع التمييز لاسم الإشارة. هذا كقولك لمن أجاب بجواب غير مقبول: «ماذا أردت بهذا الجواب؟». وكلامُ هؤلاء الكافرين هي لفظة استفهام عما أراد الله من الأمثال، ومعناه: استحقارٌ لهذه الأمثال، وإنكارٌ لأن يكون الله قد ضربها للناس»[1].

*** كثافة المادة النحوية:**

تكثفت المادةُ النحويةُ الواردةُ خلال إعراب الشيخ محمد الخضر حسين للآيات القرآنية، حتى أصبحتْ سِمةً تميَّز بها منهجُه الذي اعتمد فيه على ثقافته اللغوية النحوية دون العودة إلى ذكر مصادره، منها ـ على سبيل المثال ـ تفسير لقوله تعالى: ﴿. . .وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ . . .﴾[البقرة: ٥٨].

«. . . الحِطَّة: مِنْ حَطَّ بمعنى: وضع. وقد وردتْ هذه الكلمة وهي مفردة في معرض الحكاية بالقول: (وقولوا حطة)، والمعروف أن القول لا يُحكى به إلا الجُمل، ولا يُحكى به المفردات إلا أن يكون المفرد في معنى الجملة. . .

ومن أقرب ما تفسر به الجملة: أن يكون (حطة) مصدراً مراداً منه طلبُ حِطَّةِ الذنوب. وقد يجيء المصدرُ المرادُ منه الطلب مرفوعاً؛ نحو:

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٤٧)، (انظر ـ أيضاً ـ: أمثلة أخرى (ص٢٠).

«سلام عليكم»، ويُحمل من جهة صناعة الإعراب على أنه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: مسألتنا حطة؛ أي: أن تحط عنا ذنوباً، والاقتصارُ في لفظ الجملة على الخبر وحده لقيام قرينة تدل على المبتدأ من أساليب الإيجاز المعدود في أبدع فنون البيان»[1].

*** استخراج الأسرار اللغوية بالاعتماد على أسلوب العرب:**

لمّا كان الخضر حسين شغوفاً باللغة وأسرارها، ضليعاً في معرفة خباياها، كان يعود إلى استعمالات العرب وأساليبهم، قاصداً من وراء ذلك أن يصل بالكلمة على القرار المكين بحسب مبلغ علمه وإدراكه.

ومن نماذج ذلك: ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾[البقرة: ٨٥].

«. . . هذا تقريعٌ لهم؛ لعصيانهم بارتكاب ما نُهوا عنه. وقد وردتْ هذه الجملة على أسلوب قول العرب: «ها أنت ذا قائماً»، فالضمير (أنتم) مبتدأ، واسم الإشارة (هؤلاء) خبر عنه. وجملة: (تقتلون أنفسكم) حال، وهي من قبيل الأحوال التي لا تحمل الفائدة من الأخبار إلا ذكرها. . .»[2].

وبعدَ أن تتبَّعْتُ منهجَه وموقفَه من استخدام النحو والإعراب في تفسير القرآن الكريم من خلال آثاره، وخاصة كتاب «أسرار التنزيل»، تبيَّن لي أنه يمتاز بثقافة نحوية كبيرة، جعلتْه يتخلص من أسر أئمة النحو؛ كسيبويه،

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٩٧)، و«الهداية الإسلامية» (ص١٠٦).

(٢) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص١٣٧)، (انظر ـ أيضاً ـ: أمثلة أخرى (ص١٨١، ٣٥٢).

والخليل، والفرّاء. . . وهذا إنّما يدلُّ على تمكُّن الخضر حسين من اللغة العربية، وامتلاكه لثقافة نحوية واسعة أهَّلته لتفسير القرآن الكريم.

ويندرج ضمن اعتماده على التفسير البياني واللغوي: استشهادُه بالشعر العربي، وهو كثيرٌ جداً، ومتناثرٌ في «أسرار التنزيل»، وبقية آثاره.

وقد تميزتْ شواهدُه الشعرية بالقوّة والبيان والتنوع، وكان منهجه يراوح بين إسناد هذه الأشعار إلى قائليها، وعدمه، وهو في كل ذلك ملتزم بـ:

- **أن يكـون الشـعر شـارحاً لبعض كلمات القرآن ومفرداتـه**: مثال ذلك: ما ذكـره عند تفسـير قولـه تعالـى: ﴿وَأُشْـرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْـلَ بِكُفْرِهِـمْ﴾[البقرة: ٩٣].

«. . . الإشراب: السّقي، وهو إيصال مائع إلى الجوف من طريق الفم، واستُعمل على وجه التجوُّز في خلط لون بلون؛ كأنَّ أحدَ اللونين سقى الآخرَ، فقالوا: بياض مُشْرَبٌ بحمرة، وقالوا: أُشرب قلبُه على حب كذا: إذا خالط حبُّه قلبَه:

إذا ما القلبُ أُشْـرِبَ حُـبَّ شـيءٍ فلا تأملْ له الدهرَ انصرافا (الوافر)

«ففي جملة: ﴿وَأُشْـرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْـلَ﴾ مضـاف بمحـذوف؛ لدلالة المعنى عليه، وهو لفظ: «حب»، والتقدير: حب العجل. والمعنى: أنّ حب العجل خالطهم حتى خلص إلى قلوبهم؛ كما يخالط الماء أعماق البدن. وحذفُ لفظ الحب من نظم الكلام يُشعر بشدّة تعلق قلوبهم بالعجل؛ حتى كأنهم أُشربوا ذات العجل. . .»[1].

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص١٥٢).

ـ أن يؤكد بالشاهد من الشعر ما ترشد إليه الآية من معان: مثل ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٢].

«تفيد هذه الجملة ـ بحسب وضعها الأصلي ـ النهيَ عن الموت في حال غير حال الإسلام، وليس الموت في استطاعة الإنسان حتى يَنهى عنه، أو يأمر به، وإنما النهي في المعنى متوجِّه إلى أن يكون المخاطبون في حال لو جاءهم الموتُ وهم متلبِّسون به، لوقعوا في خسران مبين، فنهيهم عن الموت في حال غير حال الإسلام يراد منه: الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الوفاة.

والمعنى: اثبتوا على الإسلام، واستقيموا على مَحَجَّتِهِ البيضاء حتى يدرككم الموت، وأنتم في حال كونكم مسلمين.

وكما ينهى عن الموت في حالة، والمراد: عن التلبس بتلك الحالة، يأمر بالموت في حالة، والمراد: الحث على التلبس بتلك الحالة؛ كما يقال: مُتْ وأنت شهيد. المراد: الحث على الاستشهاد في سبيل الله. ومن هذا القبيل قول المتنبي:

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأنتَ كريمٌ
بينَ طعنِ القنا وخفقِ البُنودِ (الخفيف)[1]

ـ أن يورد الشعر بياناً وتأييداً لأوجه البلاغة: مثال ذلك: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾[البقرة: ٦١].

يقول «الذلّة: الهوان. والمسكنة: الخضوع، وضرب الذلة والمسكنة

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٢١٣).

عليهم كنايةٌ عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبة بمن ضُربت عليه. كما قال زياد الأعجم في عبدالله بن الحشرج:

إنَّ الـــسماحةَ والمـــروءةَ والنَّـــدَى

في قُبَّةٍ ضُرِبتْ على ابنِ الحَشْرَجِ (البسيط)(١)

وهكذا نراه في عرضه للآيات القرآنية يتعامل معها بروح اللغوي الأديب، والمفسر الذي ينطلق من قاعدة اللغة، ويجعلها أساس التفسير، ثم يعضـدُها بالشعر العربي انطلاقاً من أن في القرآن بعض الآيات التي تستوجب العودة إلى الشعر لكشف معانيها، وتبيان ألفاظها، وهو ما يؤكد اهتمامَه الشديد بديوان العرب، وإلمامَه بوجوه الإعجاز البياني.

والبلاغة القرآنية كانت من أكبر أهداف الخضر حسين، فعِلْمَا: المعاني، والبديع ـ اللذان أشار إليهما الشيخ في مختلف آثاره التفسيرية ـ من الأمور التي تأثَّر بها من مدرسة عبد القاهر الجرجاني، والزمخشري.

ولعل أهم الأوجه والقضايا البلاغية التي تناولها الشيخ بالبحث والدراسة هي:

ـ **الإيجاز**: حين يعرض الشيخُ لأسلوب الإيجاز في القرآن الكريم نراه معنِياً بالإشارة إلى ما أُوجز فحسب، دون أن يومئَ إلى موضع الحُسن في ذلك الأسلوب، وقد اعتبر الشيخ للإيجاز أنواعاً منها:

حذف المبتـدأ، وحذف الجمـل التـي يـدل الكـلام على تقديرهـا، واسـتعمال المفرد في معنى الجمع، إضافة إلى إيجاز الحذف، وذكر البدل

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص١٠٥).

وحذف المبدل منه.

ـ **المجاز**: والمجازُ من المباحث البلاغية التي عرض لها محمد الخضر حسين في تفسيره، من ذلك ـ مثلاً ـ: قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[البقرة: ٦١].

يقول: إخراج النبات: إظهاره بإيجاده، والمنبِت له ـ في الحقيقة ـ هو الخالق ـ جلّ شأنه ـ. وإسناده إلى الأرض في قوله: (تنبت الأرض) أخذاً بعادة إسناده إلى الأرض على وجه المجاز، وإسناد الفعل إلى المكان الذي يقع فيه أسلوبٌ عربي فصيح، والحقيقةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[ق: ٧][1].

*** الأساس الثاني ـ التفسير بالمأثور:**

يعتمد الشيخ محمد الخضر حسين في تفسيره للقرآن الكريم نهجَ التفسير بالمأثور؛ حيث يفسِّر القرآن بالقرآن، والقرآن بالحديث النبوي، والقرآن بأقوال الصحابة والتابعين، فمَنْ بعدَهم من العلماء والفقهاء، وكذلك أسباب النزول، واعتماد أوجه القراءات، وأصحاب السير والأخبار.

*** تفسير القرآن بالقرآن:**

اشترط العلماءُ على من أراد تفسير القرآن: أن ينظر أولاً في كتاب الله العزيز؛ ليصل إلى المعنى الصحيح؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فما جاء منه مجملاً في مكان يفسر ما جاء مُبيناً في مكان آخر، وما جاء موجزاً يستعان على بيانه بما جاء مُسهَباً، وقد اعتد الخضر حسين بهذا النوع من

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص١٠٤).

التفسير اعتداداً واضحاً في «أسرار التنزيل»؛ إذ نجده في تفسيره للقرآن الكريم يعتمد القرآن في:

ـ الاستدلال على معنى كلمة بما ورد من معناها في آيات أخرى: ومن نماذج ذلك: تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٣٥].

يقول: «القرب: الدنُّو. ولم يذكر القرآن نوعَ هذه الشجرة على عادته من عدم التعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سوق القصة إلى بيانه. والمنهيُّ عنه: هو الأكلُ من ثمار الجنة، وتعليق النهي بالقرب منها، إذ قال: (ولا تقربا) لقصد المبالغة في النهي عن الأكل؛ إذ في النهي عن القرب من الشيء قطعٌ لوسيلة التلبُّس به؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾[الإسراء: ٣٢]، فنهى عن القرب من الزنى؛ ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه، وهي القرب منه[1].

ـ الاستدلال على معنى كلمة مجمَلة بما فُصِّل في مكان آخر: يقول في تفسير قوله ـ سبحانه تعالى ـ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾[البقرة: ١٣٦].

«ما أُنزل إلى إبراهيم: الصحفُ المشـارُ إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[الأعلى: ١٨ ـ ١٩][2].

ـ الاستدلال بالقرآن على تعدُّدِ المعاني للكلمة الواحدة: تفسيره لقوله

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٦١)، «روائع مجلة الهداية الإسلامية» إعداد وضبط علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، دمشق ١٩٩٩م، (ص١٠٧ ـ ١٠٨).

(٢) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٢١٨)، وانظر ـ أيضاً ـ: (ص٢٤٣).

تعالى: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران: ٥٣].

«والشاهدون: الذين يشهدون بالتوحيد، وما لا يتم الإيمان إلا به، أو الأنبياء ـ عليهم السلام ـ؛ فإنهم شهداء على أممهم يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾[النساء: ٤١][1].

ـ نفي الاحتمالات، وتعدد الأقوال، فيحمل الآية على آية أخرى: ومن نماذج ذلك: تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾[البقرة: ٤٠].

«والنعمة: المنعَم به، وتُجمع على نِعَم، وقد وردت في القرآن بمعنى النعم، ولا تحتمل غير هذا المعنى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[إبراهيم: ٣٤].

فلفظ العدّ والإحصاء يعني: أنه أريد بها: النعم الكثيرة. والنعمة في هذه الآية التي نحن بصددها يترجح حملها على معنى النعم، إن لم يقم دليل من الآية على أنه أريد بها نعمة معهودة»[2].

ـ تأييد ما ورد في آية بما نص عليه في آيات أخرى: قال في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ . . .﴾[البقرة: ١٨٥].

«هذه جملة مستأنفة لبيان حكمة الإذن للمريض والمسافر في الفِطْر، وهي أن الله تعالى بنى تشريعه على اليسر والرفق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٣٢٥)، وانظر ـ أيضاً ـ: (ص١٦٣).

(٢) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٧١)، وانظر ـ أيضاً ـ: (ص١٦٣).

عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[الحج: ٧٨][1].

*** تفسير القرآن بالحديث:**

كما فسّر القرآنُ الكريم بعضَه بعضاً، فسرت السنة النبوية كثيراً من القرآن. وإذا رجعنا إلى كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ، وجدناه يشهد بذلك، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٤].

المطلع على تفسير الخضر حسين للقرآن الكريم، وخاصة في كتابه «أسرار التنزيل»، وبقية آثاره يجده يعتمد الحديث النبوي لـ:

ـ تفسير معنى لفظ في الآية، أو يعاضدها ويساندها فيما ترمي إليه.

ـ توضيح حكم في القرآن.

ـ اعتماد الخضر حسين الحديث لتأكيد وتأييد ما ورد في القرآن.

ـ الحديث يأتي بحكم جديد ليس في القرآن.

تميز منهجُ الخضر حسين في تناول الحديث النبوي الشريف بملامح متباينة، تمثلت في ذكر الحديث دون الإشارة إلى مصدره، أن يذكر الحديث مشيراً إلى المصدر، وإن كان لا يعنى بذكر درجته من الصحة والضعف، أو التعليق على رجال الحديث، أن يذكر درجة الحديث دون ذكر المصدر.

وبالرغم من عدم انتظام طريقته في تخريج الحديث النبوي الشريف بذكر مصادره التي استقى منها، إلا أنّي أرى أنه قد انتفع في تفسيره بقواعد المحدثين وأصولهم في الرواية. فقد امتلأ تفسيره بالأحاديث الصحيحة والحسنة، وابتعد ابتعاداً تاماً عن الأخذ بالأحاديث الموضوعة، وهذه ميّزة

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٢٩٦).

تُذكر للشيخ، وتبيّن لنا مدى التزامه بالمنهج السليم في البحث في تفسيره، وهو في طريقته تلك لا يعتمد على كتب التفسير فقط، وإنما يرجع إلى مصادر الحديث الشريف، ويأخذ منها.

* **تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:**

من مصادره في التفسير بالأثر: ما روي عن الصحابة رضي الله عنهم، وخاصة ما جاء عن طريق ابن عباس «ترجمان القرآن». وقد اعتبر الشيخ محمد الخضر حسين أن تفسير الصحابة للقرآن يلي بالمكانة تفسير الرسول ﷺ.

والنماذج التالية من التفسير تُظهر مدى اعتماده على هذا الجانب الذي يعتبر أحد أركان التفسير بالمأثور، حيث قال محمد الخضر حسين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾[الحج: ٢٨].

«ذكر اسم الله: حمدُه وتقديسه. والأيام المعلومات: الأيام العشر عند جماعة من الصحابة والتابعين، منهم: ابن عباس، والحسن البصري. وبه قال أبو حنيفة، وذهب جماعة، منهم مالك بن أنس وأصحابه، إلى أن الأيام المعلومات: يوم النحر، ويومان بعده... والمعنى: يقدسون الله ويحمدونه شكراً على ما رزقهم من بهيمة الأنعام»[1].

* **تفسير القرآن باعتماد أسباب النزول:**

الذي يطلع على تفسير الشيخ محمد الخضر حسين يلفت انتباهه كثرةُ عنايته بأسباب النزول، ورفضُه اعتمادَ المفسرين على الكثير من الروايات

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٣٤٩).

الضعيفة، حتى أوهموا كثيراً من الناس أن القرآن لا تنزل آياته إلا لأجل حوادث. والقرآن الكريم عنده «أتى للإصلاح والهداية. . .»[1].

ونموذج ذلك: ما ذكره بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[البقرة: ١٨٩].

«لما ذكر في الآية السابقة أن الأهلة مواقيت للحج، صح أن يوصل ذلك بإنكار عادة جرى عليها الأنصار في حجهم، فقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، هذه العادة ـ كما روي في سبب نزول الآية ـ: أن الأنصار كانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية، لم يدخل بيتاً من بابه، بل كان يدخل من نقْب من ظهره، أو يتخذ سُلَّماً يصعد فيه، فقيل لهم: ليس البر بتحرجكم من إتيان المنازل من أبوابها»[2].

*** تفسير القرآن باعتماد القراءات:**

اهتم الخضر حسين في تفسيره بالقراءات، واعتمدها في بيان معاني القرآن الكريم، وترجيح بعض المعاني على بعض، ومن نماذج ذلك: ما قاله في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة: ٤].

يقول: «المالك: وصف من المِلْك ـ بكسر الميم ـ. والدين: الجزاء؛ أي: إنه تعالى يتصرف في أمور الدين تصرفَ المالك فيما يملك؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[الانفطار: ١٩]. وقُرِئ: ﴿ملك يوم الدين﴾ من المُلك ـ بضم الميم ـ، ومعناه: المدبّر لأمور يوم

---

(١) محمد الخضر حسين «بلاغة القرآن» (ص٢٦).

(٢) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٣٠٧).

الدين؛ كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾[غافر: ١٦][(١)].

ومما تقدم نلاحظ أن محمد الخضر حسين قد اقتصر على الروايات الصحيحة دون الشاذة، حيث لم نجده يطرح قضية اختلاف القراءات. ونهجُه لهذا الخط جعله في غنى عن نقد بعض القراءات، وقد كانت موافقة القراءة للغة العربية من أهم الشروط التي حرص الشيخ على توافرها في القراءة، خاصة لغرض تفسير آيات الذكر الحكيم.

*** الأخذ عن التوراة والإنجيل:**

لم يختلف المعاصرون عن القدامى في الرجوع إلى التوراة والإنجيل في تفسيرهم للقرآن، فها هو محمد الخضر حسين يعتمدها في تفسيره لبعض الآيات، على غرار ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[الأعراف: ١٥٧].

«فهذه الآية صريحة في أن المصطفى ﷺ مكتوب في التوراة والإنجيل، والمراد بكتابته فيهما: ذكر مبعثه، ودعوته، وشيء من نعوته، وهذا المعنى موجود في الكتابين يقيناً. ومن البشائر الباقية في التوراة والإنجيل إلى هذا العهد. ما جاء في سفر التثنية من التوراة: (أقم لهم نبياً من وسط إخوتك مثلك، واجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به).

والنبي المماثل لموسى ـ عليه السلام ـ في الرسالة العظيمة، والشريعة المستأنفة هو سيدنا محمد ﷺ، وإخوة بني إسرائيل هم العرب؛ لأنهما يجتمعان

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٩).

في إبراهيم ـ عليه السلام ـ. . . »[١].

ومن خلال هذا النموذج وغيره يتجلى لنا أن الشيخ محمد الخضر حسين قد اعتمد على التوافق الوارد بين القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية؛ من حيث تأكيدُها على نبوة الرسول ﷺ، والتكامل بين الرسالات السماوية؛ مما يثبت وحدة المصدر.

الأساس الثالث ـ التفسير بالرأي:

يعتبر التفسيرُ بالرأي من الوسائل المعتمدة في تفسير الشيخ محمد الخضر حسين للقرآن الكريم، إضافة إلى التفسير باللغة، والتفسير بالمأثور.

والتفسيرُ بالرَّأي، أو التفسيرُ العقلي هو ما يقابل التفسيرَ النقلي؛ إذ «يعتمد على الفهم العميق والمركز لمعاني الألفاظ القرآنية، بعد إدراك مدلول العبارات القرآنية التي تنتظم في سلكها تلك الألفاظ، وفهم دلالاتها»[٢].

وعلى هذا، فالتفسير بالرأي يقوم على الاجتهاد في فهم الآيات القرآنية، وإدراك مقاصدها اعتماداً على كلام العرب، و«الوقوف على معرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وما يتبع ذلك من الأدوات التي يحتاج إليه المفسر»[٣].

وكان رجالُ التفسير الذين أخذ عنهم الشيخ محمد الخضر حسين

---

(١) محمد الخضر حسين «محمد رسول الله وخاتم النبيين» (ص٤٥ ـ ٤٦).

(٢) خالد عبد الرحمن العك «أصول التفسير وقواعده» دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، (ص١١٧).

(٣) ن م ص.

في معظمهم ينتمون إلى المدرسة العقلية في التفسير[١]، بدءاً بالزمخشري (ت٥٣٨هـ)، فالرازي (ت٦٠٦هـ) في القديم، وانتهاءً بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في العصر الحديث.

ومن هذا المنطلق سأحاول أن أبيّن منهج الشيخ محمد الخضر حسين، وموقفه من قضية التفسير بالرأي، وكيف اعتمد المنهج العقلي في «أسرار التنزيل». ونجده يحدد ضوابط التفسير بالرأي إذ يقول: «تفسير يستند إلى فهم علماء اللغة والبلاغة»[٢].

ومن مظاهر التفسير بالرأي نجد:

ـ **استخدام الترجيح**: استخدم الشيخ محمد الخضر حسين في ترجيحه لما يتعرض له من تفسير بعض الآيات على قواعد أساسية، وهي ـ كما وقفتُ عليها ـ أولها **لغوي**، والثاني **مأثور**، والثالث **عقلي**.

ومن النماذج الدَّالَّةِ على استخدام الجانب اللغوي في الترجيح أو التضعيف ما يلي:

١ ـ **الترجيح باللغة**: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ٢١].

يقول: «لعل: حرف موضوع ليدل على الترجي، وهو توقُّع حصول الشيء عندما يحصل سببه، وتنتفي موانعه. والشيء المتوقع حصوله في الآية هي: التقوى، وسببه هي: العبادة؛ إذ بالعبادة يستعد الإنسان لأن يبلغ درجة

---

(١) لمزيد التعرف على المدرسة العقلية القديمة والمدرسة العقلية الحديثة راجع: «منهج المدرسة العقلية في التفسير» لفهد الرومي.

(٢) محمد الخضر حسين «بلاغة القرآن» (ص٢٣).

التقوى، وهي الفوز بالهدى والفلاح.

والترجي قد يكون من جهة المتكلم، وهو الشائع، وقد تستعمل «لعل» في الكلام على أن يكون الترجي مصروفاً للمخاطب، فيكون المترجي هو المخاطب، لا المتكلم.

وعلى هذا الوجه يحمل الترجي في هذه الآية؛ لاستحالة حصول الشيء من عالم الغيب والشهادة؛ لأن توقع الإنسان لحصول الشيء هو أن يكون متردداً بين الوقوع وعدمه، مع رجحان الوقوع، والمعنى: اعبدوا ربكم راجين أن تكونوا من المتقين، وهم البالغون الغاية في الهدى والفلاح[1].

٢ ـ الترجيح بالأثر: ومن نماذج استخدام المأثور في الترجيح: ما ذكره الخضر حسين عند تفسيره قوله تعالى: ﴿. . . فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨].

إذ يقول: «. . . وليس ببعيد أن يكون معنى (لا خوف عليهم): أنهم بلغوا استقامة السيرة وفضل التقوى؛ حيث لا يخاف عليهم أحد أن يصيبهم في يوم الجزاء مكروه. ونفي الخوف والحزن ورد في الآية على وجه الإطلاق، وظاهره: أن المهتدين لا يعتريهم الخوف ولا الحزن في دنياهم، ولا في آخرتهم.

ولكن قوله فيما يقابله من جزاء الكافرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٣٩] يرجح أن يكون المراد: نفي الخوف والحزن عنهم في الدار الآخرة. ثم إن الذين يتقون الله حق تقاته قد يأخذهم شيء من الحزن في الدنيا.

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٣٨).

وأوضح شاهد على هذا: قول النبي ﷺ عند احتضار ابنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ: «إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[1]، وقول يعقوب ـ عليه السلام ـ فيما قصه الله في القرآن: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٦]، ونفي الخوف والحزن عن المهتدين يوم القيامة كناية عن سلامتهم من العذاب، وفوزهم بالنعم الخالدة في الجنة، فتتم المقابلة بين جزاء المهتدين، وجزاء الكافرين المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٣٩][2].

٣ ـ الترجيح بالعقل: أما استخدامه للجانب العقلي في الترجيح، فمن شواهد ذلك: ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى:

أ ـ ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٦].

يقول: «جاءت هذه الجملة عقب الحديث عن استبدال المنافقين الضلالةَ بالهدى، فيكون المعنى: وما كانوا مهتدين إلى سبيل الرشد، وما تتجه إليه العقول الراجحة من الدين الحق. ويصح أن يراعى في هذه الجملة إخراج ذلك الاستبدال في صورة المبايعة التجارية، فيكون المعنى: وما كانوا مهتدين إلى طرق التجارة الرابحة؛ حيث باعوا الهدى ـ الذي هو مطلع النجاح والسعادة ـ بالضلالة التي هي مهواة الخيبة والشقاء»[3].

---

(١) رواه البخاري كتاب: «الجنائز»، باب: «قول النبي: إنا بك لمحزونون» (ج١/ ص٤٠٢ حديث رقم/ ١٣٠٣).

(٢) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٦٧).

(٣) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٣٠).

ب ـ ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٠٤].

يقول: «ذكَّر المسلمين في هذه الآية بأن ما عسى أن يلاقوه من آلام الحروب يلاقي خصومُهم مثلَها، فكأنه يقول لهم: لا ينبغي أن يكون خصومكم ـ وهم أشياع الباطل ـ أصبرَ على الآلام، وأثبتَ في مواقف الأخطار منكم، وأنتم حماة الحق، والدعاة إلى الخير، ولا سيما حماة يرجون نصر الله وجزاء مثوبته ما لا يرجوه أعداؤهم الغاوون المفسدون»[(١)].

*** موقف الخضر حسين من الأقوال المختلفة في التفسير:**

نجد محمد الخضر حسين يعرض الأقوال المختلفة في تفسير الآية الواحدة، ثم يحاول التوفيق بينها، إن أمكن له ذلك. فإن لم يمكن الجمع، قارن بين الآراء، ورجح فيها ما رآه راجحاً بالدليل... ومن نماذج ذلك كما ورد في تفسيره نذكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤].

يقول: «من المفسرين من حمل الآية على قوم ينكرون وجود الخالق، وهذا ما سلكه القرطبي في تفسيره؛ إذ قال في تفسير هذه الآية: وكان المشركون أصنافاً، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع، وينكر البعث. وجرى على هذا أبو البقاء في «كلياته»، فقال: والدَّهري ـ بالفتح ـ هو: الذي يقول: العالم موجود أزلاً وأبداً، ولا صانع له، وما هي إلا حياتنا الدنيا...

---

(١) محمد الخضر حسين «رسائل الإصلاح» (ص٣٠).

ومن المفسرين من جعل الآية محتملة لأن تكون في قوم لا يعرفون الله، ولا يقرون به، وهم الدهرية، وأن تكون في قوم يقرون بالخالق، وينكرون البعث، وينسبون الآفات إلى الدهر؛ لجهلهم أنها مقدَّرة من الله، وجرى على هذا أبو حيان في تفسيره «البحر».

وليس في الآية ما يدل على أن هؤلاء القوم يقرون بالإله، أو يجحدون به. فمن ذهب إلى أن موردها قوم لا يقرون بالإله، فلأن إضافة الحوادث إلى الدهر مقترنة بإنكار البعث؛ شأن الدهريين الذين ينكرون وجود الخالق ـ جل شأنه ـ»[1].

*** التفسير بالعقل والنقل:**

يتضح لي من خلال ما وقفتُ عليه من «أسرار التنزيل»، وبقية آثاره: أن الشيخ محمد الخضر حسين يراوح بين التفسير بالرواية (النقل)، وبين التفسير بالدراية (**العقل**)، ويزاوج بينهما.

١ ـ المراوحة بين العقل والنقل:

قال تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ١٨٤].

يقول: «هذا الخطاب لمطيقي الصيام من الذين خُيروا بين الصوم والفدية، فهي من متممات قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[البقرة: ١٨٤].

والمعنى: أن الصوم أفضل من الفدية؛ ذلك أن الفوائد الروحية والاجتماعية التي تحصل بالصوم أرجحُ من الفوائد التي تحصل بالفدية،

(١) محمد الخضر حسين «محمد رسول الله وخاتم النبيين» (ص٢٨ ـ ٢٩).

ويصح أن تكون هذه الجملة موصولة بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[البقرة: ١٨٣]، فيكون المراد منها: فُرض عليكم الصيام إلخ. ثم قال: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ١٨٤]؛ أي: إن الصوم من الأعمال التي تورثكم خيراً عظيماً[1].

٢ ـ المزاوجة بين العقل والنقل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

يقول: «لما تضمنت الآية السابقة إثباتَ وجوده تعالى، ونفيَ الإلهية عما سواه، جاءت هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها منبهةً لبعض الأدلة على وجوده تعالى. وقد اشتملت على آيات يخرج الناظر من التفكير فيها إلى بطلان ما يفعله طوائف من البشر من عبادة بعض المخلوقات؛ كالكواكب، والنار، والحيوان، والأحجار، بزعم أنها آلهة، أو شركاء الله في إلهيته.

وأول هذه الآيات: السموات. فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾ السموات: جمع سماء. والسماء: كل ما علا؛ كالسقف. المراد في الآية: الأجرام المقابلة للأرض، وهي سبع كما ورد ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[الطلاق: ١٢].

ذكرها القرآن هنا في جملة المصنوعات التي يجد فيها الناظر آياتٍ عظيمةً على وجود الله ووحدانيته. ونبه في آيات أخرى على بعض وجوه الاعتبار فيها؛ من نحو تزيينها بمصابيح، ورفعها بغير عمد»[2].

---

(١) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٢٩٤).

(٢) محمد الخضر حسين «أسرار التنزيل» (ص٢٥٦).

*** الصيغ الدالة على إعماله الرأي:**

إذا نظرنا إلى تفسير محمد الخضر حسين للقرآن الكريم من خلال كتاب «أسرار التنزيل»، وجدْنا صيغاً متنوعة ومتعددة عبر بها عن استعماله للرأي، وإعطاء وجهة نظره المخالفة لغيره من المفسرين، ويمكن حصرُ هذه الصيغ في التعابير التالية:

(الأقرب إلى الذهن: ص١١٥)، (ويصح فيما نرى ص١٢٦)، (ويصح فهم ص١٢٥)، (ويصح أن يفهم ص٢٢١)، (ويصح أن يفسر ص١٤٦)، (صح تفسير ص١٤٦)، (ويصح أن يراعى ص٣٠)، (فيؤول معنى... إلى معنى ص٨٥)، (ومن أقرب ما تفسر به الجملة: ص٩٧)، (ويصح تفسير ص١٤٢)، (ويصح أن يراد ص٨٨ ـ ٢٤٢...)، (ويحتمل أن يراد ص١٠٥)، (هنا صح تفسير ص١٠٦)، (والتقدير ص١٠١، ١١١، ١١٨، ١١٩، ٢١٥)، (ويصح أن يكون المراد ص١٢٧)، (ويصح أن تحمل على معنى ص٢٢١)، (ويصح أن يكون المعنى ص٣١٧)، (هذا ما يصح أن تفسر به ص٣٥٧)، (فمن تعسف وأتى... تألفه العقول الراجحة: ص١٥٩)، (ومن المحتمل القريب أن يفهم ص٣٠٤)، (وإذا نظرنا على ما جاء في آية أخرى ص٨٥)، (ومن أقرب ما تفسر به الجملة ص٩٧)...

ولم يقتصر على استعمال الصيغ الدالة على إعمال الرأي في تفسيره من خلال «أسرار التنزيل»، بل كانت هذه الصيغ مميزة لكل مقالاته في التفسير.

والمتأمل لمقالاته في كتاب **«تفسير الهداية الإسلامية»** يلاحظ العديد من الصيغ، ومن أمثلة ذلك: (والأقرب أن يقال ص١٠٦)، (ويصح أن يكون

المعنى ص١٠٩)، (ويفهم من الآية بعد هذا ص١١٤).

وفي كتاب **«محمد رسول الله وخاتم النبيين»**:

(بيان هذا ص٤٣)، (فهذه الآية صريحة ص٤٥)، (فهذه الآية تفهم على معنى ص١٥٨)، (فالمقصود في الآية ص١٦٠)، (فرأيت في الآية مرعى خصباً ومجالاً فسيحاً ص١٦٠).

*** الخاتمة:**

بعد هذه المداخلة المتواضعة لاستجلاء منهج الشيخ محمد الخضر حسين في تفسير القرآن الكريم، يمكن الإقرارُ بأنّ كتاب «أسرار التنزيل»، وما ورد في بقية آثاره، يعدُّ محاولة جادة في إرساء مدرسة جديدة في التفسير، حاول صاحبُها ملامسةَ الجوانب الاجتماعية، والحِكَم التشريعية، والوقوف على أهم القضايا المعاصرة التي كانت تشغل الأمة، وهي تعيش التخلف والتجزئة والاستعمار الغربي، وتتوق إلى النهضة والوحدة؛ لتسترد وعيها لبناء المشروع الحضاري العالمي.

ولعل أهم النتائج التي يمكن التوصلُ إليها، هو: أن للنشأة والبيئة التي عاش فيها الخضر حسين دوراً كبيراً في تكوين شخصيته، فمنذ طفولته توجَّه إلى حفظ القرآن الكريم، وتلقَّى علومَ الشَّرع والالتزام بآدابه.

وكانت رغبتُه في طلب العلم حيث استفاد من المناخ الثقافي، فأقبل على دروس التعليم، ولازم عدداً من الشيوخ المعروفين؛ مثل خاله «محمد المكي بن عزوز»، والشيخ «سالم بوحاجب»، و«عمر بن الشيخ»، وغيرهم.

وقد حرص ـ برغم كثرة الترحال والتنقل ـ على دوام الكتابة، وإلقاء الدروس والمحاضرات في المساجد والجمعيات، وإنشاء المجلات، والإقبال

على مطالعة أمهات الكتب في التفسير وعلوم اللغة والأدب والحديث. فكان تفسيرُ «أسرار التنزيل» من التفاسير السهلة التي اعتنى فيها صاحبُها بالصور البيانية، والمحسِّنات المعنوية، برغم شغفه بالأسلوب. وابتعد فيه عن ذكر مصطلحات الفنون، والتوسع فيما لا تفهمه العامَّةُ، وهو في ذلك يتفق مع «تفسير المنار» لرشيد رضا، برغم عدم التأثر المباشر بمدرسة المنار.

وما يتميز به الخضر حسين ـ روَّحَ الله روحَه ـ من استقلال في التفسير عن بقية المفسرين، على الرغم من اعتماده على العديد من التفاسير، وما توصل إليه أصحابها، قد أظهره شديد الالتزام بتفسير القرآن بالقرآن، دون إهمال للحديث النبوي الشريف، والاعتماد على الشعر العربي.

هذه الميزة وغيرها جعلته تفسيراً عصرياً يعكس بصدق ووضوح توجهاتِ العصر، وحاجة المجتمع الإسلامي والمكتبة الإسلامية إلى هذه النوعية من التفاسير، ومن ثمَّة بدتْ علاقتُه بمعطيات عصره الثقافية والاجتماعية والسياسية وثيقةً جداً.

لذلك يمكن اعتبار «أسرار التنزيل» في منهجه المعتدل تفسيراً مثالياً بكل معاني الكلمة، وذلك في ظل الضوابط والشروط التي وضعها العلماءُ والمفسرون لبناء تفسير سليم. ويُعتبر صاحبُه من المجتهدين القلائل المعدودين في العصر الحديث ممن دَعَوْا إلى نبذ التقليد والجمود.

والمُطَّلعُ على بعض مواطن من التفسير، يلحظ ـ دون عناء ـ أن الخضر حسين قد جمع في طريقة تفسيره بين اتجاهات ثلاث، ولم يكن أسير مذهب أو مدرسة. فنجد الاتجاه اللغوي؛ إذ ركَّز على الأساس اللغوي، فتوسع لقبول

كل المعاني التي يتحملها اللفظ، ويشترط على المفسر «أن يكون عارفاً لعلوم اللغة العربية، وفنون بلاغتها»[1].

والملاحَظ: أن قيمة هذا المنهج برزتْ تاريخياً في الردّ على التيارات الباطنية التي أدَّى بها تأويلُها إلى العبث باللغة العربية، فاندفع الخضر حسين لغوياً بارعاً إلى دحض هذه النزعات الراميـة إلى إهدار الدلالة اللغوية التي تقوم عليها معاني القرآن الكريم.

وركّز على المأثور، فأخـذ من القرآن الكريم، وأحاديث الرسـول ﷺ ما يساعد على استخراج المعاني، ويقرِّب الدلالة إلى الأفهام، دون إهمال لما تركه الصحابة والتابعون، ولا تغافل عن أسـباب النزول. واشترط على المفسـر: «أن يتَّجه إلى تمحيص الروايـات، ولا يعوِّل إلا على ما صـحت روايته»[2].

وقيمة هذا المنهج تبدو أساساً في الرد على مختلف من زيَّنتْ له نفسه إمكانية النظر إلى القرآن الكريم نظرة مجردة عن كل ما ظهر حوله من نصوص، حتى ولو كانت سنّة الرسول ﷺ.

وقد عمل الخضر حسين على إحياء هذا النسق، مؤمناً بأن المأثور هو الأداة الأنجعُ والأسلمُ في العملية التفسيرية.

وبين اللغة والمأثور يظهر الرأي نبراساً يعتمده الخضر حسين؛ ليستخرج ما توحي به اللغة، وما يكشفه المأثور؛ إذ لا يمر بآية إلا استحضر رأيه.

---

(١) محمد الخضر حسين «بلاغة القرآن» (ص٢٤).

(٢) محمد الخضر حسين «بلاغة القرآن» (ص٢٤).

ويلحظ القارئ ذلك من خلال الألفاظ والمصطلحات المستعملة من جهة، وما يصل إليه من فهم لدلالات الآيات من جهة أخرى.

وقيمة هذا المنهج تبدو في سعي صاحبه إلى أن يجعل أحكام القرآن ومعانيه مستجيبة لمتطلبات العصر وتطوره، مؤمناً بأن القرآن الكريم هو أهم دستور يضمن للأمة السلامة، ويخرج بها من بوتقة التخلف لمعالجة أهم المعضلات.

وقد تبين لي أن الخضر حسين عَلَمٌ من أعلام التفسير الإسلامي، ساهم بشكل كبير في إثراء المكتبة العربية الإسلامية بكتاباته في التأليف، والمقالات في المجلات والصحف، وإلقاء المحاضرات، كما كان له الدور الريادي في كشف معاني القرآن الكريم من خلال تفسيره، ودعوته إلى التمسك بأحكامه وتشريعاته، وجعلها مسايرة لمتطلبات العصر وضرورات التقدم. كل ذلك كان باعتدال يعكس قوة شخصيته، وهدوء طبعه، وغزارة علمه، وسعة اطلاعه.

ولا يسعنا ـ في خاتمة هذا العمل ـ إلا أن نقترح على المهتمين بالحقل المعرفي جمعَ ما كتبه الشيخ محمد الخضر حسين في التفسير، ونشره مستقلاً عن تآليفه الأخرى، وتحقيقه.

وعلى المشرفين على وضع البرامج إدراجُ دراسة تفسيره في برامج المعاهد والجامعات الإسلامية في فصل من الفصول تحت عنوان مادة «التفسير في العصر الحديث».

كما أدعو المختصين من أهل الفكر والثقافة، والمهتمين بتفسير القرآن إلى مواصلة بناء مشروعه التفسيري الذي رسم معالمه، وبيّن أسسه. على نحو

ما قام به محمد رشيد رضا مع محمد عبده في مصر. وفي تونس المراهنة على إحياء التراث رجال صدقوا ما عاهدوا عليه أنفسهم من بر للمعارف والعلوم، وخاصة ما تعلق بتفسير القرآن الكريم، نأمل أن يوجهوا هممهم لهذا المبحث سبيلاً لمساوقة التغيرات التي يشهدها العصر، والتحديات التي يفرضها، فتفرض علينا أن نتوجَّه إلى ما به يكون تأصيل الهوية.

*** المصادر:**

القرآن الكريم:

- برواية قالون لقراءة نافع من طريق أبي نشيط، الطبعة الأولى، صادر عن دار الفجر الإسلامي، دمشق (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

حسين محمد الخضر:

- «أسرار التنزيل» - المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٦م.
- «بلاغة القرآن»، طبعة المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧١م/ طبعة الدار الحسينية للكتاب، ١٩٩٧م.
- «خواطر الحياة»، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٨م.
- «رسائل الإصلاح»، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧١.
- «محمد رسول الله خاتم النبيين»، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧١م.
- «الهداية الإسلامية»، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٦م.

*** المراجع:**

ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر:

- «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت لبنان.

الحسيني علي الرضا:

- «الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر»، الدار الحسينية للكتاب، طبعة ١، ١٩٩٢م.

الزركلي خير الدين:

- «الأعلام» - دار العلم للملايين، بيروت، طبعة ٢، ١٩٨٢م.

ابن عاشور محمد الفاضل:

- «تراجم الأعلام» - الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٠م.

العك خالد عبد الرحمن:

- «أصول التفسير وقواعده»- ط٢، دار النفائس بيروت، ١٩٨٦م.

محمد كرو أبو القاسم:

- «أعلامنا» - دار المغرب العربي، تونس، ١٩٧٣م.

مواعدة محمد:

- «محمد الخضر حسين حياته وآثاره»، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٤م.

❑ ❑ ❑



دور المثقف في توثيق العلاقات المغاربية[1]

أخواتي وإخواني!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محورٌ أساسي، ويبدو أن كثيراً من الجهات الثقافية ـ في مختلف أنحاء الوطن العربي والإسلامي ـ تحاول دائماً العناية به، ولكن حتى الآن لم نجد الطريق السوي الذي يمكننا من المعالجة الصحيحة.

لكن قبل ذلك عندي ملاحظة: ملاحظة حول الشيخ محمد الأخضر ابن الحسين:

أعرف أن الشيخ زار الجزائر مرتين سنة ١٩٠٣، و١٩٠٤، وفي سنة ١٩٠٣م كان قد زار الجزائر قبلها الشيخ محمد عبده، وفي الوقت الذي نجد آثاراً وتأثيراً، آثاراً علمية ثقافية للشيخ محمد عبده، سواء فيما يتعلق باتصالاته بشيوخ العلم والمثقفين في ذلك الوقت، وحتى الآن مازالت بعض الرسائل تدرس في هذا الموضوع، نرى أن الشيخ محمد الخضر قد مرَّ هناك، ولم يترك شيئاً، في حين أن المثقفين الذي كانوا موجودين في الجزائر في تلك

(١) محاضرة المؤرخ والكاتب الجزائري الدكتور محمد عربي الزبيري، ألقاها دون الاعتماد على أوراق مكتوبة.

الفترة كانوا على ثلاثة أصناف، لم نجد أثراً له عند أي من هذه الأصناف.

كان هناك المثقفون المفرنَسون الذين انسلخوا عن جلدتهم، وكانوا يسعون للاندماج في المجتمع الفرنسي، لكنهم كانوا مثقفين، كانوا يكتبون على أعمدة الصحافة، وكانوا ينشـطون ثقافياً، والمثقفون الوطنيـون الذين كانوا ـ أيضاً ـ نوعين: كان نوع مزدوجَ اللغة، وكان نوع زيتونياً، وخاصة أنه في النوع المزدوج باللغة نجد أن الشيخ محمد بن رحّال كان يكتب في موضوعات عالجها الشيخ محمد الخضر حسين، فالشيخ محمد بن رحّال كان يلقي محاضراته باللغة الفرنسية في باريس في ذلك الوقت حول الحرية في الإسلام، حول نظرة الإسلام إلى المرأة، ونظرة الإسلام إلى المجتمع، إلى غير ذلك. موضوعات مهمة نجد أن الشيخ قد عالجها، وفي نفس الوقت عالجها الشيخ محمد بن رحّال، والمفروض أن هذا يربط بين الرجلين، خاصة وأن الشيخ محمد بن رحال كان مزدوج اللغة، ثم الزيتونيون، فكانوا في الجزائر في تلك الفترة، كان يوجد عمر القدور، وهو زيتوني، وعمر راسم الذي هو زيتوني، اللذان كان لهما مساهمة كبيرة في تنشيط الحياة الثقافية المغاربية على أعمدة الصحافة التونسية، وعلى أعمدة الصحافة الجزائرية.

هذا السؤال بقي يحيرني، بحثت فعلاً، ولكني لم أجد الجواب الشافي الكافي، هذه الملاحظة أطلب من الجميع أن يفكر معي في أسباب عدم وجود التلاقي في تلك الفترة بين هذه الرجالات التي كانت تعمـل بالفعل من أجل إعادة بعث هذا المجتمع المغاربي، ودفعه نحو ما كان يسميه مالك بن نبي: المجتمع الموحد.

نعود الآن إلى صلب الموضوع: دور المثقف في تمتين أو توثيق العلاقات

المغاربية بين الشعبين الجزائري والتونسي على الأقل، وحتى في هذه التسمية أرى أن هناك تقهقراً؛ لأن التعبير كان غير ذلك، كان أسلافنا يقولون: الشعب في الجزائر وتونس، لا أن يقولوا: الشعبين الجزائري والتونسي.

سؤالي أولاً من هو المثقف؟ هل المثقف هو حامل الشهادات؟ أقول: لا، إن الشهادات ـ مهما علت ـ ليست مقياس المثقف الثقافي.

أنا أقيس الثقافة بشيء آخر هو الوعي، أن يكون الإنسان واعياً أولاً بذاته، واعياً بمحيطه الضيق، وبمحيطه الواسع، والعامل من أجل تحقيق أهداف تعود بالخير على الذات، وعلى محيطه، وعلى غيره، من أجل ذلك لكي يكون المثقف فاعلاً يجب أن ينطلق من مشروع المجتمع، ينطلق من مرجعيته الفكرية، أن ينطلق لتحقيق أهداف وأغراض ومعالم بينة واضحة. فإن لم يكن هذا موجوداً، فلست أدري كيف يمكن لإنسان أن يُسمى مثقفاً، وكيف يمكن أن يقوم بدوره؟

وفي مستهل القرن كان المثقف موجوداً بالفعل، ويبدو لي: صحيح أن الاستعمار موجود، ولكن مقاومة الاستعمار كانت قد فتحت للمثقفين مجالاً للعمل من أجل ترقية المجتمع، ومن أجل الدفاع عنه، ومن أجل وضع الأسس التي يكون منها المنطلق لتحقيق ما هو الأفضل.

قرأت مرة للشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي تعرفونه جيداً يقول: إننا في الجزائر، ويتكلم عن المثقفين في الجزائر، يقول: نحن في الجزائر نعرف عن إخواننا في تونس، وعن إخواننا في ليبيا ما لا يعرفونه هم عن أنفسهم؛ لأننا نهتم بواقعهم، ونتمنى لهم كل الخير.

اليوم نرى أن هناك انحساراً، نرى أن من نسميهم: المثقفين، سواء في

الجزائر، أو في تونس، أو ليبيا، هؤلاء لا يعرفون ما يجري حتى في بلدانهم، لماذا؟ لأنهم حبسوا أنفسهم فيما يمكن أن نسميه: الوظيفة، أو العمل الرسمي، أو الجري وراء أشياء أخرى لا علاقة لها بالثقافة؛ لأن الثقافة ـ كما قلت ـ هي الوعي.

ثم إن الثقافة هي مواقف، عندما يكون الإنسان واعياً، لا بد له من مواقف تجسد ذلك الوعي، والمواقف ـ اسمحوا لي ـ لها أثمان تدفع لكي تتجسد على أرض الواقع.

ما هي مواقف المثقف في الوقت الحالي؟ مواقف المثقف ـ على الأقل ـ هي أن يؤاخي، هي أن يفتح طريق الوحدة، هي أن يعمل على تحقيق ما يصبو إليه المجتمع ككل، الشعب هنا، والشعب هناك.

لكن ـ مع الأسف ـ عندما نرى المثقف، أو ما نسميه مثقفاً يسعى دائماً لتحقيق ما يصدر عن الجهات الرسمية، هذا لم يعد مثقفاً. المفروض أن المثقف هو الذي يخط الطريق للجهات الرسمية، وليست الجهات الرسمية هي التي تخط الطريق للمثقف.

ولقد أكبرت بالأستاذ الجليل الشيخ المنجي موقفه مع وزير الداخلية، الذي أراد أن يملي عليه موقفاً من تلميذه في ذلك الوقت، هذا هو المثقف. كان يدرك، وكان يعرف أنه سيدفع ثمن موقفه هذا مع وزير الداخلية يجر عليه أتعاباً؛ لأنه كان يعرف ويدرك، فكان مستعداً لتقديم الثمن.

موضوع آخر في الجزائر جرى، هو عمر بن قدور، هذا هو زيتوني، وكان يكتب في الصحافة التونسية، والصحافة الجزائرية، وكان يظهر بموقفه المعادي للاستعمار، والداعي إلى اليقظة في أوساط المجتمع، دُعي ليغيّر

مواقفه، ويغيّر كتابته، فرفض، وهُدد، فتحدى التهديد، وحُكم عليه بالحبس والنفي في مدينة «الأغواط»، وهو موجود في الجزائـر، وكان في الحكـم قرار أن ينتقل إلى منفاه مشياً على الأقدام ٤٥٠ كم. وبالفعل انتقل، وعندما وصل، وكان في حالة سيئة، سأله صحفي، فقال له: أنا مستعد إلى أكثر من هذا، وإلى أن أموت إن اقتضى الحال. وقع نفس الشيء مع الشيخ المكي بن شباح في بداية القرن عندما دعته السلطات الاستعمارية، وطلبت منه أن يتخلى عن النضال السياسـي، ورفض، فحكم عليه بالنفي من «بسكرة» إلى «أولاد جلال»، وهو مربوط في ذيل الفرس التي كان يقودها التابع لدائرة الشرطة، هذه هي شروط المثقف.

لذلك كنت دائماً أقول للطلبة عندما يتحدثون عن الذين فجروا فتيلاً: هؤلاء لم يكونوا مثقفين. أقول لهم: لا، لم يكونوا حاملي شهادات، ولكنهم كانوا مثقفين؛ بدليـل أنهم أدركوا: أن ما أُخذ بالقوة لا يسـترد إلا بالقوة، وأدركوا ـ أيضاً ـ أنه ما ينبغي أن نسترجعه إن كان ثميناً يجب أن نقدم له ما هو أسمى، وهي أنفسنا، فهؤلاء هم المثقفون.

نعود إلى دور المثقف في توثيق العلاقات بين الشعب الجزائري والشعب التونسي، ما دام أرغمنا على هذه التسمية، وأرغمنا على التنازل عن كثير من المفاهيم. كنا ـ نحن المثقفيـن ـ نتحدث عن الإمبرياليـة، وكنا نتحدث عن الاستعمار، وأرغمنا على التخلي عن كثير من المفاهيم، وأتمنى أن يأتي مثقفون حقيقيون يعيدون المياه إلى مجاريها.

فالعلاقات كانت أمتن في الفترة الاستعمارية بين مثقفي الجرائر ومثقفي تونس مما عليه الآن. لم تعد هناك علاقات.

كنت أتمنى أن أرى أساتذة أجلاء من تونس يزورون الجزائر مثلما كان يقع في السابق. وعندما تقع اللقاءات، وعندما تقع الاحتكاكات والحوارات، فهذا هو سبب تطور وتقدم للمجتمع. أما إذا انزوى كل على نفسه، وتقوقع، فإننا نبقى دائماً ندور في حلقة مفرغة، ومع الأسف بدلاً من أن نتقدم، فإننا نتقهقر. كنا نعتبر نفسنا شخصاً واحداً، شعباً واحداً، أصبحنا نعتبر نفسنا شعبين، وحدود تقام بيننا تمنع.

هذه الحدود لم تمنع انتقال الجزائريين إلى تونس، والتونسيين إلى الجزائر في عهد الاستعمار، ولو كنا مثقفين بالفعل، ونقوم بدورنا، فإننا نرفع هذه الحقائق إلى من يهمه الأمر، ونطالب بإزالة هذه الحدود؛ لكي يتمكن المثقفون من الاتصال فيما بينهم، ويتمكنوا من معرفة ما يجري هنا، وما يجري هناك.

والمعرفة هي التي تساعد على حل المشاكل. وما لم نعرف، لا يمكن أن نصل إلى ذلك بالطبع. أعود إلى المثقفين بالفعل، أعرف في الجزائر مثقفين ليست لهم شهادات، باعوا أملاكهم ليؤسسوا جريدة. الجريدة يأتون بمقالاتها إلى تونس، وتطبع في تونس، ويعودون بها إلى الجزائر، ويوزعونها هناك، هذه العائدات لا تفي بالمصاريف اللازمة لإعادة طبع العدد الآخر، فكانوا يبيعون أملاكهم لكي يستمروا في طبع هذه الجرائد، وهذه موجودة، وشارك في تحريرها كثير من التونسيين، وشارك كثير من الجزائريين في تحرير الكثير من الجرائد التونسية.

ويبدو لي أن الجريدتين اللتين كان يشرف عليهما كل من عمر بن قدور، وعمر راسم كانتا متنفساً بالنسبة إلى المثقفين التونسيين، وقد اطلعت على

كثير من المقالات، عندما تقرأ لهذا لا تكاد تفرق بين مقال هنا، ومقال هناك. لماذا؟ لأن الهدف واحد، ولأن التكوين واحد، وليست هناك مصالح شخصية تدفع هؤلاء المثقفين.

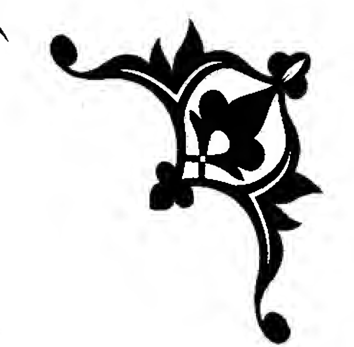
إذن، نعود إلى إعطاء الوصف، وإعطاء المعنى الصحيح للمثقف، من هو المثقف؟

عندما أصل إلى من هو المثقف، في هذه الحالة. وهذا يتطلب منا أن نعود إلى الثقافة، ما هي الثقافة؟ فنحن اليوم ـ مع الأسف ـ نجلس إلى جانب ثقافتنا، ولا ننشط في داخلها؛ لأنها ممسوخة بتأثيرات خارجية كثيرة. ولست أدري إذا كانت الجامعة التونسية تتألم مما تتألم منه الجامعة الجزائرية.

فأنا لا يمكن أن أطلب من طلبة جامعيين يُعِدّون رسائل دكتوراه، أو رسائل ماجستير في موضوعات فلسفية، أو في موضوعات تاريخية أو اجتماعية، أو في علم النفس من دون وجود مدارس وطنية.

إذا كنا نطلب من المثقف أن يكون له دور. يجب أن نحدد ما هو نوع الثقافة، قبل أن نتحدث عن دور المثقف؛ لأنه إذا كان يرتوي من مَعين ليس هو ثقافة، فلا يمكن أن تطلب منه أن يقوم بدور المثقف. والسلام.



كلمة وزير الشؤون الدينية
الدكتور أبي بكر الأخزوري
في اختتام أعمال الندوة[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

يطيب لي ـ في البداية ـ أن أعبّر لكم عن عميق سعادتي بوجودي بين هذه النخبة الفكرية النيِّرة، هذه النخبة المشهود لها بالارتباطات بالعلم، وجودة البحث.

كما أعبّر عن كبير اغتباطي باختتام هذه الندوة العلمية الدولية ذاتِ الموضوع الهام: (العلامة الشيخ محمد الخضر حسين، وإصلاح المجتمع الإسلامي).

أهمية هذه الندوة متأتية ـ أساساً ـ من كونها حلقة من حلقات السلسلة الإصلاحية التونسية من بداية القرن التاسع عشر إلى التغيير المبارك بقيادة رائد الإصلاح والتغيير سيادة الرئيس زين العابدين بن علي، الذي انطلق في مشروعه الحضاري من فكره الثاقب من المخزون الوطني، ومن ثوابت المرجعية الفكرية لروّاد الإصلاح. يقول سيادته ما يأتي: «إن التغيير مسار متواصل،

---

(١) في الواقع لم تكن هذه كلمة، بل محاضرة أكسبت الندوة ثراء ثقافياً مهماً.

والإصلاح استشراف مستمر للمستقبل، لا يكتفي بمواكبة التحولات، بل يعدّ لها، ولما بعدها.

وقد اخترنا الإصلاح منهجاً؛ لأننا انطلقنا من مخزون وطني عميق، واستلهمنا ثوابتنا ومراجعنا من فكر روّاده، ونضال شعبنا، ومقومات شخصيته الوطنية، وحضارته المتميزة. ونحن نذكر ـ بهذه المناسبة ـ بكل اعتزاز وإكبار روادَ الإصلاح في بلادنا، وزعماء الحركة الوطنية وقادتها، وشهداءها ومناضليها، ونحيي مآثرهم وتضحياتهم، وننزّلها المكانة اللائقة بها، لتبقى مراجعَ لأجيالنا القادمة، ومحطاتٍ وضّاءة في تاريخنا الوطني». هذا من خطاب سيادته الذي ألقاه بمناسبة حلول شهر رمضان المعظم سنة (١٤٢٣هـ، الموافق ٢٠٠٢م).

كلمة المفاتيح تحدد أغراضنا من مثل هذه الملتقيات، هذه الملتقيات التي تتناول بالدرس أعلام الفكر والثقافة، والتغيير والإصلاح، ومواكبة التحولات، الهوية، الثوابت، وليس من أغراضنا إطلاقاً التبرير والتنديد. إنما نروم الإسهام في بناء الشخصية المتميزة المشدودة إلى خلفية فكرية تاريخية، المعتزة بالتمسك بالهوية، وبالانتماء الحضاري، والانتماء إلى الوطن، الوطن لا كحيّز جغرافي فقط، إنما ككيان روحي حضاري بغايته السامية، وقيمه النبيلة، بما يمكّن تلك الشخصية الأصيلة المتجذّرة من التماس أسباب التحديث والارتقاء بالفرد والمجموع إلى أسمى ما يمكن أن يتحقق من المناعة والسؤدد، تلك هي المعادلة التي تتآخى فيها الأصالة والحداثة، التاريخيُّ والآنيُّ، والتي نراها في عهدنا السعيد تتحقق، بل قل: تنمو وتينع.

إن كل سعي إلى هذا الغرض مطلوب محمود، نطرب له وندعمه،

ويقيني: أن غطاء الثقافة والمحافظة على التراث، و(الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي) قد نزّلت هذه الندوة في هذا الإطار بالذات، والشاهد إنما يتمثل في هذه المداخلات القيمة، وفي هذا الخيط الجامع الذي يؤلف بينها جميعاً.

ولا يسعني هنا إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل المستحق إلى السادة الأساتذة الأجلاء من تونس، ومن أشقائنا الوافدين من الجزائر ومصر وسورية ومن الكويت؛ لأنني رأيت كويتياً بيننا والحمد لله، بغية الإسهام في طرق الموضوع على النحو المنهجي الذي يضمن موضوعية الاستنتاج والنتائج.

كما لا يفوتني أن أشكر الذين بذلوا جهداً ملحوظاً بالإعداد والتنظيم المحكمين، والسلط الجهوية والمحلية على اختلاف مواقعها التي دعمت العمل، وأسهمت بالتالي في إنجاح فعالياته، وعلى رأسها السيد والي «توزر».

أيها السادة والسيدات!

لقد تناولت البحوث القيّمة التي تفضلتم بإعدادها بالدرس، تناولت بالدرس فكر عَلَمٍ من أعلامنا الأفذاذ، حريٌّ بنا جميعاً أن نستلهم من فكره ومواقفه ما به نستحث الخطا للأفضل. نعم إننا لا نشرب من النهر مرتين كما يقول بعض الفلاسفة، فلا نقر الماضوية والتشبث بالقديم، لكن التاريخ مثقل بالمعاني والعبر، ورحم الله ابن خلدون الذي سمى كتابه في التاريخ: «العبر».

إن جوانب كثيرة من شخصية محمد الخضر حسين جديرة بالانضباط، ولعل أبرزها ـ على الإطلاق ـ منهجه التنويري في تناول قضايا الإصلاح الاجتماعي، وليس غريباً أن يوصف بكونه رصيناً عقلانياً، فبالتتبع والاستقراء

ندرك أنه سلك سبيل الدرس المعمق، والنظر الشامل السديد.

فقد كان يعرض القضايا التي يتقبلها على معيار البحث العلمي الرصين، الذي قوامه النقد والتحليل والتعريف. يقول المرحوم الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في كتابه «الحركة الأدبية والفكرية في تونس»: «اقتضت هذه الحيرة ظهور شهاب ثاقب من شهب العلم والأدب، يهدي الحائرين، يتناول قضية الإصلاح، فيعرضها على معيار البحث العلمي الرصين، والنقد المنطقي الرزين».

إن منهجه هذا أهّله إلى أن يكون مستنيراً، رافضاً لكل فكر خرافي أسطوري، لكل فكر ماضوي، كان متفتحاً غير متعصب لقديم، يعتمد الرأي المستند إلى دليل، حتى أدبه الرائق جاء غنياً بسديد الأنظار، وبمزيد الحكم المتعلقة بالخصوص بالإصلاح الاجتماعي.

لقد رفض الشيخ الخضر حسين القول بغلق باب الاجتهاد ـ وأقول هذا وبأعلى الصوت لأننا بحاجة ماسة إلى ما التمسه من الاجتهاد ـ، واستدل بمقتضى المنطق، فقال في أول مقال كتبه في أول مجلة عربية في بلادنا أسسها هو بنفسه «السعادة العظمى» قال ما يأتي: «إن دعوى أن الاجتهاد قد أغلق هي دعوى لا تُسمع إلا إذا أيدها دليل يوازن بقوته الدليل الذي انفتح به باب الاجتهاد أولاً».

إننا اليوم نتمسك بهذا المنهج العقلاني، الذي لا غنى عنه في تحقيق تطلعات المجتمعات الإسلامية إلى الرقي الحضاري المتوازن. ومن حق أبنائنا علينا أن نطلعهم على هذه الشواهد مثال الحصافة والجدّ والنبوغ، بما هي لحظات وضاءة تنير السبيل، وتعطي الخطوة الصحيحة. ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة: ٦ ـ ٧].

لقد تولدت عن هذا المنهج قيم خالدة (نعضّ عليها بالنواجذ) كما جاء في حديث رسول الله ﷺ؛ كحرية النقد، واحترام التفكير، والوسطية والاعتدال، واعتبار النسبية لضبط الظواهر والمواقف؛ بحيث لا إفراط في فكره. ولعل قمة نبوغه في مواقفه من نزوعات عصره وأحداثه، فما إن ظهرت «العروة الوثقى» إلى تونس، ظهر اضطراب بالأفكار، ولّد ـ كما يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ـ تناحراً وتنابذاً، واهتزت الألباب دهشة من جراء ذلك الاضطراب.

ووقف الشيخ الخضر حسين في الوسط العدل، ونأى بنفسه الانحياز إلى نزعة من النزعات المتقابلة، رافضاً الإغراء في الحكم، معايشاً القضايا بكل هدوء وموضوعية، موجهاً الرأي إلى ما فيه الصلاح العام، وما يقتضيه من قيم زكية ينبغي أن تسود، وكل خلق قويم يجب أن يكون الرابط بين الطرفين.

ومما يزيدنا إكباراً لفكر محمد الخضر حسين، ويعمم رغبتنا في الاستزادة من دراسته بالعمق اللازم ـ وقد سمعت نبأً أطرب له: أنه ستتناول هذه القضايا التي تقبلها مراراً وتكراراً في المستقبل إن شاء الله تحقيقاً ـ: وعيُه الكبير لضرورة تربية الشخصية الفردية والجماعية على التمسك بالهوية، الهوية المتحركة، المتشبثة بالثوابت، المعتبرة لمتغيرات الزمان والمكان، ولا تعارض بين هذه وتلك، آملة في مستقبل تواكب حركة المجتمع ومواقعه من علوم ومعارف وتقنيات كفيلة بتيسير إنجاز التقدم، وتحقيق النمو، ودعم القدرة على الإسهام في صنع التاريخ. كفانا استهلاكاً، لا بد أن نصل إلى

مرحلة صنع المعرفة، صنع التاريخ، وهذا لا يتأتى إلا بالاستناد إلى هويتنا.

إن موضوع الهوية، وبناء الشخصية المتميزة القادرة على مواكبة التطورات والتغيرات الطارئة، مازال مركز اهتمام. اليوم بحاجة ماسة إلى أن نحث الخطا حتى نجذّر أبناءَنا في هويتنا، بل أقول: اقتضى الأمر مع العولمة في جوانبها جميعاً وخاصة منها الثقافية، وهذا ما أكد عليه رئيس الدولة سيادة الرئيس زين العابدين بن علي غير ما مرة، منها قوله: «إننا نتقدم على درب الحداثة والرقي متمسكين بمقومات هويتنا الوطنية، مستلهمين من ثرائها العريق ما يدفعنا إلى مزيد الإنجاز والإضاءة، لقد اخترنا لبلادنا سبيل العمل والكد، والجد والتنوير والتحديث في مدارج المعرفة والعلوم والرخاء والنماء، لتبقى تونس واحة أمان واستقرار، وأرض تسامح واعتدال، ومنارة حضارية مشعة على الدوام».

إننا عندما نتحدث عن الهوية، نعني ـ بالطبع ـ مقوماتها المتماثلة من تاريخ، ودين، ولغة، ومصالح مشتركة، هذا تعريفنا للهوية.

في خصوص التاريخ: كما نوهنا ـ سابقاً ـ: أن لذاكرة الشعوب أهمية كبرى في تحريك الثوابت، ومن هنا تأكدت ضرورة معرفة أبنائنا لتاريخ بلادهم بكل ما يتسع له من احتمالات الظواهر والأحداث، على اختلاف دروبها، ودرجات أهميتها، ولا يتأتى ذلك إلاّ بقراءة موضوعية نقدية للوقائع وعللها ومتطلباتها، ومن لا تاريخ له، لا حاضر له، ولا مستقبل له.

جاء في كلمة رئيس الدولة بتصديره البريد لكتاب «تونس عبر التاريخ» ما يأتي: «التاريخ بنظامه ورموزه ومراميه هو مبنى الهوية، والعمود الفقري للشخصية الوطنية، نرى فيه دلالات تكرس تعلقنا بهويتنا وأمجادنا التاريخية،

ونستلهم مآثر أجدادنا، ومكانتهم السامية». هنا أذكر أن الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ اشترك في لجنة (تدوين التاريخ) بتونس؛ مما يظهر فهمه الصحيح للتاريخ، والرأي عندي: أن له في ذلك بعض ما يذكّر بالمنهج الخلدوني، إنه كان واعي التأثر بقواعد علم العمران البشري، ويشهد بذلك اهتمامه بحياة الرجل الذي تخرج مثله في جامع الزيتونة المعمور، واستقر مثله في مصر حيث مجاله، وقد ألقى محاضرة بعنوان: (حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية).

ومن الكتّاب المعاصرين من شبّه الشيخَ محمد الخضر حسين بابن خلدون، حتى في تنقلاته وأغراضه، سواء في هجرته إلى مصر، أو إلى البلاد المغربية، نقول اليوم: المغاربية.

بخصوص الدين كمقوّم من المقومات: كل منطلقات الشيخ هي منطلقات إصلاحية، كانت مبنية على النصوص التأسيسية، على العلوم الشرعية، على الفكر الديني النيّر المؤسَّس على الاجتهاد والقيم السمحة، ومن مآثره هنا ـ زيادة على ما أسلفنا ـ يدعو إلى الاجتهاد المنضبط، إنه يعتمد الرأي حيث يثبت بالدليل، ولا يثق بالمرويات إلا بعد نقدها وعرضها على معقول المعنى. وهذا هو علم المنهج المستنير الذي ننشده اليوم، والذي به نسلم من هذه الفتاوى المضحكة المبكية التي اتسع سوقها هذه الأيام، وضمتها مذهبية مقيتة.

نعم، إن ديننا الحنيف هو عصمة أمرنا، وقوام مسارنا الحضاري، كما يقول سيادة الرئيس، والدين عقيدة وقيم ومُثل، وقراءة مقاصدية، وسند للتنمية، التنمية تستغرق كل سبل التنمية... الدين لا ينضب معينه، وليس

الدين تشـبثاً ـ كما قلنا ـ بالماضي، وبأقوال رجال عبّروا عن واقعهم الذي ولّى ولن يعود. وهؤلاء رجال، ونحن رجال ـ كما يقول علماؤنا ـ. وعلينا أن نجتهد كما اجتهدوا، وأن نفهم نصوصنا لنعبّر عن واقعنا كما عبّروا، ونجدّد كما جدّدوا بكنف التمسك الواعي في ثوابت شخصيتنا.

والمقوم الثالث اللغة: ـ وأرى لافتة كُتب عليها: اللغة مقوّم أساسي من المقومات ـ يجدر القول هنا: إن الشيخ محمد الخضر حسين لم يكتف بطرح المسألة اللغوية في محاضرته التي ألقاها في نادي الجمعية الصادقية بعنوان: (حياة اللغة العربية)، لم يكتف بتدريس اللغة، بل تجاوز ذلك إلى العمل الميداني من خلال الجمعيات الثقافية... وأقصد: هنا هذه الجمعيات الثقافية، ومن خلال العمل المؤسساتي، وأقصد هنا: المجمع العلمي العربي في دمشق، الذي يعد محمد الخضر حسين من أعضائه الأولين، كما أنه كان من أبرز الأعضاء الذين تأسس بهم مجمع اللغة العربية بمصر، فقد أبرز أن اللغة وعاء حضاري، ولا بد أن تواكب حركة المجتمعات العربية، وذلك يتأتى بالانفتاح على العلوم الأخرى، واستيعاب العلوم والمعاني الجديدة. وهو ممن حرص على حذق اللغة الأجنبية، والتفتح على الآخر. وزار ألمانيا مرتين، ومن فرط ذكائه ونبوغه: أنه حفظ اللغة في أشهر معدودة، فاكتسب الخصال الثورية لمعرفة الواقع المتجدد.

هذا المقـوم نحـرص عليه اليـوم، ومن أغلـب الدلالات على ذلك: ما تفضل به سـيادة الرئيس زين العابدين بن علي بإطار المرجع الذي ألقاه يوم ٧ نوفمبر ٢٠٠٨م دعا فيه إلى إحكام الإحاطة بالشباب، وتجنيبهم الاغتراب الحاصل من التحولات المتسارعة، وإلى الاهتمام باللغة العربية.

وإن الإحاطة بالشباب اليوم من أدق المهام المطروحة على المجتمعات والبلدان، بحكم ما يشهده عالمنا من تطور، وما تعيشه الحضارة البشرية من تحولات متسارعة تفتح آفاقاً وفرصاً جديدة، مما يحتم حسنَ تهيئة الشباب للتأقلم معها، ومواكبتها، والاستفادة منها حتى يكون فاعلاً فيها، وحتى نجنبه ما قد ينشأ عنها من مخاطر الاغتراب، وفقدان التوازن، وغياب الوعي بالهوية. الهوية التي حرصنا دوماً على حماية مقوماتها، ومن بينها: اللغة العربية، التي ندعو وسائل الإعلام ـ وخصوصاً المرئية منها والمسموعة ـ بحكم انتشارها إلى أن تكون أول من يحافظ على سلامتها، ويعزز من حيويتها.

أيها السادة والسيدات!

إن تعلقنا بمقومات هويتنا، وحرصنا عليها لا يحتاجان إلى دليل، هنا لا بد أن نرد على من أراد أن يمس من شخصيتنا، أو من انتمائنا، إننا أمناء أوفياء، نحتضن مدارك مصلحينا، وتونس لم تعد قاصرة عن كفاية عظمائها ـ كما سجل زين العابدين السنوسي في ترجمة لمحمد الخضر حسين ـ، بل أضحت ـ وخاصة من فجر التغيير المبارك ـ أضحت معروفة بدائم اعتزازها بعظمائها، والنابغين من أبنائها، وأنها تذكرهم اليوم، وتكرمهم أحياء وأمواتاً، فحمداً لله.

إذن، نتجاوز هذا الاحتضان؛ لنؤسس ما به نحقق الرغبة الملحة لجميع المصلحين والمناضلين، ومن بينهم: الشيخ المصلح محمد الخضر حسين. بماذا؟ بالتواصل مع الأشقاء مغرباً ومشرقاً. إن الشيخ محمد الخضر حسين رحل إلى الجزائر؛ حيث وجد التبجيل أينما حلَّ، وحَسَناً فعل المنظمون للندوة حين أدرجوا في فعاليتها دور المثقف في توثيق العلاقات التونسية

الجزائرية خاصة، والعلاقات العربية عامة. كما رحل إلى مصر، وإلى سورية، وإلى تركيا، ولقي في جميعها الاحترام والتقدير. وهنا ـ فعلاً ـ كانت الندوة دولية.

نعم، إن الفكر هو القاطرة، فلنعمق الصلة الثقافية والعلمية في مجتمعاتنا، وهنا أثمّن هذه التوءمة التي قامت البارحة بين جمعيتنا، والجمعية الجزائرية. وهذا مكسب كبير نريد أن يتوسع؛ لأن وحدة الفكر هو الأسّ الذي يمكن أن نبني عليه مصيرنا المشترك، فلنعمق الصلة الثقافية والعلمية بين مجتمعاتنا؛ فهي الطريق الأمثل لكشف عقول أبنائنا على قيمنا المشتركة، أملاً في بلوغ أعلى درجات النماء والتقدم.

وإننا نرجو أن تتكرر مثل هذه الملتقيات، وستتكرر ـ إن شاء الله ـ تحقيقاً، لتناول هذا العَلَم وأعلاماً آخرين من أعلامنا الذين كان لهم الفضل في النهج الإصلاحي الذي نعتز به ونفتخر.

وإن ساعدت الأبحاث والدراسات التي تناول بها أصحابها عدداً غير قليل من المواضيع المتصلة بسيرة الشيخ محمد الخضر حسين ومواقفه وفكره، فإن المرتجى هو: أن يمضي البحث في فكر الرجل إلى أعماق ما أفضى فيه إلى الآن من نتائج ومعين لا ينضب؛ تأكيداً للحقيقة، واعتباراً لتمثيل رؤاه ومواقفه في سياقها التاريخي والسياسي بما يوسع مدى نقدها من جديد.

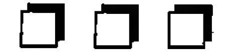
قلت: أن نجلي أسباب ما نشاهد من تطوير في مراحل حياته على أساس من الاعتصام بالقيم الخالدة، والثوابت التي لا مهرب منها.

أجدد الشكر للجمعية، والأساتذة الأجلاء، والوافدين، والمنظمين الأكفاء، والسلط الجهوية والمحلية، أشكر كل أهل الجريد. عندما أنشد

الأستاذ علي الرضا تلك الأبيات، انقدح في ذهني أن العامل الجيني له دور كبير جداً.

أشكر كل أهل الجريد الذين كان لهم ـ على الدوام ـ دور كبير، ومفترق هام في بناء الوطن وتماسكه وإشعاعه، بفضل ما أنجب من نبغاء تجاوزت حدود بعضهم حدود البلاد؛ ليقيموا جسور المحبة والإخاء والتضامن والتعاون، وبناء المصير المشترك بيننا وبين إخوتنا في المغرب والمشرق.

سدّد الله الخطا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



تعقيب الأستاذ محمد مواعدة[1] على خطاب السيد وزير الشؤون الدينية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

شكراً للأخ العزيز، وللأستاذ المتميز الدكتور أبي بكر الأخزوري وزيرِ الشؤون الدينية.

لا أقول: على هذه الكلمة، ولكن على هذا البحث الدقيق والعميق، وليس كلمة. هو بحث من أستاذ جامعي متميز معروف بتواضعه، فهذه الكلمة الآن عميقة تمثل إضاءة جوهرية في هذه الندوة. والإخوة يعرفون أن مثل هذه الندوات العلمية، هناك بحث في الافتتاح، وبحث في الاختتام، وهذا بحث الاختتام، وليس كلمة.

وأشكركم ـ أيضاً ـ على التركيز في قضية جوهرية هي قضية الهوية، خاصة وأنتم تعلمون أن قضية الهوية الوطنية والحضارية هي الآن محل مهاجمة.

نحن نعيش الآن مرحلةً، الهويةُ معرضة فيها للأخطار، ولذا قلت: ندوتُنا هدفها هدفنا هذا، وهو أن المساهمة في الحفاظ على الهوية وحمايتها، من

---

(١) كلمة الأستاذ محمد مواعدة تعقيباً على خطاب الدكتور أبي بكر الأخزوري في اختتام أعمال الندوة.

7583

بينها: العودةُ إلى مثل هذه الشخصيات التي تمثل ركائز للهوية.

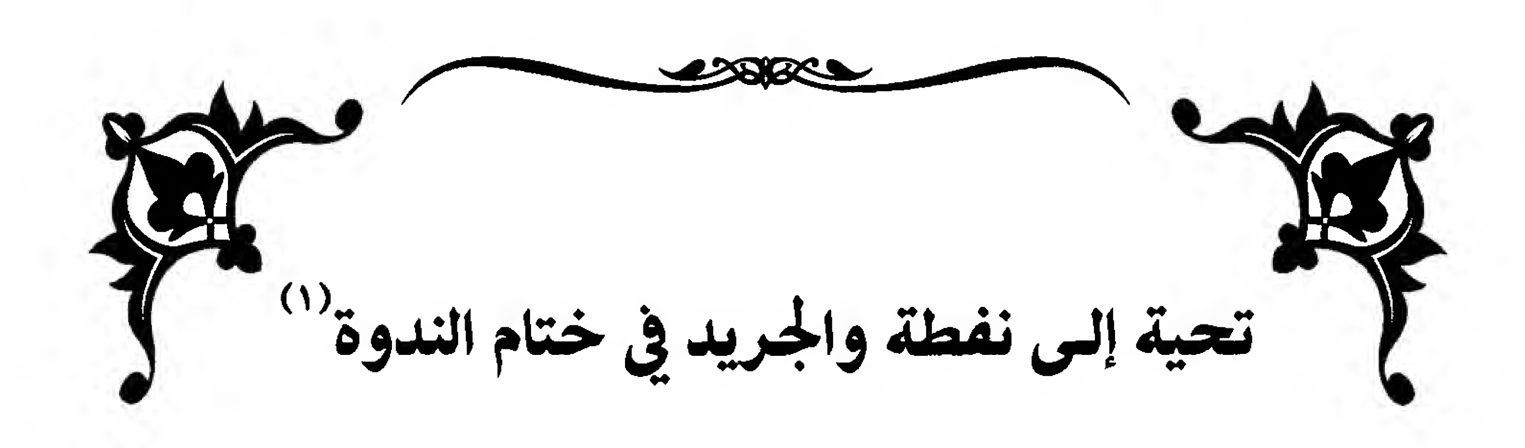
إننا في هذه الندوة جعلنا العنوان: (الندوة العلمية الأولى للعلامة محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي). وهذا الاقتراح جاء من قبل رئيس الجمعية الذي قال: «الندوة العلمية الأولى» ثم إن اللجنة التنظيمية باركت هذا التوجه؛ أي: إن هناك ندوات، وهذه الندوات ـ كما قال السيد الوزير ـ ستكون في تعميق القضايا التي تناولها الشيخ خضر حسين طوال حياته.

وبهذه المناسبة أبين للسيد الوزير ما يلي: خلال لقائي بالسيد الوالي المحترم أشرت إلى مبادرة هي الآن في دور التطور، وهي أن هدف هذه الندوة، أهميتها إلى غيرها من الندوات ستسعى إلى تكوين هيئة تهتم بأبناء الجريد قديماً وحديثاً، ونحن الآن ـ بالاتفاق مع الجمعية وأهل الجريد ـ سنسعى إلى هذا التوجيه.

وأشكر أهل الجريد، وأهل «نفطة»، وآل عزوز، والذين تعاونوا بشكل مباشر وكامل مشاركة أدبية ومادية.

وشكراً للسيد الوزير، وأطلب إبلاغ السيد الرئيس زين العابدين بن علي كامل تقديرنا، وستوجه الندوةُ برقية إلى سيادته؛ لاهتمامه بصفة شخصية في هذه الندوة، هذا التوجه الذي يسعى إلى تأصيل الكيان الوطني والحضاري، وشكراً.





تحية إلى نفطة والجريد في ختام الندوة[1]

ثلاثةُ أعيادٍ على ندوةِ (الخضْرِ) توالتْ سِراعاً في محاورةِ الفِكْرِ
وشاهدتُ أيامَ السُّرورِ قصيرةً ويا ليتَها دامتْ إلى آخرِ العُمْرِ
و«نفطةُ» فَرْحى إذْ أعدتُمْ إمامَها مُعافى من الإهمالِ والنَّسْيِ والنُّكْرِ
ولو تَنطِقُ الأحجارُ عمّا تُكِنُّهُ لَدَوَّتْ بشكرٍ وامتنانٍ إلى الفَجْرِ
وآمنْتُ بعدَ اللهِ أنَّ ارْتقاءَنا بتونسَ في خيرٍ ونمضي إلى خيرِ
وآمنتُ أنَّ الله سدَّدَ خَطْوَها وَحفَّتْ بها الأملاكُ بالسِّرِّ والجَهْرِ
ومن يجعلِ الإخلاصَ نورَ طريقهِ مُنيباً إلى الرحمن واصلَ للنَّصْرِ
رأيتُ وجوهاً ترسم العِلْمَ صورةً وأنصَتُّ للأفواهِ تنثر بالدرِّ
فطاحلُ، بلْ أفذاذُ، بلْ خيرُ نخبةٍ تجودُ بها الأيامُ في زَمنِ العُسْرِ
وقولوا إلى الشَّرْقِ الحبيبِ بحكمةٍ ألا فانْظروا الأمجادَ في المغْرب الحُرِّ
تَعالوا جميعاً نَبْتني خيرَ أمَّةٍ بوحدَةِ أوطانٍ تُنَوِّرُ كالبَدْرِ
وننقذُ هذا الدِّينَ من كفِّ ظالمٍ وعالَمَنا المجنونَ من سُلْطةِ الكُفْرِ

---

(١) أبيات ألقاها علي الرضا الحسيني في ختام ندوة: (الإمام العلامة محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي).

وَلَـمْ امْتَـدِحْ بالـشِّعْرِ يومـاً وإنَّمـا (مواعدةٌ)[1] أهديهِ شعري مع النَّثْـرِ

وأُهدي إلى (عِمران)[2] تَمَّ (كمالُه) وفاءً لما أبـداه فـي سـاحةِ النَّـشْرِ

تحيـــةَ تقـــديرٍ تُـــزَفُّ كريمـــةً لجمعيةٍ تُحيي التُّراث مِـنَ الهَجْـرِ

علي الرّضا الحسيني

❒ ❒ ❒

---

(١) الأستاذ محمد مواعدة الذي بذل الجهد الأكبر بنشاطه واتصالاته لإنجاح الندوة.

(٢) الأستاذ كمال عمران رئيس (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي).



ملاحظة واعتذار

ألفت نظر القارئ الكريم إلى أني استنسخت المحاضرات والكلمات والمداخلات التي ألقيت في الندوة من أقراص (D.V.D)، وقد عانيت الكثير من الاستنساخ لسببين:

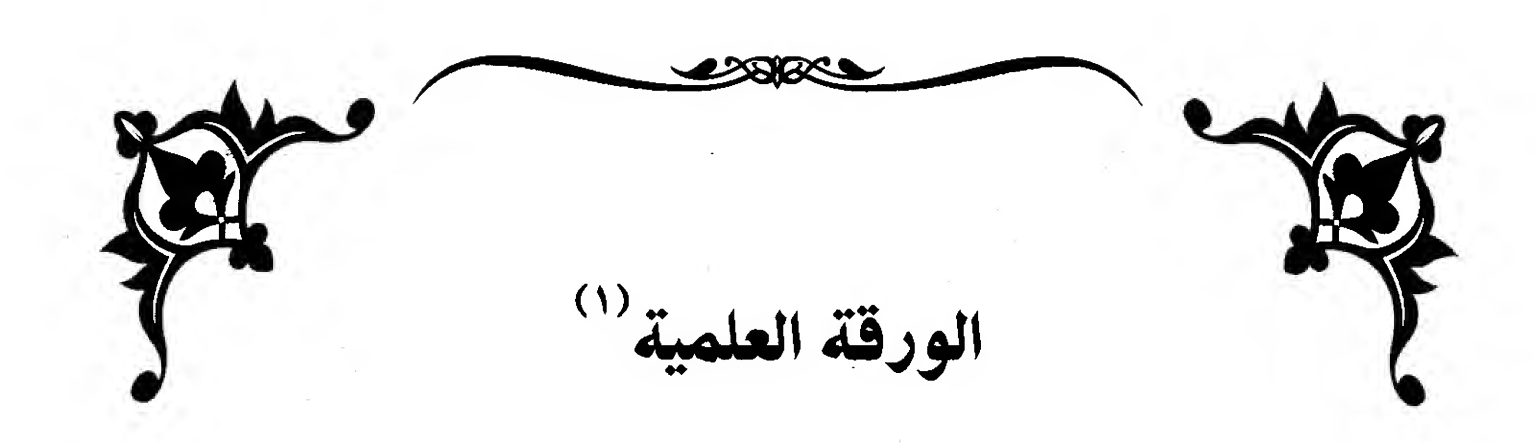
أ ـ أن المتكلم من وراء (الميكروفون) قد يلتفت يمنة أو يُسرة دون قصد منه، فيغيب وضوح بعض الكلمات، وبعضها لا يُسمع إطلاقاً، لذا يكون التسجيل مطموساً.

ب ـ هناك أحد الحاضرين في جميع جلسات الندوة كان مصاباً بالسعال الحاد، ويبدو أنه اختار الجلوس بالقرب من (كاميرا) التصوير والتسجيل، وسعاله يطمس بعض الكلمات التي لم أتمكن من استيضاحها.

ولئن كانت الكلمات المطموسة معدودة على الأصابع، ولم تؤثر على المضمون، إلا أنه اقتضى التنويه والاعتذار.

ونشير إلى أن بعض المحاضرات لم تكن مسجلة على أقراص (D.V.D)، ويرغم طلبنا من أصحابها ليبعثوا بها، فلم يستجيبوا ـ للأسف ـ.

❑ ❑ ❑



الورقة العلمية(1)

ظهرت في البلاد التونسية مع مطلع القرن العشرين كوكبة من رجال الإصلاح والتنوير، تخرّج أفرادها من الجامعة الزيتونية، ونهلوا مما كانت تقدّمه (الجمعية الخلدونية) من دروس في شتّى المعارف باللسان العربي، وتعاضدوا مع أقرانهم الصادقيين.

وقد اضطرت فئة منهم إلى شد الرّحال إلى الشّرق نتيجة ملابسات وإكراهات، وسعت إلى التعريف بالقضيّة التونسية، والاستزادة من المعارف والعلوم؛ ممّا بوّأهم أعلى المراتب العلمية والثقافية.

وقد كان الشيخ محمد الخضر حسين في مقدّمة هؤلاء، بعد أن سعى إلى إشاعة مبادئ الإصلاح والحرية في تونس، وأصدر مجلة «السعادة العظمى». ثم سطع نجمه عند انتقاله إلى الشرق في الشام ومصر، وقد بوّأه علمه الغزير، وشهادة أولي العلم له بالمعرفة الواسعة، للعضوية في مجمع اللغة العربية في كل من دمشق والقاهرة، وبالخصوص: تولّيه منصب مشيخة جامع الأزهر، وهو مركز جليل لا يُعهد إلاّ لمن رسخت قدمُه في العلم.

وقد تميزت شخصية هذا العلامة بالمساهمة الميدانية في الحركة التحريرية

---

(1) الأستاذ فتحي القاسمي.

لبلدان المغرب والمشرق والعالم الإسلامي، وكانت له صلات وروابط فكرية مع جمّ من علماء الشرق والمغرب، وطائفة من المستعربين.

وألّف كثيراً من الكتب في شتى الأغراض؛ مما جعل آراءه في حاجة إلى البحث والمساءلة؛ ذلك أنها تثير عدداً من الإشكاليات المتعلّقة بدور العلماء التونسيين المهاجرين والمغاربيين عموماً إلى الشرق والغرب، في حركة التحرير الوطني والإصلاح الفكري في النصف الأول من القرن العشرين.

كما تكشف آراؤه عن ملامح المشروع الفكري التنويري الذي عرضه الشيخ محمد الخضر حسين ومعاصروه من ذوي الأفكار المناوئة للاستعمار من ناحية، وللعقول المتحجّرة ودعاة التقليد من ناحية أخرى، ما يرتبط بالمناهج المبتكرة لدى العلماء الزيتونيين لإصلاح مؤسسة التعليم (مناهج ومقررات)، وتطوير الفكر الديني في المغرب والمشرق العربيّين.

وتثير شخصية الشيخ الخضر حسين ـ من خلال ردوده على كلٍّ من علي عبد الرّازق، وطه حسين، ومقالاته الكثيرة حول مسائل أدبيّة وفكرية واجتماعيّة ـ تساؤلاتٍ جوهريةً ترتبط بخصوصيّات التفكير الديني لدى العلماء التونسيين المهاجرين والمغاربة عموماً، ومدى التزامهم بالأطروحات والمواقف المتعلقة بقضايا الدين والدنيا.

كما يطرح السؤال حول مدى مساهمة نشاطهم في الشرق والغرب في إغناء آفاقهم الذهنية، وتسديد تجاربهم النضالية، وترسيخ معارفهم العلمية.

وتطمح هذه الندوة إلى تبيّن أهم ما يُميّز الفكر الإصلاحي الإسلامي، انطلاقاً من هذا العالم الذي ارتبط اسمه بمسيرة الحركة الفكرية الإصلاحيّة،

والنظر في مدى إشعاعها وتأثيرها في فترة تاريخية هامة وحسّاسة، مثّلت منعطفاً في تاريخ العالم العربي والإسلامي. ونظراً إلى أصول العلامة محمد الخضر حسين الجزائرية، ونشأته وتكوينه التونسي، وبروز شخصيته العلمية والثقافية، وبلوغ أوجها في كل من سورية ومصر، حسب تعبير العلامة الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، فإن هذه الندوة تطمح ـ أيضاً ـ إلى المساهمة في ترسيخ العلاقات الثقافية والفكرية بين المغرب والمشرق العربيين، وبالخصوص بين الجارتين الشقيقتين تونس والجزائر. وهو ما ستسعى المائدة المستديرة ـ حول دور المثقف في توثيق العلاقات التونسيّة الجزائرية خاصة، والعلاقات العربية الإسلامية عامة، من خلال شخصية الشيخ محمد الخضر حسين ـ إلى إبرازه.

❐ ❐ ❐



برنامج الندوة

*** اليوم الأول ـ الجمعة ١٦ جانفي ٢٠٠٩ :**

ـ صباحاً:

١٠.٠٠ ـ ١١.٣٠	**الجلسة الافتتاحية :**
١٠.٠٠ ـ ١٠.١٠	كلمة اللجنة التنظيمية يلقيها الأستاذ محمد مواعدة .
١٠.١٠ ـ ١٠.٢٠	كلمة السيد والي توزر الترحيبية .
١٠.٢٠ ـ ١٠.٣٠	كلمة السيد وزير الثقافة والمحافظة على التراث الأستاذ عبد الرؤوف الباسطي .
١٠.٣٠ ـ ١٠.٤٠	كلمة الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي .
١٠.٤٠ ـ ١٠.٥٠	كلمة العائلة يلقيها الأستاذ علي الرضا الحسيني .
١٠.٥٠ ـ ١١.٠٠	كلمة الجمعية الخلدونية بالجزائر يلقيها الأستاذ فوزي المصمودي.
١١.٠٠ ـ ١١.١٠	كلمة الأستاذ المنجي الشملي باسم المشاركين .
١١.١٠ ـ ١١.٣٠	استراحة، وزيارة المعارض المقامة على هامش الندوة (مؤلفات الشيخ محمد الخضر حسين ـ صور تذكارية له ـ صور حول نفطة والجريد ـ كلمات مأثورة للشيخ محمد الخضر حسين ـ معرض تشكيلي حول مدينة تونس أيام العلاّمة محمد الخضر حسين ـ معرض بيت البناني حول الشيخ محمد الخضر حسين) .

ـ بعد الظهر :

١٦ . ٠٠ ـ ١٨ . ٢٠	**الجلسة العلمية الأولى :** **محورها : شخصية الشيخ محمد الخضر حسين.** رئيس الجلسة الأستاذ العربي الزبيري (الجامعة الجزائرية).
١٦.٠٠ ـ ١٦.٢٠	المحاضرة الأولى: المرحلة التونسية في حياة محمد الخضر حسين . الأستاذ محمد مواعدة. (تونس).
١٦.٢٠ ـ ١٦.٤٠	المحاضرة الثانية : المرحلة السورية في حياته، الأستاذ علي الرضا الحسيني (سورية).
١٦.٤٠ ـ ١٧.٠٠	المحاضرة الثالثة: المرحلة المصرية في حياته، الأستاذ مجاهد توفيق الجندي (مصر).
١٧.٠٠ ـ ١٧.٢٠	المحاضرة الرابعة: عرض حول زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز وأشهر أعلامها، الدكتور حسين بن عزوز.

*** اليوم الثاني ـ السبت ١٧ جانفي ٢٠٠٩م:**

ـ صباحاً:

٩.٣٠ ـ ١٢.٣٠	**الجلسة العلمية الثانية :** **محورها : العلاّمة محمد الخضر حسين والإصلاح الديني والاجتماعي.** رئيس الجلسة : الأستاذ مجاهد توفيق الجندي.
٩.٣٠ ـ ٩.٥٠	المحاضرة الأولى: الفكر الإصلاحي ومشاريع التحديث، الأستاذ الحبيب الجنحاني (تونس).
٩.٥٠ ـ ١٠.١٠	المحاضرة الثانية : الإصلاح التربوي في فكر العلامة محمد الخضر حسين، الأستاذ مصدق الجليدي (تونس).

١٠.١٠ ـ ١٠.٣٠	المحاضرة الثالثة: مجلة «السعادة العظمى»، وقضايا الإصلاح، الأستاذة نجاة بو ملالة (تونس).
١٠.٣٠ ـ ١٠.٥٠	المحاضرة الرابعة: تطوّر الخطاب الديني للشيخ محمد الخضر حسين من «السعادة العظمى» إلى «الهداية الإسلامية»، الأستاذ جمال الدين دراويل (تونس).
١٠.٥٠ ـ ١١.١٠	المحاضرة الخامسة: العلامة محمد الخضر حسين فقيهاً مُجدّداً، الأستاذ مختار الجبالي (تونس).
١١.١٠ ـ ١٢.٣٠	نقاش.

ـ بعد الظهر:

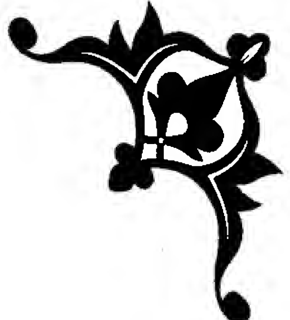
١٥.٣٠ ـ ١٨.٠٠	**الجلسة العلمية الثالثة:** **محورها: العلاّمة محمد الخضر حسين ومساجلاته الفكرية.** رئيس الجلسة: الأستاذ محمد مواعدة.
١٥.٣٠ ـ ١٥.٥٠	المحاضرة الأولى: الشيخ محمد الخضر حسين صحفياً، الأستاذ فوزي المصمودي (الجزائر).
١٥.٥٠ ـ ١٦.١٠	المحاضرة الثانية: تطوير الفكر الديني من خلال مجلة «السعادة العظمى»، الأستاذ كمال عمران (تونس).
١٦.١٠ ـ ١٦.٣٠	المحاضرة الثالثة: نقائض الشيخ محمد الخضر حسين، الأستاذ فتحي القاسم (تونس).
١٦.٣٠ ـ ١٦.٥٠	المحاضرة الرابعة: الشيخ محمد الخضر حسين شاعراً، الأستاذ محجوب عون (تونس).
١٦.٥٠ ـ ١٧.١٠	المحاضرة الخامسة: الشيخ محمد الخضر حسين مُفسّراً، الأستاذ أنور بن خليفة (تونس).
١٧.١٠ ـ ١٨.٠٠	نقاش.

* اليوم الثالث ـ الأحد ١٨ جانفي ٢٠٠٩م:

ـ صباحاً:

٩.٣٠ ـ ١٢.٠٠	مائدة مستديرة بإشراف السيد وزير الشؤون الدينية الأستاذ أبي بكر الأخزوري، يُديرها الأستاذ الحبيب الجنحاني، ويُقدّمها الأستاذان: محمد الصالح الجابري، والعربي الزبيريّ.
١٢.٠٠ ـ ١٢.٣٠	اختتام الندوة، وتكريم المحاضرين والمساهمين في إنجازها. ـ تكريم ثلة ممن خدموا التراث الفكري التونسي. ـ غداء على شرف المحاضرين والضيوف.
١٥.٥٠ ـ ١٨.٣٠	زيارات ميدانية إلى الواحة، وسيدي بو علي، وزاوية الشيخ مصطفى ابن عزوز، وضريح الشاعر مصطفى خريف. ـ زيارة جماعية إلى توزر، ودار شريط...

❒ ❒ ❒

شهادات حول
العلامة محمد الخضر حسين

* **الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:**

«قد عرفت الحكومة من صديقنا هـذا، وعرف الناس عنـه بما جاءت مجلته العلمية العظمى «السعادة العظمى» (. . .) من البرهان على أنَّ في الطبقة العلمية العربية التونسية المتهمة بالبعد عن الشعور بالحاجات القومية رجالاً يقتاد الواحد منهم الأفكار، ويأتي بالآيات والأعمال الكبار، هكذا جعل رفيقنا هذا بمجلته لهاته الفئة اسماً شهيراً في النهضة».

* **محبّ الدين الخطيب صاحب مجلة «الفتح» المصرية:**

«نزل مصر، ومع تحاميه الإعلان عن نفسه، فإن عارفي فضله ونبله أحلُّوه المحلّ اللائق بكرامته، وانتدب للعمل خمسة أعوام في دار الكتب المصرية (. . .)، وتقدم لامتحان العالمية الأزهرية، فنال شهادته بتفوق (. . .)، ولا جدال في أن تجنس السيد الخضر بالجنسية المصرية غُنمٌ لمصر، وجوهرة يزدان بها تاج علماء الدين».

* **عبد العظيم الزرقاني:**

«الأستاذ الخضر نفحة من نفحات الحق في هذا العصر، جاد به الجواد على هذا العالم العقيم، فأحيا به من أموات الإسلام، وجدّد بعزمه من شباب الدّين».

*** جريدة «الوزير» التونسية (العدد ٧٧٣ الصادر في ١٩٥٢/١٢/٢٥م):**

«لأول مرة في تاريخ الأزهر، أو في تاريخ شيوخ الأزهر يذهب ثلاثة من الوزراء يطرقون باب شيخ، شيخ يبعد كل البعد عن الأزهر، وسياسة الأزهر، وأزمة الأزهر، ومناصب الأزهر، ذهب ثلاثة من الوزراء إلى شارع خيرت؛ ليطرقوا باب الشيخ الخضر حسين التونسي الأصيل، المصري الجنسية، وذهبوا إليه ليقولوا له: أنت شيخ الأزهر».

*** الشيخ محمد الفاضل بن عاشور:**

«كان في شبابه بتونس على ما عرف من الشرق في كهولته وشيخوخته اعتدالاً، وهدوء طبع، وخلوص نية، وسعة علم، وبراعة قلم».

*** د. صلاح الدين المنجد السّوري:**

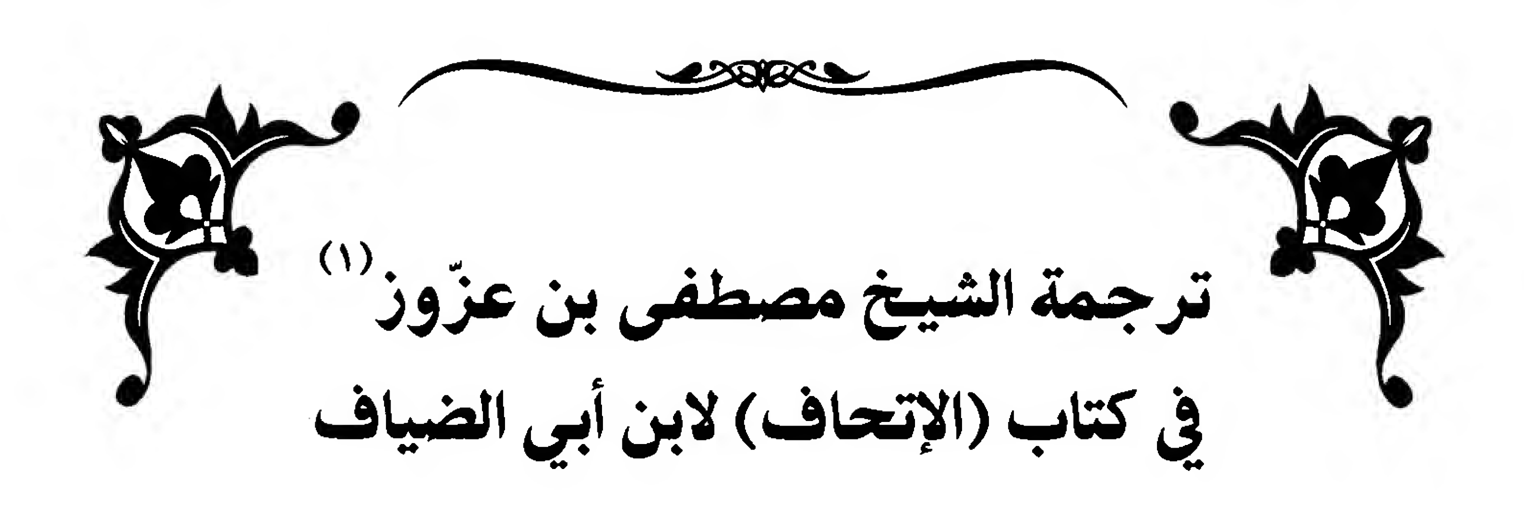
«كانت داره في حي الميدان مجمعَ الأفاضل، وكانت له دروس عامة يلقيها، ويجتمع فيها الكثيرون، ويفيدون منها، وكان في منتهى الذكاء، يخاطب كلاً على قدر عقله وفهمه، وكان لطيف المعشر، خفيف الظل، مع صلاح ووقار».

*** الأستاذ أبو القاسم محمد كرّو:**

«كان أحد الذين ساهموا في بعث الثورات المسلحة بالجنوب. . . وكان هو والشيخان: صالح الشريف، وإسماعيل الصفايحي القادةَ الحقيقيين للنضال التونسي في أوروبا خلال الحرب العالمية الأولى».

*** خير الدين الزركلي:**

«كان هادئ الطبع، وقوراً، خصّ قسماً كبيراً من وقته لمقاومة الاستعمار، وانتخب رئيساً لجبهة الدفاع عن شمال إفريقيا».



ترجمة الشيخ مصطفى بن عزّوز[1] في كتاب (الإتحاف) لابن أبي الضياف

العالم الوليّ، العارف بالله، أبو النخبة، سيدي مصطفى بن عزوز.

هو من بيت فضل وعلم وصلاح، وزاويتهم بصحراء الزاب من عمل «بسكرة». ومحل زاويتهم ببلدة صغيرة تسمى بالبرج. ولآل بيته شجرة بتلك النواحي؛ كما له بهذا القطر الإفريقي. ودخل هذا الولي للقطر التونسي، وبث الطريقة الرحمانية في العروش، وجدد لهذه الأمة أمر دينهم، وطريقته لا تشديد فيها لمن أراد التوغل في السلوك والخلوة، ويأمر الناس بأداء فريضة الصلاة، وذكر لا إله إلا الله بقدر الإمكان.

وطار صيته، وظهرت كرامته في العربان، لاسيما في الجهة الغربية، وأنشأ زاوية بنفطة للصادر والوارد. وكان المشير أبو العباس أحمد باي يعظم شأنه، ويجلُّه، واجتمع به غير مرة... وسافر لأداء فريضة الحج، ورجع لتونس.

ومنّ الله به على هذا القطر، فأطفأ نار فتنة تأجّجت في سنة ثمانين؛ لأجل مغرم الاثنين وسبعين. وضمن للناس الأمان، وطوّع العاصي، وقرب القاصي، واستنزل أهل المنعة من الصياصي، ساق لذلك من بيده النواصي،

(١) جد الإمام محمد الخضر حسين من جهة الأم.

ورجع لزاويته بنفطة. وكان ما كان من الاغترار بالأمان، فتغير الشيخ، وأصبح من النادمين من أجل ذلك، والمؤمن لا يلدغ من جُحْر مرتين.

وكان تقياً، نقياً، فقيهاً، صوفياً، قسم حياته بين تلاوة وذكر، ونظر في الملكوت بإعمال فكر، ووعظ وإفادة، وإخلاص في التهجّد والعبادة، وهداية إلى طرق السعادة، وإصلاح ذات البين، وإعانة المحتاجين، ورحمة المساكين، وهداية الضالين، وإلى غير ذلك من أخلاق الصالحين.

وكان ـ رحمهُ الله ـ فصيح اللسان، بليغ البيان في أسرار آي القرآن، صاحب ذوق في مقام العرفان، متواضعاً على رفعة هذا الشأن. يرشح وعاؤه بالرحمة والرأفة والحنان، يحب الخير لكل إنسان، داعياً لعباد الله بالهداية والإيمان والإحسان، ما شئت من محاضرات أبرار، ومطالع أسرار وأنوار، وزهد أخيار.

ولم يزل على حاله، ناظراً لمآله، يحاسب نفسه عن دقائق أعماله، ولقاءُ الله أحبُّ آماله، إلى أن أحب الله لقاءه ليلة الاثنين، آخر ذي الحجة سنة (١٢٨٢هـ، ١٤ ماي ١٨٦٦م)، ودفن بزاويته بنفطة. وترك الدنيا وأهل عصره يثنون عليه بخير. والآخرة خير ـ رحمه الله ـ.

*** حول مدينتي «نفطة»، و«توزر»:**

«بَلدَان صِنْوان، وأختان توءمان جاثمان وسط رمال الصحراء، بين شط الجريد وشط الغرسة، ودُورُهُما مبنية بالآجر، وقد خطت على جدرانهما أشكال هندسية تجدها مرسومة بالزاربي، والمناطق (ج نطاق) الحريرية المزركشة التي تصنع هناك. يشرب أهلها من العيون النضاخة المنبجسة من الرمال، فتسقي واحتيهما الفاتنتين (...).

وقد امتازت الوديان (منطقة دقاش) (فيهما) بالخصب وطيب الثمر، بفضل السد الجبلي الذي يحمي واحتهما من ريح الرمال والزمهرير. كما أن بلاد الجريد ـ عامّة ـ تنتج أحسن ثمار العالم طعماً وجمالاً (. . .).

حامة الجريد: واحة ذات مياه حارّة، فيها عدّة حمّامات طبيعية عمومية، يؤمها سكان الجريد خاصة في فصل الصيف؛ لطيب هوائها، وعذوبة مائها، وحمّاماتها المعدنية.

واشتهرت بلاد الجريد ـ عامة ـ بنسج البرانس الرفيعة، والجبب الحريرية والصوفية الدقيقة».

(انتهاء النشرة الإعلامية عن الندوة)

إبراهيم بن علي العبيدي النفطي
جغرافية تونس الحديثة
تونس: مطبعة الشريف (المقدمة ١٩٥٠) ص: ١١



نفطة (الكوفة الصغرى) تحتضن ندوة علمية حول العلامة محمد الخضر حسين[1]

بين أحضان واحات الجريد في أحد نزل «نفطة»، التأمت الندوة العلمية الأولى حول العلامة محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي، بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاته، وذلك أيام ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ جانفي ٢٠٠٩م.

هذه الندوة نظمتها (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي)، بالتعاون مع وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، ووزارة الشؤون الدينية.

*** العلامة محمد الخضر حسين في سطور:**

محمد الخضر حسين، تونسي، ينحدر من عائلة جزائرية الأصل، ولد بنفطة سنة ١٨٧٣م، حصل على شهادة التطويع من جامع الزيتونة ١٨٩٨م، أنشأ أول مجلة في تونس أسماها: «السعادة العظمى» ناطقة بالفصحى، ومزاحمة لمجلة «المنار» المصرية، وفي سنة ١٩٠٥م تولى خطة القضاء ببنزرت، واستقال منه بعد شهور قليلة.

كما شارك الشيخُ في تأسيس (جمعية تلامذة جامع الزيتونة) قبل هجرته

---

(١) الملحق الثقافي الصادر في الخميس ٥ فيفري ٢٠٠٩م بجريدة «الحرية» تونس. بقلم عبد الكريم عمار.

إلى الشرق سنة ١٩١٢م. وهناك في دمشق وقع اختياره عضواً في (مجمع اللغة العربية) سنة ١٩١٩م. وانتقل إلى مصر، واستقر بها سنة ١٩٢٠م، تألق نجم الشيخ في الأوساط العلمية بعد ردّه على كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم»، وذلك سنة ١٩٢٦م، كما ردّ على كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» بكتاب «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» سنة ١٩٢٧م.

أسس العلامة محمد الخضر حسين مجلة «الهداية الإسلامية» سنة ١٩٢٨م، بالتعاون مع ثلة من علماء الأزهر، وكان أول رئيس لها، تواصل صدورها سنوات، ثم توقفت في أثناء الحرب العالمية الثانية، وشارك كذلك في تأسيس (جمعية الشبان المسلمين) بمصر في نفس السنة.

عُين الشيخ عضواً بجماعة كبار الأزهر، تولى مشيخته سنة ١٩٥٢م، واستعفى من ذلك المنصب لتقدم سنه بعد سنتين، واستمر يمارس نشاطه العلمي دون انقطاع إلى أن توفي في شهر فيفري ١٩٥٨م، ودفن ـ رحمه الله ـ في التربة التيمورية بالقاهرة.

*** افتتاح الندوة:**

في صباح الجمعة ١٦ جانفي ٢٠٠٩م، افتتحت الندوة بحضور السيد عبد الرؤوف الباسطي وزير الثقافة والمحافظة على التراث، الذي ألقى كلمة بعد اللجنة التنظيمية والكلمة الترحيبية للسيد والي توزر، وبعد ذلك ألقى الأستاذ فتحي القاسمي كلمة (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث التونسي).

وقد حضر الندوة من سورية: الأستاذ علي الرضا الحسيني «ابن أخي الشيخ»، ومن الجزائر: الأستاذ فوزي المصمودي عن (الجمعية الخلدونية)،

والأستاذ العربي الزبيري (الجامعة الجزائرية).

وحضر من مصر: الأستاذ مجاهد توفيق الجندي (جامع الأزهر)، ومن الكويت: الأستاذ فهد سالم الراشد.

* **محاضرات الندوة:**

تمحورت محاضرات ومداخلات الندوة حول ثلاثة محاور رئيسية:

- شخصية الشيخ محمد الخضر حسين.
- العلامة محمد الخضر حسين والإصلاح الديني والاجتماعي.
- العلامة محمد الخضر حسين ومساجلاته الفكرية.

في الجلسة العلمية الأولى سلطت محاضرة الأستاذ مواعدة الضوء على المرحلة التونسية من حياة الشيخ، وجاءت المحاضرة الثانية التي ألقاها علي الرضا الحسيني (سورية) مبينة المرحلة السورية من حياته.

أما المحاضرة المتعلقة بالمرحلة المصرية، فقد أُجلت إلى الغد؛ بسبب تأخر قدوم الأستاذ مجاهد توفيق الجندي، وفي ختام الجلسة قدم الأستاذ حسين بن عزوز محاضرة حول زاوية مصطفى بن عزوز، وأشهر أعلامها، خاصة: المكي بن عزوز خال العلامة الخضر حسين.

وفي اليوم التالي ١٧ جانفي ٢٠٠٩م تناولت الجلسة العلمية الثانية محور الإصلاح الديني والاجتماعي عند العلامة؛ فقد نزل الأستاذ الحبيب الجنحاني تجربة الشيخ الإصلاحية في سياقها التاريخي والفكري بمحاضرة متميزة عنوانها: «الفكر الإصلاحي ومشاريع التحديث»، كما تناول الأستاذ أنور ابن خليفة في محاضرته «تجربة التفسير عند الشيخ»، فأبرز منهجه في ذلك المجال من خلال تفسيره لسورة «البقرة»، وبعض السور الأخرى.

أما الأستاذة نجاة بو ملالة، فقد تطرقت في محاضرتها إلى قضايا الإصلاح من خلال دراسة مستفيضة لمجلة «السعادة العظمى».

وألقى الأستاذ جمال الدين دراويل محاضرة رصد فيها تطور الخطاب الديني لدى الشيخ من «السعادة العظمى» إلى «الهداية الإسلامية». ولم تكن الجلسة العلمية الثالثة أقل أهمية من الجلستين الأوليين؛ فقد تناولت مساجلات الشيخ الفكرية، فجاءت محاضرة الأستاذ فوزي المصمودي (الجزائر) لتبين النشاط الصحفي الذي قام به الشيخ منذ بداية مسيرته العلمية إلى حين وفاته.

وعن تطوير الفكر الديني من خلال مجلة «السعادة العظمى» ارتجل الأستاذ كمال عمران محاضرة متميزة بيّن فيها إسهامات الشيخ في هذا المجال.

أما الأستاذ فتحي القاسمي، فقد تناولت محاضرته نقائض العلامة محمد الخضر حسين من خلال دراسته لكتابيه: «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، و«نقض كتاب في الشعر الجاهلي» لطه حسين.

وفيما يخص تجربة الشيخ الشعرية، فقد تناولها الأستاذ محجوب عون في محاضرة بيّن فيها رسوخ قدم الشيخ في مجال الشعر من خلال دراسته لقصائده.

وفي اليوم الثالث من أيام الندوة، قدّم الأستاذ مصدق الجليدي محاضرة حول الإصلاح التربوي في فكر الشيخ، وبعدها أتم الأستاذ الجندي عرض بعض الوثائق والأدوات التي جلبها من رواق المغاربة بالأزهر الشريف، ثم دارت مداولات حول دور المثقف في توثيق العلاقات التونسية الجزائرية

خاصة، والعلاقات العربية الإسلامية عامة: العلامة محمد الخضر حسين أنموذجاً.

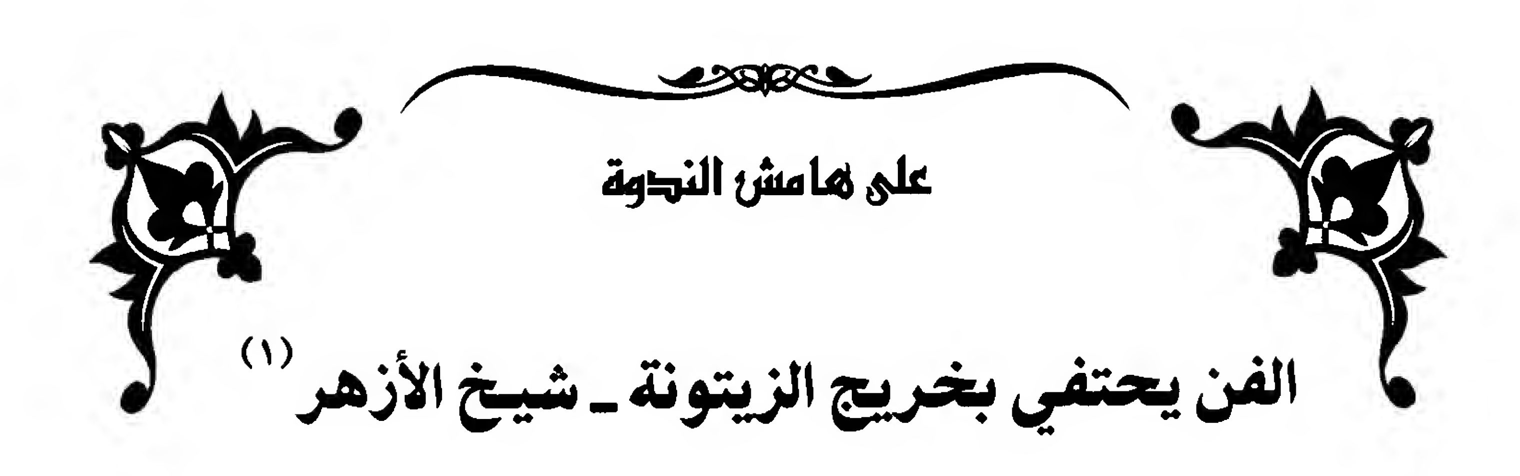
* **اختتام الندوة:**

اختتمت الندوة بكلمة ألقاها الأستاذ أبو بكر الأخزوري وزير الشؤون الدينية، أكد فيها على مقومات الهوية وثوابتها، وبارك أعمال الندوة، كما تولى تكريم الأستاذ المنجي الشملي، بمنحه شهادة تقدير؛ اعترافاً بمساهمته العلمية في الندوة، وكرم السادةُ: والي توزر، معتمدُ نفطة، المندوب الجهوي للثقافة والمحافظة على التراث، والكاتبُ العام للجنة التنسيق بتوزر، كرموا المحاضرين والمساهمين في إنجاز الندوة.

وإلى جانب النجاح العلمي الذي حققته الندوة، وثقت عرا التواصل والتعاون الثقافي بين تونس والجزائر بالإعلان عن توءمة بين (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي)، (والجمعية الخلدونية بالجزائر).

وعلى هامش الندوة أقامت الفنانة التشكيلية روضة يحيى معرضاً لمجموعة من لوحاتها، كما احتفت (المدرسة الأساسية الخضر حسين) بنفطة بضيوف الندوة؛ إذ قدم كورال أطفالها مجموعة من الأناشيد والأغاني.





على هامش الندوة

الفن يحتفي بخريج الزيتونة ـ شيخ الأزهر [1]

من الأمور التي سعت إليها (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي) ضمن ندوتها العشرين، والتي خصصتها للعلامة محمد الخضر حسين، بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاته، وذلك أيام ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ جانفي ٢٠٠٩م، إلى جانب تتبع الوعي الإصلاحي لدى الرجل، هو: محاولة استعادة عناصر الحياة بكل تفاصيلها في الفترة التي عاش فيها هذا المفكر الفذّ، سواء في تونس، أو في الشرق العربي، أو في الغرب.

ويتجلى ذلك ـ بالنسبة إلى مصر ـ في العرض الذي قدمه الأستاذ مجاهد توفيق الجندي، الذي حمل للندوة الأدوات التي كان للأزهر، بالإضافة إلى عديد الوثائق والملبوسات وغيرها.

كما مثلث المعارض التي أقيمت بالمناسبة مظاهر من تلك الحياة منذ تأسيسه لأول مجلة عربية في تونس بعنوان «السعادة العظمى» سنة ١٩٠٤م، وحتى سنة ١٩٥٨م شهر فيفري؛ حيث نشر آخر مقال له في مجلة «لواء الإسلام»، وهو الشهر نفسه الذي توفي فيه.

---

(١) الملحق الثقافي الصادر في الخميس ١٢ فيفري ٢٠٠٩م بجريدة «الحرية» تونس. بقلم أحميدة الصولي.

وتؤكد المعارض التذكارية التي أقيمت حول حياة الشيخ في نفطة، والجريد، ومعرض بيت البناني، ومعرض مؤلفاته: أن الرجل يمثل مؤسسة عتيدة، سيكون موضوع أكثر من ندوة في المستقبل.

ويقدم معرض الرسم حول مدينة تونس أيام العلامة محمد الخضر حسين، للرسامة الناشئة روضة يحيى، مظهراً من مظاهر الحياة العامة إذ ذاك، وخاصة من حيث العمارة التي تعكس هدوء الحياة وبساطتها، ولا تنسى الأعمال بما يتحرك في الأعماق من ردود فعل تجاه ما يجري في مواجهة المستعمر، ومن طابور المحافظين على تكريس الاستسلام والقبول بما يأتيه الأجنبي، إلا أن الشيخ محمد الخضر حسين مزّق الصمت، ونبش في الضمائر، وحرك السواكن بمجلته «السعادة العظمى»، وبما استحدثه من أساليب في التناول والطرح وما إليهما.

ففي معرض اشتمل على ١٧ لوحة من أحجام متوسطة ـ غالباً ـ، جميعها تتناول العمارة من خلال الزوايا والكتاتيب والمساجد والأسواق القديمة، وفيها تتجلى خصوصيات العمارة والفضاءات؛ كأماكن العبادة بأقواسها وصوامعها.

كما أنجزت هذه الرسامة صورة الشيخ محمد الخضر حسين جاءت ألوانها تتميز بالهدوء، ومتماهية مع المظهر العام، وناهلة منه، وهو ما يمكن مشاهدته في بعض البناءات المتداعية، أو التي في حالة ترميم، هنا أو هناك في البلاد التونسية. وفيها يستذكر المشاهد، أو ربما تحمله تلك الألوان إلى سنوات بداية القرن العشرين، وما ينتشر فيها من البناءات البسيطة، ولكنها تتمتع بجمال خاص، وتحمل طابعاً معمارياً متميزاً، وبتلك المعارض كان

للفن حضور الاحتفاء بالشيخ محمد الخضر حسين.

كانت مدينة «نفطة» بكل ما فيها، تذكرنا بشخصية الشيخ محمد الخضر حسين، وقد أسهم عدد من أبنائها في فتح فضاءاتهم لتكون امتداداً للتظاهرة؛ مثل: المتاحف الخاصة، والمحلات، وغيرها.

وباعتبار أن أصل عائلة الشـيخ من الجزائـر، فقد أسهم وفد هام من الأساتذة الجزائريين في الندوة، وكان تداخلهم لافتاً ومؤثراً، ومؤكداً: أن الشيخ شخصية عربية تؤسس للإصلاح، وتتصدى لمعوقات التطور والنمو الفكري، والتحرر من الاستعمار، والبناء الحضاري.

يذكر أن ابن أخي المحتفى به الأستاذ علي الرضا الحسيني قد قام بطباعة جميع آثاره في دمشق حيث يقيم، وينتظر أن تصدر طبعة بأعماله الكاملة في تونس. وتوجد بنفطة مدرسة باسمه تتميز بتفوق تلاميذها، وحصولهم على عديد الجوائز التي تؤكد نبوغهم وإبداعهم، خاصة من خلال نشريتهم، علماً بأن للمدرسة فرقة أطفال للإنشاد، ساهمت بعدد من الأغاني والأناشيد في أمسية اليوم الثاني من الندوة التي استمرت ثلاثة أيام.

وليس هنا التعرض إلى ما أسهم به بعض المشاركين من أفكار حركت في الجميع روح التحفز الإيجابي؛ مثل: الأساتذة المنجي الشملي، ومحمد مواعدة، والحبيب الجنحاني، وكمال عمران من تونس، والعربي الزبيري من الجزائر، وغيرهم.

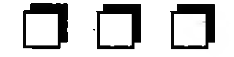
مع ذلك، نلاحظ أن ثلاثة عناصر أساسية ميزت هذه الندوة، أشار إليها أحد الأساتذة بالجامعات الجزائرية، هي: الوضوح في الأهداف، وهدوء الخطاب، واتباع المناهج العلمية. وهذه العناصر إذا ما توفرت، تنتج عملاً

أو أعمالاً هادفة، وذات فوائد جمة. وهو ما يُجمع على توفره فيها كل من حضر هذه الندوة، أياً كانت مشاربهم.

وقد افتتح الندوة وزير الثقافة والمحافظة على التراث، واختتمها وزير الشؤون الدينية، وقدم كل منهما بحثاً يتعلق بالمحتفى به الشيخ محمد الخضر حسين، والمدرسة التونسية في الفكر الإصلاحي، وهي المدرسة التي كان من أهم مميزاتها: النظر العميق في المسائل الفكرية، والانفتاح، وهي المميزات التي طبعت فكر الزيتوني التونسي وشيخِ الأزهر المصلح الفذ.

ومروراً بكل من حضر فعالياتها، وانتهاءً بما تمخض عنها من بحوث، ارتفعت الندوة بالطرح إلى مستوى لفت الأنظار إلى خصوصيات العلامة، وتأثيره الفعلي في الحياة العربية مشرقاً ومغرباً.

وقد ارتـأى المنظمون أن موضـوع المائـدة المسـتديرة «دور المثقف في توثيق العلاقات التونسية الجزائرية خاصة، والعلاقات العربية الإسلامية عامة: العلامة محمد الخضر حسين نموذجاً» سيكون موضوع الندوة المقبلة بحول الله.



شيخ الأزهر
العلامة التونسي محمد الخضر حسين
محل ندوة علمية في «نفطة»[1]

نظَّمت (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي) بالتعاون مع وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، ووزارة الشؤون الدينية ندوةً علمية أولى بنفطة من ولاية توزر حول العلامة محمد الخضر حسين وإصلاحِ المجتمع الإسلامي، وذلك بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاته.

وافتتح الجلسة العلمية الأولى وزير الثقافة والمحافظة على التراث الأستاذ عبد الرؤوف الباسطي، الذي أكد أن هذه الندوة التي تنظمها (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي)، والتي تندرج في سياق سعي دؤوب انطلق بهدي من سيادة الرئيس زين العابدين بن علي، على درب تحقيق المصالحة، مصالحة التونسي مع هويته الحضارية، ولا شك أن بلادنا قد أنجبت أعلاماً أفذاذاً، ومصلحين رواداً أسهموا في تغذية الفكر الإنساني، وإن المتتبع لتاريخ الأفكار يتبين خصوصية المدرسة التونسية التي اتسمت بالرأي العميق، والرؤية المتزنة، وباستشراف منعطفات السيرورة التاريخية،

(١) مجلة «الملاحظ» العدد ٨٢٩ الصادر في ٢٥ مارس ٢٠٠٩م ـ تونس بقلم الأستاذ محمد علي الشتيوي.

وبالانفتاح على الآخر، ونبذ الانغلاق والتعصب.

ثم ألقى الأستاذ فتحي القاسمي كلمة (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي)، وبين أن مرور نصف قرن على وفاة العلامة محمد الخضر حسين يمثل فرصة سانحة لتكريم هذا العَلَم الذي تعددت مواهبه، وسطع نجمه، وقد كان بَثَّ في المجتمع التونسي روح المبادرة والتجديد والتنوير، دافع عن الحرية، ودعا عالياً إلى الإصلاح، وعندما ضاقت به السبل، شدّ الرحال إلى الشام، فكان خير مدافع عن العروبة والإسلام، ثم رحل إلى مصر أين اختير شيخاً للأزهر الذي جدد فيه الحياة، وأحدث في الإسلام طفرة من التجديد.

وقد تخللت هذه الجلسة الترحيبية بالضيوف كلمة اللجنة التنظيمية، ألقاها الأستاذ محمد مواعدة، وكلمة السيد والي توزر، وكلمة العائلة ألقاها علي الرضا الحسيني، وكلمة (الجمعية الخلدونية بالجزائر)، وكلمة الأستاذ منجي الشملي باسم المشاركين.

وقدم الأستاذ محمد مواعدة مداخلة حول المرحلة التونسية في حياة الشيخ محمد الخضر حسين، خاصة وأنه أول من أنجز بحثاً جامعياً حول الخضر حسين منذ أكثر من ربع قرن تحت إشراف الدكتور المتميز منجي الشملي، وقد ركز على أهمية الفترة التونسية في ثقافة الشيخ الذي استطاع أن يساهم في الحراك الثقافي التونسي ببعثه أول مجلة تنويرية في مطلع القرن العشرين (١٩٠٤م)، وبالرغم من استقراره في الشرق، فإنه ظل وفياً لتونس، تدل على ذلك العديد من كتاباته.

كما أن بيته في القاهرة كان قبلة القصّاد من تونس، بل إن له الفضل

على بورقيبة عندما كان نكرة بالنسبة إلى المصريين؛ فقد تدخل الشيخ لتمكينه من اجتياز الحدود المصرية، كما جسم الشيخ وهو في مصر شخصية متعددة الأبعاد، فهو جزائري الأصول، تونسي التكوين والنشأة، رحل إلى الشرق، فكان له التميز، وسطع نجمه في مصر خصوصاً، وكانت له مساهمات في الثقافة الكونية في عصره.

ثم تحدث الأستاذ علي الرضا الحسيني عن المرحلة السورية في حياة الخضر حسين؛ حيث تتلمذ على يديه في سورية كثير من العلماء والأدباء، وكان له دور في (مجمع اللغة العربية) بدمشق، كما تركت أسرته كثيراً من الآثار الأدبية والعلمية، منها: مؤلفات شقيقه زين العابدين، وقدم الحسيني معرضاً يضم جلّ مؤلفات الشيخ الخضر، وقد اختص بطبع كتب الشيخ والمهاجرين التونسيين الذين استقروا في الشرق؛ من أمثال: محمد المكي ابن عزوز خالِ الإمام الخضر، وإسماعيل الصفايحي، وصالح الشريف، والشيخ الكافي.

أما الدكتور حسين بن عزوز، الذي قدم مداخلة حول زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز وأشهر أعلامها، وكانت حرمه الرسامة روضة يحيى قدمت على هامش الندوة معرضاً ضم لوحات تشكيلية استلهمتها من بيئة الشيخ في الحاضرة التونسية.

لقد لفت الدكتور ابن عزوز الانتباه إلى جذور الشيخ خضر حسين، وإلى عائلته التي وفدت من الجزائر، واستقرت بالجنوب التونسي مع عميدها الشيخ مصطفى بن عزوز، الذي تربى على يديه الشيخ الخضر حسين، ونهل من علمه، كما تتلمذ على خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز قبل أن يلتحق بجامع الزيتونة.

وفي الجلسة العلمية الثانية التي كان محورها: (العلامة محمد الخضر حسين والإصلاح الديني والاجتماعي)، وترأسها الأستاذ مجاهد توفيق الجندي، فقد افتتحها الأستاذ الحبيب الجنحاني بمحاضرة عنوانها: «الفكر الإصلاحي ومشاريع التحديث»، وقد أكد أنه اطلع على نصوص أخرى للشيخ الخضر تعتبر جديدة، وهي باللغة الألمانية، بحوث تناولت شخصيات متعددة من رواد الحركة الإصلاحية، واعتمدت على مجموعة من مذكرات أشخاص عرفوا مباشرة الخضر حسين، منهم: شكيب أرسلان، وإن من أبرز ملامح الفكر الإصلاحي رحلات هؤلاء الرواد إلى أوروبا، ومن أبرزهم: صالح الشريف، وإسماعيل الصفايحي، والخضر حسين، ومحمد باش حامبة، وقد كتبوا هذه الرحلات عن وعي، وهي ليست مجرد تسجيلات، بل أرادوا من خلال هذه النصوص نقل صورة التقدم في أوروبا إلى مجتمعاتهم، وتحدثوا عن الأفكار الإصلاحية.

وإنّ من أبرز هذه التيارات الإصلاحية:

١ ـ تيار يهدف إلى تجديد الفكر الديني، ونشر التعليم والتربية، والخضر حسين يندرج ضمن هذا التيار.

٢ ـ تيار يرى أنه لا يمكن التفكير في التحديث والحداثة قبل إنجاز مرحلة الإصلاح السياسي، قسم من هؤلاء سعى هذا المسعى التحديثي من داخل السلطة (ليس من الصدفة أن أبرز تيارات الفكر الإصلاحي انطلقت من إسطنبول ومصر وتونس، فمشروعات التحديث لهؤلاء الثلاثة انطلقت من داخل السلطة)، وقد تفطّن «حكيمُ السياسة» خيرُ الدين التونسي إلى أنه لا إمكان لمشاريع تحديثية تقدمية ضمن سلطة استبدادية.

٣ ـ تيار يختلف عن البقية، ويؤمن بضرورة الإصلاح الفكري والسياسي، والإفادة من الجوانب المضيئة والمشرقة في التراث العربي الإسلامي في مرحلة معينة.

أما المحاضرة الثانية، فقد كانت للدكتور كمال عمران، وهي بعنوان: تطوير الفكر الديني من خلال مجلة «السعادة العظمى».

وقد أكد في مستهل محاضرته: أن قدوم هذا «الآفاقي» إلى الحاضرة انطلق من «نفطة» حيث الشجاعة والجرأة والفطرة، وأن هؤلاء العلماء من أمثال العلامة الخضر حسين قد أهاجوا في الحاضرة نوعاً من التفكير غيّر الوجهة الثقافية؛ فقد جاؤوا إلى تونس، وفتحوا فتحاً مبيناً، وحملوا نسقاً فكرياً فيه من الجرأة والشجاعة الشيء الكثير، وأن الجامع الأعظم حين جاءه الشيخ الخضر كان فيه نزعتان:

أ ـ نزعة يترأسها الشيخ سالم بو حاجب.

ب ـ نزعة يترأسها الشيخ أحمد بن الخوجة، شيخ الإسلام.

فكيف شارك محمد الخضر حسين في هذه البيئة؟

١ ـ فكرة العقل: كيف عاد الخضر حسين إلى فكرة العقل لتطوير المنظومة الدينية؟

إن العقل عنده هو المؤسس لكل تطوير في المنظومة الدينية، فهو أداة للتأسيس، ولمراجعة الثقافة العربية الإسلامية.

٢ ـ التطوير بالعودة إلى الأصل، والأصل عنده مقتضى حديث نبوي شريف: «خير القُرونِ قَرني، ثم الذين يلونَهُم، ثم الذين يلونهم»، فإذا أردت أن تستصلح أحوال الدين، ينبغي أن تعود إلى هذه الفترة من الزمان.

٣ ـ التطوير بالتفقه في الدين انطلاقاً من آلية الاجتهاد.

٤ ـ التطوير انطلاقاً من القيم الحديثة، وهذا لافت في نظر الشيخ.

نستنتج إذن: أن للشيخ الخضر حسين:

أ ـ فكراً يدعو إلى تطوير المنظومة الدينية عبر القيم الإسلامية البحتة، وبيّن ذلك من خلال مقالاته في مجلته «السعادة العظمى».

ب ـ الشيخ اهتدى لأول مرة في تونس إلى الصحافة الدينية.

ج ـ الشيخ لم يكن من الإصلاحيين، بل كان من التطويريين، وحسبه أنه نفخ في البلاد التونسية هذه النسمات التي سيجني الفكر التونسي ما به يُرسي ثوابت الفكر الديني.

أما المحاضرة الثالثة، فقد كانت للأستاذة نجاة بو ملاّلة، وهي بعنوان: «مجلة السعادة العظمى وقضايا الإصلاح»، وبينت فيها: أن هناك رغبة شخصية من الشيخ الخضر حسين، واقتناعاً بقيمة الصحافة، ودورها في تقدم الأمة ونحت شخصيتها، وقد تعرضت إلى ظروف نشأة هذه المجلة في وقت كانت تعيش فيه تونس طفرة وحركة إصلاحية، واهتمت بدور مجلة «السعادة العظمى» في نشر الوعي الإصلاحي، وقد كان من أبرز أهدافها: إصلاح وضع المسلمين، وإعادة مجدهم الضائع، ودعوة إلى الاتحاد والتعاون من أجل قضايا العصر، والدعوة إلى نهضة جديدة، وقد حاولت أن تقاوم انتشار الطرق والزوايا، وتطوير الشريعة الإسلامية، وتطهيرها من الأفكار البالية.

أما المحاضرة الرابعة، فقد كانت للأستاذ جمال الدين دراويل، وهي بعنوان: تطور الخطاب الديني لدى الشيخ محمد الخضر حسين من «السعادة العظمى» إلى «الهداية الإسلامية».

لقد كان الشيخ ركناً من أركان النهضة الفكرية والأدبية؛ كما بيّن ذلك محمد الفاضل بن عاشور، وقد كان من أبرز ناشطي شيوخ الزيتونة في العقد الأول من القرن العشرين، وكان من أبرز محاضري الجمعية الخلدونية (١٨٩٦م) والجمعية الصادقية (١٩٠٥م)، وتأسست تحت إشرافه وتوجيهه أول جمعية طالبية بتونس، وهي (جمعية طلبة جامعة الزيتونة).

لقد أسس الشيخ الخضر مجلة «السعادة العظمى» وهو في مرحلة الشباب، وكان اقتحامه مجال الصحافة الفكرية دليلاً على سعة أفق الرجل ونشاطه.

لقد صدع الشيخ منذ المقال الافتتاحي بدور الاجتهاد في تطوير منظومة الشريعة الإسلامية، إنها نبرة معتبرة عن تحدّي الجمود والمحافظة، وهو ما سبب له الكثير من الاضطهاد والنكاية طوال مقامه في تونس، خصوصاً أنه كان ينتهج في فكره فهمَ مقاصد الشريعة الإسلامية، وقد عبرت مقالاته في المجلة عن نظر فسيح، ورؤية عميقة، ومنزع إصلاحي، وعالج الشيخ فيها قضايا الحرية والتقدم والتمدن.

أما المحاضرة الخامسة، فقد كانت للأستاذ أنور بن خليفة، وهي بعنوان: «الشيخ محمد الخضر حسين مفسراً»، وقد تعرض فيها إلى منهج الشيخ في تفسير القرآن الكريم، ومصادره، وإنتاجه في التفسير، وقد كانت له بصمته الخاصة في تفسير بعض آيات القرآن تدل على سعة اطلاع الرجل على مدونة التفسير في حقب زمنية مختلفة.

أما الجلسة العلمية الثالثة، فقد كان محورها: العلامة محمد الخضر حسين ومساجلاته الفكرية، ترأسها الأستاذ محمد مواعدة، وافتتحها الأستاذ

فوزي المصمودي (الجزائر) بمحاضرة عنوانها: الشيخ محمد الخضر حسين صحفياً.

لقد كانت مجلة «الهداية الإسلامية» مجلة مغاربية بامتياز، دافعت عن القضايا الإسـلامية والوطنية والعربية، مدير المجلة الخضر حسين خصص افتتاحية العدد للدولة الحسينية بتونس، معرّجاً على الدول التي تعاقبت على تونس، وقد كان الشيخ محمد النيفر، والطاهر بن عاشور، والمكي بن عزوز من محرري هذه المجلة، وقد كانت تصل إلى الجزائر عن طريق عبد الحميد ابن باديس، وأسندت مشيخة الأزهر رئاسة تحرير مجلة «نور الإسلام» للخضر حسين، وهي مجلة شهرية تصدر عن الأزهر الشريف تعمل على إنارة سبيل المسلمين، ومكافحة الطرق المنحرفة التي تنشرها مختلف التيارات الدينية، وقد أضاف إليه الشيخ الخضر قسماً بالإنجليزية وهو ما يحسب له.

مجلة «لواء الإسلام» كان للشيخ نصيب في إخراجها سنة ١٩٤٥م، وهي إحدى المجلات المصرية التي قامت بدور كبير في التثقيف الإسلامي، وأسندت له رئاسة تحريرها، وتصدت إلى الملحدين، ولأفكارهم الدخيلة، وعرّفت حقيقة الإسلام.

إن الشيخ الخضر حسين لم تقتصر مواكبته للحركة الصحفية على هذه المجلات، بل كان مواكباً للكثير من المجلات والجرائد، فقد كتب في جريدة «الزهرة» اليومية، و«الفجر» للحزب الدستوري، وراسل مجلة «البدر» الزيتونية، أما بمصـر، فقد كتب في مجلـة «الفتـح»، وكتب في مجلـة «مجمـع اللغة العربية»، إضافة إلى مجلة «مجمع اللغة العربية» بدمشق.

أما الدكتور فتحي القاسـمي، فقد كانت محاضرته بعنوان: «نقائض

العلامة محمد الخضر حسين»، وقد عرف بكثرة ردوده ومجادلاته، وتمحور حديثه حول ثلاثة آثار هامة للشيخ:

١ ـ «حياة اللغة العربية»، وهو رد على أحد الفرنسيين الذي تساءل بقوله: هل العربية لغة حيّة؟ وقد انتصب له هذا العالِم، وردَّ عليه رداً فيه كثير من العمق والدقة.

٢ ـ ردّه على كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» بمؤلف: «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم».

٣ ـ رده على كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» بمؤلف: «نقض كتاب في الشعر الجاهلي».

وما نلاحظه: مركزية المجادلة في المدرسة الإصلاحية عموماً؛ إذ كثير من هذه المؤلفات موسومة بروح جدالية أثارت كثيراً من الخبر، وقد انكبت نقائض الخضر حسين على معالجة مسائل وقضايا ترتبط بالآنية، وبين في رده على مقال (شارل نويل) أن الذي يتهم الإسلام ولغته بالعقم له رصيد كبير من الجهل بأسرار اللغة العربية وبحقائقها، وقد كان رده على هذه الدعوى قوياً، ومشبعاً بالدليل والحجة، ويرى أنه لابد من تضافر الجهود من أجل الدفاع عن اللغة العربية، وربطَ الشيخ بين الدفاع عن اللغة والوطن؛ حيث اعتبرها قضية وطنية، وبيّن بالحجة والدليل من واقع بيئته قدرة اللغة العربية على مواكبة الحداثة، وهي مسكونة بهاجس التطور.

أما فيما يخص الكتاب الثاني: «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، فما نلاحظه: أن الشيخ الخضر انخرط في دوامة الولاء السياسي؛ لأنه أهدى الكتاب إلى الملك فؤاد الأول، وقد كتب في ذلك المفكر محمد عمارة «أجود

دراسة كتبت وقتذاك، إلا أن صاحبها ساقها في الموكب الملكي»، وقد وظّف الشيخ ثقافته الزيتونية المتينة، والأزهرية العميقة لنقض هذا الكتاب، وإبطال آراء علي عبد الرازق، وجادل هذا المؤلف بدقة متناهية، فكان عالماً ثبتاً، متمكناً من المنظومة الفقهية والسياسية في حقب زمنية متلاحقة، وفيما يتعلق بمؤلفه: «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، فما نلمسه أن الشيخ الخضر حسين كان مهتماً بالأدب، وتمرس بالآداب، وعرف شواردها، وقد بيّن أن طه حسين تلقّف أفكاراً وافدة تطعن في الإسلام والعربية، وقد كان متأثراً بأطروحات بعض المستشرقين الذين ناصبوا الإسـلامَ العداء، وندّد الخضر بمن ينادون ويلهجون بحرية الفكر، وهم ينالون من الشريعة الإسلامية، وقد كانت الفكرة المركزية التي يقوم عليها الكتاب: تفنيد مطاعن طه حسين، وكان من أهم ما جادل به الشيخ طه حسين هو: ضرورة أن ينطلق من النص التأسيسي؛ أي: من القرآن، وليس مما كتبه الرواة.

إن اطّلاع الشيخ الدقيق على فرائد العربية ودقائقها اقترن بردّ من منطق دفاعي.

إن الشـيخ الخضـر حسـين في ردوده ونقائصـه الكثيرة خزانـة علـم، وأحد العلماء الذين اقتنعوا بضرورة المجادلة لتقديم إضافة معرفية دقيقة، وقد تميّز بالجدل العنيد، والحصر الشديد على المخاطرة الدقيقة، والحجة الصارمة.

لئن كان جدل الشيخ قائماً على روح تحررية نزاعة إلى الاعتدال، فإننا نلاحظ في مقابل ذلك ـ من خلال نقائضه ـ تضييقه الخناق على العقل.

أما الأستاذ محجوب عون، فكانت محاضرته بعنوان: الشيخ محمد

الخضر حسين شـاعراً، وبين فيها : أن الشيخ نشر شعره قبيل وفاته بعقد من الزمان، وبإلحاح من المقربين منه، وذكر أن شعر الخضر حسين حَكَمَه أمران اثنان: أمر الشيخ العالم من جهة، والذي يجد حرجاً في قرض الشعر؛ كما كان الحال مع الإمام الشافعي، والأمر الثاني: هو أمر الناقد؛ فقد كان الخضر حسين ناقداً من طراز رفيع، فقد رد على طه حسين في كتابه: «نقض كتاب الشعر الجاهلي»، وردّ على علي عبد الرازق بكتاب: «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، وألف كتابه المهم في التنظير للشعر، وهو كتاب: «الخيال في الشعر العربي».

وهذه الشخصية العلمية النقدية كان لها تأثير كبير في الشخصية الشعرية للشيخ الخضر حسين، ولذلك كان شعره صدى لروح العالم، فلم يعالج من القضايا إلا ما ارتبط بالأخلاق، وإصلاح المجتمع، وخلا شعر الشيخ «خواطر الحياة» من الغزل، وحضرت فيه الإخوانيات، والتغني بالأوطان، والرثاء. . . وختم الأستاذ محجوب عون مداخلته بالإشارة إلى أن الشيخ كان شاعراً ملتزماً بقضايا الوطن والأمة، حتى وهو في ديار الغربـة، ولكن هذا الشـعر لم يكن شغل الشاعر الشـاغل، فعملت فيه أصابع الشيخ الملتزم كما أصابع الشاعر المسكون بعواصف العواطف.

ثم كانت **الجلسـة العلمية الثالثة** محورها: «دور المثقف في توثيـق العلاقات التونسـية الجزائرية خاصـة، والعلاقات العربية الإسـلامية عامة: العلامة محمد الخضر حسين أنموذجاً»؛ بإشراف السيد وزير الشؤون الدينية الأسـتاذ أبي بكر الأخـزوري، وقد ركّـز الأسـتاذ العربي الزبيري (الجامعـة الجزائرية) في تدخلـه على الأمانة المنوطـة بعهـدة المثقف المغاربي لجبـر

ما كسرته السياسة، والاضطلاع بدور طلائعي في صلب الفضاء المغاربي الذي يعاني من الأزمات، وعدم تكتّل رجال الفكر من أجل كسب الرهان، ومواجهة أسباب الصراع.

كما دعا المثقفين في المغرب العربي خصوصاً إلى الاضطلاع بدورهم المنشود؛ لإنقاذ الوضع الذي تردّى فيه الواقع المغاربي؛ نتيجة استقلال المفكر، وعدم انخراطه في اتجاه التحرير والتنوير، وبناء صرح الأفكار الجديدة بإصلاح الواقع المغاربي.

أما الأستاذ مجاهد توفيق الجندي (مصر)، فقد أحضر بعض معدات الشيخ الخضر حسين، والأدوات التي كان يستعملها في حياته اليومية، وأكد أن الشيخ عالم من أعلام الإسلام، فريد عصره، ووحيد دهره، سياسي قاد السفينة إلى برّ الأمان، صحفي لا يشق له غبار، شاعر وأديب وخطيب، وأشار الأستاذ مجاهد إلى كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، وقال: إن هذا الكتاب ليس له، ولكنه لطه حسين، فقط أكد فيه أن الخلافة ليست من الدين في شيء، وهذا أسلوب طه حسين؛ لأنه يريد تصفية حسابه مع شيوخ الأزهر، ولا يمكن لمثل علي عبد الرازق أن يصدر منه هذا الكتاب، بل ذهب أكثر من ذلك، وقال: إن طه حسين أعطاه الفرنسيون الدكتوراه في جلسة شاي، ثم تحدث عن انتساب الخضر حسين إلى أعلى هيئة علمية في مصر، وعن سبب اختياره لمشيخة الأزهر الشريف سنة ١٩٥٢م، والتي مثلت نقطة تحول كبيرة في حياته، وقال: إن ملفه موجود في رئاسة الجمهورية، ولم يفرج عنه إلى الآن، لذلك كانت المصادر ـ ولا زالت ـ شحيحة حول فترة مشيخته للأزهر.

واختتم الندوة العلمية وزير الشؤون الدينية الأستاذ أبو بكر الأخزوري بمداخلة قيّمة، أشار فيها إلى أهمية هذه الندوة المتأتية من كونها حلقة من حلقات السلسلة الإصلاحية التونسية من بداية القرن ١٩ إلى التغيير، فقد تناولت البحوث القيّمة بالدرس فكرَ عَلَمٍ من أعلامنا الأفذاذ، حريّ بنا جميعاً أن نستلهم من فكره ومواقفه ما يدفع بنا إلى الأفضل، وهناك جوانب كثيرة من شخصية الشيخ جديرة بالاعتبار، ولعل أبرزها: منهجه التنويري في تناول قضايا الفكر الإصلاحي، وقد سلك سبيل الدرس المعمّق، والنظر الشامل، قوام بحثه: النقد والتعريف والتعليل، منهجه أَهَّله لأن يكون مستنيراً، رافضاً لكل فكر ماضوي، كان متفتحاً، يعتمد الرأي المستند إلى دليل، رفض القول بغلق باب الاجتهاد، واستدلّ بمقتضى المنطق.

وبيّن السيد الوزير أننا اليوم نتمسك بهذا المنهج العقلاني الذي لا غنى عنه في تحقيق تطلّع المجتمعات الإسلامية إلى الرقي الحضاري، مستدلاً بنُبذ من خطب الرئيس زين العابدين بن علي، وأشار إلى أن الخضر حسين كان واعياً بضرورة تربية الشخصية الفردية والجماعية على التمسك بالهوية المتشبثة بالثوابت؛ إذ يجب علينا أن نصل إلى مرحلة صنع المعرفة، وصنع التاريخ، وذلك استناداً إلى هويتنا.

ويضيف الأستاذ أبو بكر الأخزوري: أن كل منطلقات الشيخ منطلقات إصلاحية مبنية على النصوص التأسيسية، وعلى العلوم الشرعية، وعلى الفكر الديني النيّر المؤسس على الاجتهاد، وبيّن ـ أيضاً ـ: أن الشيخ الخضر حسين لم يكتف بطرح المسألة اللغوية في محاضراته، بل تجاوز ذلك إلى العمل الميداني من خلال الجمعيات الثقافية، ومن خلال العمل المؤسساتي؛ فقد

أدرك أن اللغة وعاء حضاري ولابد أن تواكب تطور المجتمعات العربية، وهو ممّن حرص على حذق اللغة الأجنبية، والتفتح على الآخر، فاكتسب الخصال الثورية لمعرفة الواقع المتجدد. . .



الجمعية التونسية للدراسات
و البحوث حول التراث
الفكري التونسي

Association Tunisienne des Etudes
et Recherches sur le Patrimoine
Intellectuel Tunisien

شهادة تقدير

سلّمت إلى الأستاذ ...... علي الرضا الحسيني ...... بمناسبة

تكريم الجمعية التونسية للدراسات و البحوث حول التراث الفكري التونسي له، اعترافا

بفضله على تونس و بدور أبحاثه و مؤلفاته و أنشطته الفكريّة و المتنوّعة في تحقيق

مزيد من الإشعاع و التميّز.

حرّرت بتونس في 2009/01/18

الرئيس د. كمال عمران

ATERPIT
Tel : 71.571.627
Tel : 71.572.501

إنجاز و طبع ديوان قيس الأراضي و رسم الخرائط

فهرس الموضوعات

❐ ❐ ❐